أسـرار القـرآن

الجزء السابع

للإمام المجدد السيد محمد ماضي أبي العزائم.
مسجده وضريحه ومكتبته العلمية بالقاهرة
ومشيخة الطريقة العزمية
السيدة زينب : تقاطع شارع مجلس الشعب مع تقاطع شارع بورسعيد

تليفون المكتبة/

002 022 3901030

الإهـــــداء

إلى الروح التى سرت فى وجودنا فأحيته، وفى قلوبنا فأنارها، وفى هممنا فشحذها، وفى كياننا فغمرته.

إلى العقل الذى استنار بأنوار اليقين ، وسما فوق البشرية وتنزه عن سفاسفها .

إلى القلب الذى استقرت فيه أسرار الوراثه فوعاها ، وحمل الأمانة فأداها .

إلى اليد التى ما كفَّت عن الإحسان يوما – حتى إلى من أساء إليها – وما كلت عن العمل لله حتى أتاها اليقين.

إلى من صال بحق ، وجال بصدق ، يرمى بسهم الحق هنا وهناك غير هياب ولا وجل .

إلى من حمل لواء هذه الدعوة المحمدية إلى أرجاء المعمورة بلا كلل ولا ملل .

إلى الهمه السامية العالية التى شهد لها العدو قبل الصديق .

إلى من علا من عنده الحق على كل شئ فكان لسانه الذى ينطق به ويده التى يبطش بها ، ورجله التى يمشى بها .

إلى من أخرج إلى النور تراث جده الإمام المجدد أبى العزائم عليه السلام ، جمعا وتقديما وتنظيما وتعليقا وتحققيا وتوضيحا وطبعا ونشرا وتوزيعا .

إلى من كان أساس تقيمه لأبنائه وتلاميذه ومحبيه هو مدى عملهم فى هذه الدعوة انتظامهم تحت لوائها .

إلى من أضناه العمل على إصلاح فساد غيره ،فمد يده إليه ليرتقى به من حضيض سفله ، ووقوفه عند نفسه ، وكثيرا لم يسلم من لسان من أحسن إليه ، ومن إعراض من أقبل عليه .

إلى الواصل لرحمه ، والمحسن لأهله ، والبار بأبيه وجده .

إلى من أحسن الضيافة ، وأكرم الوفادة ، وأنزل كلا فى منزلته .

إلى من لهجت ألسنة أعدائه بأفضاله،وأعطى عطاء من لا يخاف الفقر،لآنه ينفق من خزائن ربه،وخزائنه تعالى مملوءة لا تنفذ .

إلى من حَسِبتُ وظننت دوما أنه سيشيعنى إلى مثواى ، فإذا بالقدر يفرض على أشيعه إلى مثواه .

إلى من تنطق كل ذرة من ذرات ذلك الصرح الهائل للطريقة العزمية باسمه ، وتشهد بجهده وجده وعمله .

إلى من بنى هنا وهناك المراكز الإسلامية والمعاهد الدينية ، والمساجد التى يذكر فيها اسم الله كثيرا .

إلى من لم يترك منبرا من منابر الحق إلا وأعلن كلمة الحق عليه،وسعى لنشرها بين الناس،نورا يستضاء به ،وبيانا مؤيدا بالحجج الدامغة، والبراهين الساطعة .

إلى من أنشأ دارا للكتاب الصوفى لمحبى النبى صلى الله عليه وآله وسلم وأهل بيته،وعشاق علوم الحقيقة .

إلى من جابت مجلتة (الإسلام وطن) الأرجاء معلنة كلمة الحق ، ومؤرقة راحة أهل الباطل ،ومزلزلة أقدامهم، مرتجفة منها قلوبهم ، لأنها تدحض باطلهم وتمويههم .

إلى من لم يخش فى الله لومة لائم فحارب بكلمته وقلمه الإرهاب والتطرف والإفراط والتفريط ، وشعاره كلمته المأثورة (قلها ومت) .

إلى من صدق فيه قول القائل :

إن الــــذى بـــينى وبـــين أقـــاربى وبـــين بـــنى عمـــى لمختلـــف جـــدا
إذا أكلوا لحمـــى وفـــرت لحـــومهم وإن هدموا مجدى بنيـــت لهـــم مجـــدا
وإن أمـــروا طـــيرا بـــنحس تمـــر بى أمرت لهـــم طـــيرا تمـــر بهـــم ســـعدا

- إلى من سما إلى مقام لا يزاحمه فيه سواه،وانفرد بمترلة لا يدانيه فيها غيره،وارتفعت هامته بالحق فلم ينل منها من تعلقت هممهم بالدنيا وزخارفها ، وانحطت إلى أسفل البعد والنأى ٠

- إلى من هو فى سمو قدره ، وعلو مترلته ، ورفعه مقامه ، ولو لم تكتب عنه كلمة

- كفاه أنه حما الأمانة وصاها .

- كفاه أنه رفع البناء وأعلاه .

-كفاه أنه وحده أمة،حركته بركة، وصمته فكرة،ونطقة عبرة،إن تكلمنا فيه فبه،وإن عملنا فعلى نهجه، وإن سكنا فبأدبه،وإن رحنا هنا وهناك ففى رياض زرعها وسقاها ،وبين ثمار يانعة حفظها ورعاها ٠

-أحس بالخجل بين يديه،لقصور كلمات قلتها عنه ،وأشرت بها إليه، لكنه كرم الكريم أن يتقبل البضاعة المزجاة من يد قاصرة عن الوفاء بالجميل، ولسان عاجز عن التعبير،وقلب متعلق بذلك المظهر الحقى الذى حارت الأفئدة فيه،وانزوت كلمات الثناء بين يدية خجلا أنها لا تسمو إلى الوفاء بحقه،ولا تشير إلى حقيقة مقداره،أو تبدى من أسراره وأنواره ٠

- إلى الراحل الحى ٠

- إلى سيدى ومولاى الإمام الشهيد السيد عز الدين ماضى أبى العزائم عليه السلام، أهدى الجزء السابع من (أسرار القرآن) وهو بكله ثمرة جهده ،ما لى فيه من

فضل،فهو الذى جمعه ونظمه وعلق عليه وأشار إليه ووضع كل ما فيه من لمسات عرض ، وفن إخراج ،وسلمه إلى المطبعة على هذا النحو .

ولكن شاء القدر أن يشرفنى بهذه الكلمات عسى أن يتقبلها منى ، وأن يعيننى ربى على الوفاء بعهده، واستكمال مسيرته ، والقيام بحقوق تبعته،وأبرأ إلى الله تعالى من حولى وطولى ، وأوجه إليه سبحانه وجهى ، وأسند إليه جل شأنه ظهرى ، لا ملجأ ولا منجى منه إلا إليه .

رب أقمتنى فأعنى ،وحملتنى فاحمل عنى ، وها أنا ذا بك أصول وبك أجول، ولا حول ولا قوة إلا بالله العلى العظيم ، وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبة وسلم .

قوله تعالي: ﴿لَتَجِدَنَّ أَشَدَّ النَّاسِ عَدَاوَةً لِّلَّذِينَ آمَنُواْ الْيَهُودَ وَالَّذِينَ أَشْرَكُواْ وَلَتَجِدَنَّ أَقْرَبَهُمْ مَّوَدَّةً لِّلَّذِينَ آمَنُواْ الَّذِينَ قَالُوَاْ إِنَّا نَصَارَى ذَلِكَ بِأَنَّ مِنْهُمْ قِسِّيسِينَ وَرُهْبَانًا وَأَنَّهُمْ لاَ يَسْتَكْبِرُونَ﴾ {٨٢}المائدة (١)

بعد أن بين الله تعالى خبث اليهود وعنادهم الذى اقتضى قتل بعض أنبياء الله، وتكذيبهم وصدهم الناس عن الإسلام، وكيدهم لرسول الله ﴿ ﷺ وآله﴾، بين لنا حقيقة نجهلها، لأن اليهود- أخزاهم الله- أهل كيد ومكر ، فكانوا يخدعوننا بما فطروا عليه من الشر والضر .

فقال سبحانه : ﴿لَتَجِدَنَّ ﴾ أي: والله لتجدن، لأن اللام هنا للقسم والفعل مؤكد ، فالخبر من الله تعالى وهو الصادق جل جلاله، ومؤكد بالقسم وبنون التوكيد فبلغ نهاية التأكيد،أي: والله لتجدن يا محمد أنت وأهل الإسلام معك ﴿ أَشَدَّ النَّاسِ عَدَاوَةً ﴾ أي: من أشد الناس فى العداوة والبغضاء والكيد والخداع ﴿ لِّلَّذِينَ آمَنُواْ ﴾ أى : لك وللمسلمين معك ﴿ الْيَهُودَ ﴾ وهم بنو إسرائيل ، لأنهم من عهد موسى عليه السلام وهم أعداء الحق وعباد الأهواء والأطماع ، مع ما أظهر الله لهم على يد موسى من المعجزات الباهرات التى تجعل أهل التسليم من أكمل الناس إيمانا بأقلها إعجازا، وبعد هذا البيان من الله لا تجد مؤمنا على بصيرة يركن إلى يهودى ولو كان أباه أو أخاه أو أبنه، وكل من يدعى الإيمان ويميل قلبه لليهود يمرق من الدين كما يمرق السهم من الرمية .

﴿والذين أشركوا﴾ أي: الذين عبدوا الأصنام والشمس والقمر والنجوم ، ولك أن تقول : كل من عبدوا غير الله مطلقا ، وذلك لأن اليهود –أخزاهم الله – كذبوا رسل الله من قبل خاتم الأنبياء ، وقتلوا بعضهم ، وقد هموا بقتل رسول الله ﴿ ﷺ وآله﴾ بإلقاء حجر الطاحون عليه من فوق الجدار ، لولا أن الله سبحانه وتعالى حفظه وحفظ أصحابه معه كما تقدم ، وقد وضعوا له السم فى ذراع الشاة لعلمهم أنه يأكل الذراع ، وكم حاربوه سرا وجهرا صلوات الله وسلامه عليه ، فأنجاه الله وخذلهم .

وأما الذين أشركوا فإنهم كذبوا الله ورسوله ، ولا ينبغى لمسلم أن يتودد إلى من كذب رسول الله ﴿ﷺ وآله﴾ ولو كان أباه أو أخاه أو ابنه ، وهذا البيان من الله تعالى هو الميزان الذى توزن به همم أهل الإيمان ، ولذلك فإن بعض العلماء كان يقول : اللهم لا تجعل لكافر على يدا ، فيميل قلبى إليه، واجعلنى حربا على من حاربك وسلما لمن سالمك .

﴿وَلَتَجِدَنَّ أَقْرَبَهُمْ مَّوَدَّةً لِّلَّذِينَ آمَنُواْ الَّذِينَ قَالُوَاْ إِنَّا نَصَارَى﴾ سبب نزول هذه الآية الشريفة أن وفدا من الحبشة أرسله النجاشى إلى رسول الله ، وكان عددهم خمسة من القسس وسبعة من الرهبان ، فلما دخلوا على رسول الله وقرأ عليهم القرآن بكوا مما عرفوا من الحق وآمنوا وأسلموا ، وبلغ النجاشى فأسلم ، فأنزل الله تعالى هذه الآية .

وسبب إرسال الوفد أن رسول الله أمر بعض المستضعفين فى مكة من المسلمين أن يهاجروا إلى الحبشة ، فهاجر جعفر بن أبى طالب وعثمان بن مظعون ومعهما بعض فقراء الصحابة ، فلما علمت قريش بذلك أرسلوا رجالا منهم إلى النجاشى يبغضونه فيهم لقتلهم ، فقام رهط تحت قيادة عمرو بن العاص – قبل إسلامه – فوصلوا الحبشة قبل الصحابة ، لأن الصحابة كانوا يمشون على أرجلهم غالبا ، فلما وصل عمرو إلى النجاشى أخبره كذبا عن رسول الله ﴿ﷺ وآله﴾ ، وأخبره أنه أرسل إليه وفدا يجب عليه أن يرده أو يقتله ، قال النجاشى : إذا حضروا نتبين .

فلما وصلوا إلى باب النجاشى ، وأمروا الحاجب أن يستأذن الملك فيقول : إن أولياء الله بالباب ، فلما أخبره الحاجب ، قال : مرحبا بأولياء الله وأهله ، واستقبلهم ، فلما جلسوا أمامه دعوه إلى الإسلام ، فقال : ماذا يقول صاحبكم فى

عيسى ؟ فقالوا : يقول : إنه كلمة الله وروح منه ،قال : وما يقول فى أمه مريم ؟ قالوا : يقول : ﴿وَالَّتِي أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا فَنَفَخْنَا فِيهَا مِن رُّوحِنَا وَجَعَلْنَاهَا وَابْنَهَا آيَةً لِّلْعَالَمِينَ﴾ (١) فأسلم النجاشى وصدق ، وأرسل وفدا من عنده إلى رسول الله ﴿ﷺ وآله﴾ ، وبذلك أخزى الله وفد قريش فرجعوا خاسئين .

ومعنى الآية (ولتجدن) يا محمد من أقرب الناس مودة لكم الذين قالوا إنا نصاري،ثم بين الحكمة بقوله (ذلك) أى : ذلك الحب ، لأن المودة هى الحب ، فذلك الود والحب (بأن منهم قسيسيين) والقسيس فعيل وجمعه : قسس أو قساوسه ، والقس فى اللغه هو العالم الزاهد (ورهبانا) أى : ومنهم الرهبان ، والراهب هو الذى ترهب فامتنع عن ملاذ الدنيا (وأهم لا يستكبرون) على الحق لما جملهم الله من القابل للحق ، والكبرياء صفه الله تعالى ، ولا يتصف بها إنسان إلا إذا كان جاهلا بالله كافرا به .

قولة تعالى : ﴿ وَإِذَا سَمِعُواْ مَا أُنزِلَ إِلَى الرَّسُولِ تَرَى أَعْيُنَهُمْ تَفِيضُ مِنَ الدَّمْعِ مِمَّا عَرَفُواْ مِنَ الْحَقِّ يَقُولُونَ رَبَّنَا آمَنَّا فَاكْتُبْنَا مَعَ الشَّاهِدِينَ ﴾{٨٣}

أى : وكذلك من صفات القسيسين والرهبان – الذين هم على ما كان عليه عيسى عليه السلام – سرعة الاستجابة للحق ، ﴿وَإِذَا سَمِعُواْ مَا أُنزِلَ إِلَى الرَّسُولِ﴾ أى : القرآن – سواء سمعوه منه أو من ورثته العلماء – ﴿ تَرَى أَعْيُنَهُمْ

١- سورة التحريم آية ١٢ .

تَفِيضُ مِنَ الدَّمْعِ ﴾ فرحا بما ظفروا به من الحق الذى ينشدونه ، والعين قد تفيض الدمع فى الحزن والفرح ، قال العربى :

يَاعَيْنُ قَدْ صَارَ ٱلْبُكَا لَكِ عَادَةً تَبْكِينَ فِى فَرَحٍ وَفِى أَحْزَانِ

وفى قوله تعالي﴿مِمَّا عَرَفُواْ مِنَ الْحَقِّ ﴾ أى : من أجل معرفتهم بالحق الذى تلقوه عن عيسى عليه السلام ، ومن صريح الإنجيل الذى بشر ببعثة خاتم الأنبياء من ولد إسماعيل ، ومما عرفوه من التوراة عن موسى الذى بشر أيضا ببعثة رسول الله ﴿ ﷺ وآله﴾ ، وهؤلاء من النصارى هم الذين طهرهم الله من الطمع والحظ وحب الجاة والشهرة والسيادة فى الدنيا ، وغيرها من الموبقات التى سلبت الإيمان من قلوب غيرهم .

وإن كان وفد النجاشى سبب نزول الآية ، إلا أن خبر الله تعالى وحكمه على النصارى عام ، وكم أسلم جماعات من النصارى فى بلاد مصر عند الفتح ، وفى غيرها عندما سمعوا القرآن ، وعرفوا مقام عيسى عليه السلام فيه ، بعد أن كانوا يعملون ما فى الإنجيل الصحيح من البشائر برسول الله ﴿ ﷺ وآله﴾ ، ومن الدعوة إلى توحيد الله بصريح الإنجيل فى قول عيسى عليه السلام : اعبُدُوا أَبِى وأَبَاكُم الذى فى السَّمَاءِ . فجعل نفسه عبداً لله معهم ، وبعد قوله فى الإنجيل : (مَن آمَن كَإِيمَانِى فَليَعمَل كَأَعمَالِى وَأَكثَرَ) يشير إلى أن نعمة الله تعالى عليه بالإيمان سخر الله له بها كل شئ ، فإن الله خلق السموات والأرض وما فيهن مسخرة للعبد المؤمن الكامل الإيمان ، حتى جعل له المشيئة عنده سبحانه فى يوم القيامة ، قال تعالى : (لهم ما يشاءون عند ربهم) [1] ، وقوله تعالى : (لهم ما يشاءون فيها

١- سورة الزمر آية ٣٤ .

)[1] ، فمن آمن باليقين الحق كإيمان عيسى عليه السلام ، يحى المـــوتى ،ويـــبرئ الأكمة والأبرص ، ويخبر عن الغيب ، ويمشى على الماء ،وإذا أدرك زمان رسول الله ﴿ ﷺ وآله﴾ منح ما منحه عيسى وأكثر ، فإنه يمشى على الهواء أيضـــا ، وكـــم سمعنا برجال مؤمنين يكون الرجل منهم فى بلاد الهند فى صباح التاســـع مـــن ذى الحجة ويدرك الوقوف على عرفة بعد زوال الشمس فى يوم عرفة ، ولا حـــرج فى فضل الله ، فإن الله أسرى بحبيبه من مكة إلى بيت المقدس ، وعرج به مـــن بيـــت المقدس حتى أشرف على القدس الأعلى فى ليلة الإسراء .

﴿ يَقُولُونَ رَبَّنَا آمَنَّا فَاكْتُبْنَا مَعَ الشَّاهِدِينَ ﴾ الجملة حالية ، ومعنى الآيـــة الشريفة أن قسس وفد النجاشى وأحباره لما أن تشرفوا بالجلوس أمام رسول الله ﴿ ﷺ وآله﴾ وسمعوا القرآن فاضت أعينهم من الدمع فرحا بنعمة الله عليهم بالإسلام ،حال كونهم يقولون {ربنا} أى : يا ربنا صدقنا رسولك محمـــدا﴿ ﷺ وآلـــه﴾ فيما جاءنا به من عندك ، فاقبل إيماننا الذى هو الأصل فى الفوز بما لديك { فاكتبنا } أى : أثبتنا مع الشاهدين من أمة هذا النبى الكريم الذى بشرتنا به على لســـان موسى وعيسى ، وبأن أمته يكونون شهداء على الناس يوم القيامة،أو اكتبنا مـــع الشاهدين الذين يشهدون لك بالألوهية والوحدانية، أو اكتبنا مع الشاهدين الذبن يمنحهم الله شهود ملكوت السموات والأرض كما منحت خليلك إبراهيم عليـــه السلام .

والتأويل الأول – الذى هو : واكتبنا مع أمة محمد ﴿ ﷺ وآله﴾ الـــذين يكونون شهداء يوم القيامة على الناس يدل على رسوخهم فى العلم برسول الله ﴿ ﷺ وآله﴾ .

١- سورة ق آية ٣٥ .

قوله تعالى : َوَماَ لَنا لا نؤمن بالله وما جاءنا من الحق ونطمع أن يـــدخلنا ربنا مع القوم الصالحين (٨٤)

﴿ وما لنا لا نؤمن بالله ﴾ هذه الآية بيان من الله تعالى بما اعتــراهم مـــن جواذب الحق إقبالا عليه جل جلاله ، وهو إنكار شديد للامتناع عن الإيمـــان فى جملة حالية ، وتأويلها : وما يمنعنا عن التصديق بالله تعالى الذى انفرد بالألوهيـــة والربوبية وهو الواحد الأحد الذى لم يلد و لم يولد ٠

﴿ وما جاءنا من الحق ﴾ الواو هنا للحال ، وما وصلتها جملة حالية ، أى : والحق الذى جاءنا من الله تعالى ، وهذا الحق هو محمد ﴿ ﷺ وآله﴾ ، وما جاء به إلى الخلقه من الله تعالى ، ومن انكشفت له تلك الحقائق انجذب إلى الإيمان جذبة الموقنين ، ويكون من العجب العجاب امتناعه عن قبول الإيمان بعد قيـــام الحجـــة ووضوح المحجة ٠

﴿ونطمع أن يدخلنا ربنا مع القوم الصالحين ﴾ هذا الخبر من الله عنـــهم دليل على كمال أدبهم ورسوخ قدمهم فى المعرفة ، فإن أمثال هؤلاء لهم كفلان من رحمة الله ، لأنهم آمنوا بعيسى عليه السلام وبخاتم الرسل عليه الصلاة والسلام ، قال تعالى : (ياأيها الذين ءامنوا) بعيسى وموسى (اتقوا الله وءامنوا برسوله محمد ﴿ ﷺ وآله﴾ (يؤتكم كفلين من رحمته ويجعل لكم نورا تمشون به) [١] ، ومع هذا الفضل الذى مَنَّ الله به عليهم يأبى عليهم العلم بالله وبرسله عليهم الصلاة والسلام إلا أن يقفوا موقف الأدب خشية من خفى المكر الإلهى ، وهكذا يكـــون أهـــل الأدب مع الله تعالي، والقوم الصالحون الذين وفقهم الله لمحابه ومراضية فصـــلحت

١- سورة الحديد آية ٢٨

عقائدهم وأقوالهم وأحوالهم وأعمالهم ، حتى صلحوا لأن يكونوا على منابر من نور أمام عرش الرحمن، وفازوا برضوان الله الأكبر ، كما قال الخليل عليه السلام : (رب هب لى حكما وألحقنى بالصالحين) [1] وهذا هو أكمل الأدب من أكمل الرسل بعد رسول الله ﴿ﷺ وآله﴾ .

قوله تعالى : ﴿ فَأَثَابَهُمُ اللَّهُ بِمَا قَالُوا جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَذَٰلِكَ جَزَاءُ الْمُحْسِنِينَ ﴾ ﴿٨٥﴾

تأويل هذه الآية – بحسب ما قبلها – أن القوم قالوا: (ربنا ءامنا فاكتبنا مع الشاهدين) وهذا القول الذى قالوه دليل على كمال معرفتهم التى هى عقد قلوبهم على التصديق بما جاء به رسول الله ﴿ﷺ وآله﴾ ، وأنهم بهذا التصديق يبلغون الدرجات العلا فى جنات تجرى من تحتها الأنهار .

وهذا القول الصادق عن قلب انعقد على تصديق الله ورسوله ﴿ﷺ وآله﴾ برهان على أن القوم وفقهم الله للقيام بشعب الإيمان جميعها ، التى هى بضع وسبعون شعبة .

وهذه الآية الشريفة مرتبطة بقولة تعالى : (مما عرفوا من الحق) فيكون من مقولهم الذى أخبرنا الله تعالى عنه مقولهم : (ربنا ءامنا فاكتبنا مع الشاهدين) ، (وما لنالا نؤمن بالله وما جاءنا من الحق) وفى قوله تعالى : (فأثابهم الله بما قالوا) القول الذى صدر عن يقين حق عقد القلب عليه ، فإن الله سبحانه يقول دائما

١- سورة الشعراء آية ٨٣

للمنافقين مشنعا عليهم : (يقولون بألسنتهم ما ليس فى قلوبهم)[1] فمجرد القول الذى لا يكون صادرا عن قلب عامر باليقين الحق لا يرفع قائله إلى تلك الدرجة العالية فى جنات النعيم . (جنات) أى : بساتين ملتفة يانعه ، و(تجرى من تحتها الأنهار) أى : من تحت أشجارها (خالدين فيها) أى : مؤبدين ولهم مزيد فيها من النعيم والمواجهات والأنس بأهل المراتب العالية ، وهذه الآية دلت على أن التصديق بما جاء به رسول الله ﴿ ﷺ وآله﴾ يبلغ بالمؤمن تلك الدرجة ، فإذا وقع فى الخطايا فهو إلى الله إن شاء غفر له وأدخل الجنة ، وإن شاء طهره وأدخله فى النار ثم يدخله الجنة ، وإنا لنطمع أن يوفقنا الله قبل موتنا إلى التوبة مما اقترفته جوارحنا ويقبل الله توبتنا .

(وذلك جزاء المحسنين) اسم الاشارة عائد إلى ما بشرنا الله به من إثابتنا بالجنات التى تجرى من تحتها الأنهار ، (جزاء المحسنين) أى : يتفضل تعالى به على من أحسنوا القول مع رسول الله بالسمع والطاعة ، وقد تقدم بيان المحسنين والإحسان فيما سبق .

قوله تعالى : ﴿ وَالَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا أُوْلَـئِكَ أَصْحَابُ الْجَحِيمِ﴾ (٨٦)

١- سورة الفتح آية ١١

بعد أن بين سبحانه وتعالى ما تفضل به على نصارى وفد الحبشة وعلى غيرهم ممن كانوا على ما جاءهم به المسيح عليه السلام وما أعده لهم يوم القيامة ، بين لنا سبحانه وتعالى — فى هذه الآية– ما عليه الكفار وما توعدهم به يوم القيامة

(وَالَّذِينَ كَفَرُواْ) أى : جحدوا الوهية الله تعالى وبعثة خاتم رسله محمد﴿ ﷺ وآله﴾ ، (وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا) أى : أنكروا ما أنزلنا إلى الخلق أجمعين على لسان محمد﴿ ﷺ وآله﴾ ،وعميت بصائرهم عن النظر إلى ما أظهره الله تعالى من الدلائل والحجج فى ملكه وملكوته ، وما أظهره الله من المعجزات الباهرات التى شهدوها عيانا مما لا يحصى .

(أُوْلَئِكَ أَصْحَابُ الْجَحِيمِ) اسم الإشارة عائد إلى من كفروا بالله وكذبوا بآياته وجحدوا نعمه ، وأصحاب الجحيم أى : أصحاب النار التى تحرق من أرداه كفرة وتكذيبه فيها ، وأصحاب ، أى : المخلدون ، لأن صاحب الشئ لا يفارقة ، وهذا وعيد من الله تعالى يذيب قلوب أهل الإيمان بالله مع كمال يقينهم بالنجاة ، وعلمهم بأن العاقبة لا يعلمها إلا الله ، ولهذا يسألونه حسن الخاتمة ، أما من أقفل الله قلوبهم فإنهم لا يعقلون عن الله شيئا ، وإنما هى الحجة القائمة عليهم عندما يرون صدق الله فى وعده ووعيده ، ولديها يتمنون أن يكونوا ترابا حيث لا ينفعهم إيمانهم ، ومن يضلل الله فلن تجد له وليا مرشدا .

قوله تعالى : } يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ لاَ تُحَرِّمُواْ طَيِّبَاتِ مَا أَحَلَّ اللّهُ لَكُمْ وَلاَ تَعْتَدُواْ إِنَّ اللّهَ لاَ يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ {٨٧}

(يأيها الذين ءامنوا لا تحرموا طيبات ما أحل الله لكم) سبب نزول هذه الآية الشريفة أن رسول الله﴿ ﷺ وآله﴾ جلس بين أصـــحابه رضـــى الله عنـــهم فذكرهم بما فى الجنة من نعيم مقيم ، وبما فى النار من عذاب أليم، فلما انصرفوا من مجلس رسول الله اجتمعوا فى بيت عثمان بن مظعون وبينوا تلـــك الحقـــائق الـــتى أخبرهم بها رسول الله ، فقال بعض الجالسين :نقاطع نساءنا وجوارينا ، وقال آخر : وآذاننا وآلسنتنا و وقال ثالث : بل وأعيننا أيضا ، حتى لا يقعوا بنا فيما يغضب الله فنقع فى النار ، فبلغ ذلك رسول الله ﴿ ﷺ وآله﴾ فجمعهم وقام فيهم خطيبـــا مبينا أنه صلوات الله وسلامه عليه يأكل الطيب من الطعام ، وينام على ما يجده من لين الفراش ، وينكح النساء ، وهذه سنته التى تتفق مع فطرته ، ومن خالفة فلـــيس منه [1] ، فأنزل الله تعالى هذه الآية الشريفة ومعناها: يا أيها الـــذين صـــدقوا الله ورسولةلا تحرموا أنفسكم ما أفاء الله عليكم من طيبات مـــا أحـــل الله لكـــم ، والطيبات هى المشتهيات من الأكل والشرب واللباس التى خلقها الله وأحلها لنـــا حسب شريعته ،فإن الله تعالى لم يأمرنا بالرهبانية فى الإسلام كما فعل النصـــارى الذين تركوا المدن وفروا إلى البوادى والقفار وأقاموا الصوامع ، وتركـــوا نكـــاح النساء وأكل اللذائذ من الطعوم ، ومع ذلك فإن قلوبهم منعقدة على الكفر الصريح ، أو كما فعل اليهود من تحريم بعض المشتهيات على أنفسهم ، فإن الله تتره وتعالى خلق تلك الطيبات تفضلا منه على بنى الإنسان ، وهو الغنى عن الكون ومن فيـــه وما فيه ، وجعل ثمن تلك النعم حمد الله وشكر نعمه ، فمن وفقه الله تعالى للشكر بعد أن ينعم بما تفضل الله به عليه فقد أدى حق تلك الحقائق كلها ، وفاز من الله

١- رواه البخارى ومسلم : كتاب النكاح، والإمام بن أنس عن جابر بن عبد الله

بالنعيم المقيم يوم القيامة ، ومن لم يوفقه الله تعالى لشكره على نعماه خسر الـــدنيا والآخرة ، وفى هذه الآية من الإحسان إلينا ما يوجب دوام الشكر لله تعالى علـــى تفضله علينا ، وفيها دليل على أن الصحابة رضوان الله عليهم كـــانوا يأخـــذون بالعزائم فى العبادة والمعاملة،والمسارعة إلى محاب الله ومراضية جل جلاله ، فـــإهم كانوا يشدودن على أنفسهم والله سبحانه يتداركهم بلطفه فيوسع عليهم .

(ولا تعتدوا إن الله لا يحب المعتدين) الاعتداء هو تجاوز الحد الذى حده الله إفراطا أو تفريطا ، فمن شدد على نفسه فى شئ لم يشرعه الله له — كما كان يريد عثمان بن مظعون رضى الله عنه وغيره من الصـــحابة أن يقطعـــوا بعـــض حواسهم — فإنه اعتداء وإفراط ، وكما كان يهم به بعض الصحابة من ترك الأكل الشهى واللباس البهى والفراش الوطى وترك النساء والنوم ، فإنه — وإن كان ممـــا تزكو به النفوس — فإنه اعتداء وخروج عن الحد الوسط ، وهو أفراط أيضا ، ومن الاعتداء التساهل فى تأدية الواجبات الشرعية بتأويل بعيد أو بمخالفة فهو تفريط ، كإهمال تأدية الصلوات الخمس فى أوقاقا ، وكذلك عدم إيتاء الزكاة أو الحج ، أو الإهمال فى بر الوالدين وصلة الرحم ، أو فعل الخطايا ، أو الكبائر ، فإن ذلك كله اعتداء على حدود الله تعالى ، ومن أفراط فى دينه فإن الله لا يحبه ، لآن محبـــة الله حقا لمن حافظ على متابعه رسول الله بنص الآية القرآنية الكريمة: (قل إن كنـــتم تحبون الله فاتبعونى يحببكم الله ويغفر لكم ذنوبكم) [1] .

(إن الله لا يحب المعتدين) وقد تقدم الكلام على محبة الله للعبد ومحبة العبد لله فى قوله تعالى : (لا يحب الله الجهر بالسوء من القول إلا من ظلم) [2] .

١- سورة آل عمران آية ٣١ .

٢- سورة النساء آية ١٤٨ .

قوله تعالى :وكلوا مما رزقكم الله حلالا طيبا وأتقوا الله الذى أنـــتم بـــه مؤمنون [٨٨]

(وكلوا) الأمر هنا للإباحة والتخيير لا للوجوب ، لأن من كان مريضـــا ويضره بعض أنواع الطعام فلا بأس عليه إذا تركه ، لأن قوله : (مما رزقكم الله) أى : من الحيوانات المأكولة اللحم ، ومن النباتات الصالحة للغذاء ، ومن الثمـــار الناضجة التى تغذى الجسم كالعنب والتين والرمان وغيـــر ذلك ، وأما ما حرمـــه الله تعالى كلحم الخترير والميتة والموقودة والمتردية والنطيحة وما أكل الســـبع ممـــا لايصلح للتزكية فإنه مضر طبيا ومحرم شرعا ، وكذلك النباتات الصالحة للغذاء فإهنا مباحة شرعا وطبا ، وأما النباتات التى لا تصلح للغـــذاء كالســـيكران والأفيـــون والحشيش وغيرها من المخدرات أو المنومات المفسدة للعقول فإهنا محرمـــة شـــرعا وطبا ولا تستعمل إلا عند ضرورة طبية فى أمراض معينة وبإذن الطبيب المسلم التقى ، وبالمقادير الطبية اللازمة للشفاء من الداء ، لأن هذه النعم كلها مما رزقنا الله تعالى وتفضل هبا علينا ، وما تعدد أنواعها وأشكالها وطعومها وألواهنا وخواصها العجيبة إلا برهان قوى على أن الله تعالى خلق الإنسان مكونا من عناصر مختلفه ، وطبـــاع مخالفة لبعضها ، يحتاج فى غذائها وحفظ حياهتا إلى كل تلك الحقائق لطفا من الله ورحمه وعناية منه بخلقه ، ومن طيبات ما رزقنا الله تعالى أنواع كثيرة من معـــادن ننتفع هبا فى أدوية الأمراض وتتغذى هبا النباتات فتنفع فى الأغذية للإنسان والحيوان ، فسبحان اللطيف الخبير الذى أسبغ نعماه حتى أهنا لا تحصـــى عـــدا ، ولـــو أن الملائكة والإنس والجن اجتمعوا لعجزوا عن حصر عددها .

(حلالاً طيبا) أى : مما أحله الله لكم وأمركم باستعماله لما أودع فيه من الخواص ما به إصلاح البدن ونموه وحفظ حياته المدة التى قدرها الله تعالى ، فالحل

إشارة إلى صلاحيتها للأبدان وإلى أمرة بإباحتها ، والطيب هو الشـــهى اللذيـــذ يستطيبه الذوق والشم والبصر طعما وريحا ولونا .

(اتقوا الله) أى : وخافوا الله تعالى فلا تعتدوا فيحصل مـــنكم إفـــراط فى الغلو وترك المشتهيات ، أو التفريط فى العبادات واستعمال المحرمـــات ، فـــإنكم بإفراطكم تضرون أبدانكم ، وبترك الأكل والشرب واللباس والنـــوم والنكـــاح ، تمرض الأبدان ، وإذا مرضت الأبدان فسدت العقول فضعفت عن القيام بالواجب عليها من عبادة الله ومن عمل الخير لعباده ، والتفريط بترك العبـــاده والأخـــلاق الجميلة ، وبالوقوع فيما حرمه الله من الأكل والشرب المحرمين ، والسرقة ولعـــب الميسر وأكل الربا ومال اليتيم ، إلى آخر ما هو معلوم من المحرمات

ومعلوم أن الوقوع فى هذه المحرمات يسلب الإيمان من القلوب ، ويزيـــل الصحة والعافية ، ويوقع فى المرض العضال ، ويجعل الإنسان مبغضا بين قومـــه ، يعيش أضل من البهائم السائمة ، وكل تلك النعم التى تفضل الله بها هى إحســـان من الله إلينا ، لأنه غنى عمن سواه وما سواه ، والكل مفتقر إليه جل جلاله ، ومع تلك النعم التى لا تحصى أمرنا الله أن نستعمل النافع منها لنا ، وحرم علينا ونهانـــا عما يضرنا جسما وحسا وعقلا ونفسا ، فسبحان المتفضل بجلائل النعم اللطيـــف الخبير الرحمن الرحيم الرءوف العليم .

(الذى أنتم به مؤمنون) أى : الذى بين لكم كلماتـــه الذاتيـــه وجمالـــه وجلاله وبهاءه ونوره وضياءه ، فآمنتم به عقيدة بالقلـــب ، وإقـــرارا باللســـان ، وتصديقا بالعمل ، فإن تصديقكم بالله ورسوله﴿ ﷺ وآله﴾ يقتضى المســـارعة إلى القيام بالسمع والطاعة بأمرة ونهية سبحانه لتفوزوا بالسعادتين فى الدنيا والآخره .

قوله تعالى : لا يؤاخذكم الله باللغو فى أيمانكم ولكن يؤاخذكم بما عقدتم الأيمان فكفارته إطعام عشرة مساكين من أوسط ما تطعمون أهليكم أو كسوتهم أو تحرير رقبة فمن لم يجد فصيام ثلاثة أيام ذلك كفارة أيمانكم إذا حلفتم واحفظوا أيمانكم كذلك يبين الله لكم ءاياته لعلكم تشكرون [٨٩]

اليمين أربعة أنواع كما قدمنا فى سورة البقرة [١] –بر ، حنث ، ولغو ، وغموس– فاليمين البر أن يقسم أنه لا يفعل فيكون على بر إلى أن يفعل ، والحنث أن يقسم أنه يفعل فيكون على حنث حتى يفعل ، واليمين اللغو أن يقسم بلسانه غير مراع بقلبه الأمر ، كقوله والله لا آكل ، والله لا أشرب ، والله لا أدخل بيتك ، مما تغلب عليه العادة باليمين من غير توكيد بقلبه ، والغموس أن يعلم الشئ حقا ويقسم لأنه لا يعلمه ، أو يأخذة ويقسم أنه لم يأخذه ، وما أشبهها ، واللغو معفو عنه ، والغموس يغمس صاحبه فى النار فلا كفاره له ، والبر والحنث لهما كفاره ، كما قال الله تعالى لا يؤاخذكم الله باللغو فى أيمانكم ولكن يؤاخذكم بما عقدتم الأيمان) ٠

وكلمة (عقدتم) بتشديد القاف أو تخفيفها ، وبدون ألف بعد العين وبها ، وتأويل (عقدتم) أى : علمتم إباحة المقسم عليه شرعا والمكنة[٢] من القيام به ، فيكون عقد اليمين علم القلب بهاتين الحقيقتين – وصحته تنحصر فى النطق باللسان باسم من أسماء الله تعالى كقوله : أقسم بالله ، أو : والله ،أو : تالله – وهذا القسم يجب تنفيذه دون إبطاء ٠

١– راجع كتاب: (أسرارالقرآن)ج٢ ص١٥١ (أنواع الأيمان) يطلب من(دار الكتاب الصوفي) لنشر تراث الإمام المجدد السيد محمد ماضى أبى العزائم ﷺ، ١١٤ ش مجلس الشعب – القاهرة

٢– المكنة : التمكن ٠

أما من أقسم بغير الله تعالى وهو عازم على البر بقسمه يكون قد استهان بربه حيث عظم غيره ، والمستهين بربه يكون ظالما لنفسه ، إلا إذا كان قسمه بغير ربه بقصد عدم تنفيذ يمينه كأن يقسم الرجل ليرضى أولاده وزوجته وخدمه وأتباعه . فالشريعه أباحت له الكذب فى خمس حالات : حالة الحرج ، وحالة إرضاء من يعولهم، وفى حالة درء ما يسئ إلى أخوانه المؤمنين ، وفى سبيل الصلح بين متخاصمين ، وفى حالة وقوعه بين يدى أعداء متمكنين . فلو أقسم بولى صالح ، أو تقى معروف ، أو عالم مشهور ومراعيا تلك المعانى لا يؤاخذه الله ، أما من يقسم بالطلاق والعتاق ، أبو بأبية وابنه أو غير ذلك مما يطلبه الطرف الآخر معتقدا صدق اليمين يكون ذلك شركا خفيا أعاذنا الله من الشرك الخفى والأخفى .

(فكفارته إطعام عشرة مساكين من أوسط ما تطعمون أهليكم أو كسوهم أو تحرير رقبة فمن لم يجد فصيام ثلاثة أيام) بعد أن عتب الله تعالى على أفراد من الصحابه هموا بالغلو فى الدين وأقسموا أن ينقطعوا لعبادة الله ويصوموا النهار ويقوموا الليل ولا يأكلوا لحما طعما فى نيل رضوان الله تعالى ، بين الله تعالى لهم كفارة أيمانهم التى حلفوها تحليلا لهم من الوقوع فيما يؤاخذون عليه ، وتلك الكفارة كما بينها سبحانه وتعالى أنواع يختار منها المؤمن نوعا يكفر به عن يمينه ، وهى :

النوع الأول : إطعام عشرة مساكين من الطعام الوسط الذى اعتاده من ليسوا فقراء جدا ولا أغنياء جدا مما يأكله عامة الوسط من الناس .

النوع الثانى : كسوهم كسوة وسطا كما تقدم .

النوع الثالث :عتق رقبة مؤمنه من الرق بأن تكون له ، أو يشتريها ويعتقها

النوع الرابع : صيام ثلاثة أيام بشرط أن يعجز من أقسم عن كفارة يمينه ينبوع من الأنواع المتقدمة ، التى هى الإطعام أو الكسوة أو العتق ، وكان بعض العلماء يفتى الناس بالأشد عليهم ، فيأمر الغنى بالصوم، ويأمر الفقير بالإطعام أوالكسوة أو العتق ، حتى لا يقسم بالله ثانية إلا ما يعتقد القدرة على تنفيذه والبر بيمينه . والمؤمن الكامل لا يعامل من يحوجه أن يقسم بالله ، ولا يبلغ به الشك فى خبرة أن يؤيده للناس بالقسم ، والأولى له أن يترل نفسه مترله الهيبة فى قلوب الناس حتى لا يحتاجوا إلى القسم لتأكيد خبره ، وإنما نوع الله الكفارات لعلمه تعالى بأحوال عباده من فقر وغنى وتوسط ، فالصوم للفقراء الذين لا يملكون إطعاما ولا كسوة ولا عتقا ،والإطعام والكسوة للوسط ، ومن فوقهم ممن يلتحق بهم ، والعتق للأغنياء الذين تملك أيماهم الأرقاء .

(ذلك كفارة أيمانكم إذا حلفتم) اسم الإشارة عائد على أنواع الكفارات المذكورة ، وقوله : (كفارة) ملاحظ فيها حذف كلمه الحكم – أى : ذلك الحكم كفارة أيمانكم إذا حلفتم – أى : إذا وقع منكم القسم وعجزتم عن تنفيذ المقسم عليه إيجابا أو سلبا .

(واحفظوا أيمانكم) أى : حافظوا أن تقسموا إلا فيما هو ممكن الوقوع وفى أمر لا تحرمه الشريعة ، واحذروا أن تجعلوا الله تعالى عرضه للقسم به جل جلاله .

(كذلك يبين الله لكم ءايته لعلكم تشكرون) بين الله تعالى لأصحاب رسول الله الذين هموا أن يضروا أنفسهم وأن يتركوا الطيبات من المأكل والمشرب والمنكح والمسكن وغيرها ، أنه جل جلاله الذى يحل ويحرم ، وأنه خلق الطيبات لعباده ليتعرفوا إليه بها ، ويشكروه عليها وهو الغنى المغنى ، وبين لهم أنه لا يحب

المعتدين الذين يعتدون فيحرمون على أنفسهم ما أباحه الله وأحله ، أو يعتدون بأن يحلوا ما حرمه الله تعالى ، ثم بين لنا سبحانه وتعالى ما حرمه علينا ، كما بين مـــا أحله لنا ونهانا عن تحريمه على أنفسنا فقال سبحانه : (كذلك يبين الله لكم) أى : كما بين لكم فيما تقدم ، فقوله تعالى : (ءاياته) أى : أحكام دينه التى لا يكون المسلم مسلما إلا بالسمع والطاعة لها وأمرا ونهيـــاً (لعلكـــم تشـــكرون) أى : لتشكروا الله على ما أسبغه من نعماه دينا ودنيا ، وشكر الله تعالى هو العمل بمـــا أمرنا وبينه لنا ، والنهى عما نهى عنه سبحانه تعظيما لأحكامه وإعظامـــا لذاتـــه ، وذلك لأن الشكر هو العمل ، قال تعالى : (اعملوا آل داوود شكراً) [1]

قوله تعالى : يأيها الذين ءامنوا إنما الخمر والميســـر والأنصـــاب والأزلام رجس من عمل الشيطان فأجتنبوه لعلكم تفلحون [٩٠]

(يأيها الذين ءامنوا إنما الخمر والميسر والأنصاب والأزلام رجس من عمل الشيطان فأجتنبـــــوه) هذه الآية بيان لما حرم الله علينا مع بيان ما أحله لنـــا ، وبعد أن نهانا الله عن أن نعتدى ، والاعتداء إنما يكون بفعل المحرمات التى حرمهـــا الله تعالى ، وتأويل هذه الآية : يا أيها الذين صدقوا الله ورسوله إنما الخمر التى تستر العقول عن أن تفعل أسرار دين الله وأحكامه رجس من عمل الشيطان ، فاحذروا أن تشربوها أو تتعاطوا أى مسكر أو مفتر للأجسام ، وقد افتتح الله الآيـــة بـــأداة التأكيد والحصر إشارة إلى أن الخمر هى أم الكبائر . وسبب نزول هذه الآيـــة أن النبى ﴿ □ وآله﴾ حين قدم المدينة ووجد أهلها يشربون الخمر ويلعبون الميسر لم ينههم عما ألفوه – رحمة بهم ، وتأليفا لقلوبهم وانتظارا للوحى – حتى ابتـــدءوه

١- سورة سبأ آية ١٣

بالسؤال عن حكم الخمر فأنزل الله قوله تعالى : (يسألونك عن الخمر والميسر قل فيهما إثم كبير ومنافع للناس)[1] .

فقالوا : إن الله لم يحرمهما ، فمنهم من ظل على شربها ، ومنهم من تركها ، إلى أن صلى رجل من المهاجرين بأصحابه فخلط فى قراءته ، فأنزل الله قوله تعالى : (يا أيها الذين آمنوا لا تقربوا الصلاة وأنتم سكارى حتى تعلموا ما تقولون)[2] فترك البعض شربها نهائياً ، وشربها البعض ليلا فقط ، إلا أن اليهود والمنافقين انتهزوها فرصه للدس بين المسلمين وإيقاع الفتن والضغائن بين الأنصار والمهاجرين ، حتى رفع بعض الصحابة الأكف إلى الله ضارعين بقولهم رضى الله عنهم أجمعين : اللهم بين لنا فى الخمر بيانا شافيا . فأنزل الله قوله تعالى : (إنما الخمر والميسر والأنصاب والأزلام رجس من عمل الشيطان فأجتنبوه) فتركوها جميعا وأطاعوا الله فيما أمر واجتنبوا ما نهى عنه .

(والميسر) هو كل لعب بيسر أخذ مال الغير بلا حق وهو فى عرف العامة يسمى : (القمار) بكل انواعه التى تعتمد على الحظ (والأنصاب) هى الأصنام التى تنصب لتعبد وتقدس من دون الله تعالى (الأزلام) سبق تعريفها فى أول السورة ، وهى قداح كان أهل الجاهلية يستكشفون بها ما قسم لهم فى طى الغيب . (رجس من عمل الشيطان) والرجس هو كل خبيث منكر من فواحش الأقوال والأعمال ، ووساوس إبليس فى النفوس ووحيه فى الصدور (فاجتنبوه) أى : فاتركوا شرب الخمر وتناول مفترات الأجسام ، واتركوا لعب الميسر وتقديس الأصنام ولا تعتقدوا فى الأزلام (لعلكم تفلحون) بطاعة ربكم الذى خلقكم

١- سورة البقرة آية ٢١٩

٢- سورة النساء آية ٤٣ .

وبكل مقومات الحياة أمدكم ، فطاعته سبحانه فيها الفــلاح المؤكــد فى الــدنيا والآخرة .

قوله تعالى : إنما يريد الشيطان أن يوقع بينكم العداوة والبغضاء فى الخمــر والميسر ويصدكم عن ذكر الله وعن الصلاة فهل أنتم منتهون [٩١]

(أنما يريد الشيطان) فى هذه الآية بيان من الله تعالى لما يريده الشــيطان وهو (أن يوقع بينكم العداوة والبغضاء) حتى تفسد حالكم وتذهب ريحكــم ، ولأنه لا يملك وسيلة لضركم سوى الإيقاع بينكم (فى الخمر والميسر) وقد ذكر الله لنا الخمر والميسر فقط لآن الخمر أم الكبائر ، ووقوع العداوة بين شاربيها أمر محتمل لغياب عقولهم من تاثيرها وما شابهها من مفترات الأجســام ، وإن إثــارة البغضاء بين لاعبى القمار أمر محتم ، لأن طبيعة الميسر أن يكسب أحــد الطــرفين ويخسر الآخر ، مما يدفع الخاسر إلى محاولة استرداد ماله بالقوة ،فيؤدى ذلــك إلى التقاتل الذى لا تحمد عقباه . (ويصدكم) كما أن فى تعاطى الخمر وما شــابهها من مفترات الأجسام ومغيبات العقول ، ولعب الميسر بكل أنواعه سواء للكســب أو للتسليه فيه صد (عن ذكر الله وعن الصلاة) وهذا هو الخسران المبين الــذى يريدة الشيطان لبنى الإنسان ، وقوله تعالى : (فهل أنتم منتهون) خطاب موجــه إلى الذين آمنوا بالله ورسوله ﴿ ﷺ وآله﴾ — أى : صدقوا بما جــاءهم مــن الله فأطاعوه فيما أمر ، وانتهوا عما نهى — صيغته الأستفهام ومعناه النهى ، وإنما جاز فى صيغة الاستفهام أن يكون على معنى النهى لأن الله ذم هذه الأفعــال وأظهــر قبحها وإذا ظهر قبح فعل للمخاطب ثم استفهم عن تركه ، لم يسعه إلا الإقــرار بالترك والله يهدى إلى سواء السبيل .

قوله تعالى : وأطيعوا الله وأطيعوا الرسول واحذروا فإن توليتم فاعلموا أنما على رسولنا البلاغ المبين [٩٢]

بعد أن بين سبحانه أضرار الخمر بعقول شاربيها ، ونتائج لعب الميسر من الإستيلاء على أموال الغير بلا حق من عوض ، مما يعرض المجتمع للعداوة والبغضاء حسب تمنيات الشيطان ووسوسته فى الصدور أمرنا سبحانه بطاعته وحذرنا من مخالفته بقوله (وأطيعوا الله) أى : وأطيعوا الأمر الذى أنزلت على رسولي﴿ ﷺ وآله﴾ واجتنبوا مخالفته لعلكم تفلحون ، لأن فلاح الطائعين لأمر رب العالمين هو حق اليقين الذى لا ريب فيه .

وقوله تعالى : (وأطيعوا الرسول) بعد أن قال : (وأطيعوا الله) فيه وجوب على المؤمنين أن يطيعوا الرسول فيما يبلغ عن ربه بالأقوال وبالأعمال وبالأحوال أيضا ، فأقواله تحتم على المؤمن السمع والطاعة ، وأعماله صلوات الله وسلامه عليه توجب على المؤمن الإقتداء به إقتداء كاملا ، مع محاولته التخلق بأخلاقه فى كافة أحواله ، حتى يكون المؤمن طائعا لربه حقا وصدقا .

(واحذروا) يشمل الحذر من مخالفة العبد لربه فيما أنزله على عبده وأثبته فى كتابه ، كما يشمل الحذر من مخالفة المؤمن لأعمال الرسول﴿ ﷺ وآله﴾ التى هى سنته ولو لم يكن لها سند ظاهر فى كتاب الله تعالى وكذلك يشمل الحذر من اتباع خطوات الشيطان التى يقود إليها حظوظ الإنسان وأهواؤه ، فبهذا الحذر يسير العبد فى طريق السعادة والسلامة والنجاة فى الدنيا والآخرة .

(فأن توليتم) سواء كان هذا التولى بالعصيان فى أمر صريح أو مخالفة لعمل من أعمال الرسول ﴿ ﷺ وآله﴾ معلوم بالضرورة أو نتيجة للإستهتار بالدين وعدم أخذ الإنسان الأمور بجدية (فاعلموا أنما على رسولنا البلاغ المبين) أى :

اعلموا أيها الناس فى كل زمان ومكان أنه ليس على رسولنا إلا البلاغ المبين ، وعلينا توصيله لجيمع الأجيال أينما كانوا ،ثم علينا الحساب سواء بالثواب أو العقاب ومعناه الوعيد والتهديد كأنه قال : فاعلموا أنكم قد إستحققتكم العقاب لتوليكم عما أدى رسولنا إليكم من البلاغ المبين ، يعنى الأداء الظاهر والواضح .

ويستخلص من معانى هذه الآية أن الله تعالى قدر فى سابق علمه أن يتحقق ذيوع بلاغ رسوله فى كافه أنحاء الكرة الأرضية ، حيث تبث الإذاعات المحلية والعالمية آيات الله تعالى وسنة رسوله﴿ □ وآله﴾ أربعا وعشرين ساعة فى اليوم والليلة ، ولتقوم الحجة على كل إنسان أين كان وكيف كان ، فلا ينكر علمه بها أحد... ومن معانيها أيضا أن من يدعى طاعه الله بغير أن يعمل بما فى القرآن فدعواه باطلة ولا حجة له فى صحتها ، وكذلك من إدعى العمل بالقرآن ولم يتبع ما علم من سنة رسول الله﴿ ﷺ وآله﴾ وخاتم أنبيائه فى أقواله وأعماله وأحواله وأخلاقه فعمله باطل ومردود عليه لأن اتباع المصطفى والإقتداء به فى صغير الأمر وكبيره فيه النجاه والفلاح .

قوله تعالى : ليس على الذين ءامنوا وعملوا الصالحات جناح فيما طعموا إذا ما اتقوا وءامنوا وعملوا الصالحات ثم اتقوا وءامنوا وأحسنوا والله يحب المحسنين [٩٣]

لما نزل تحريم الخمر والميسر قالت الصحابة : يا رسول الله ، ما تقول فى إخواننا الذى مضوا وهم يشربون الخمر ويأكلون الميسر ؟ فأنزل الله هذه الآية . وقيل إنها أنزلت فى القوم الذين حرموا على أنفسهم اللحوم وسلكوا طريق الترهب كعثمان بن مظعون وغيره ، فبين الله لهم أنه لا جناح فى تناول المباح مع اجتناب المحرمات.

(ليس على الذين ءامنوا وعملوا الصالحات جناح) أى : إثم وحـــرج (فيما طعموا) من الخمر والميسر قبل نزول التحريم فلا ذنب لهم ولا وزر علـــيهم فيما طعموا من شراب أو طعام لأنهم لم يخالفوا مولاهم فيما أمر به بعد .

(إذا ما اتقوا وءامنوا وعملوا الصالحات) أى : ليس عليهم جناح فيمـــا تناولوة من المأكول والمشروب إذ إن من حافظ على الأمر والنهى فلـــيس للقمـــة يتناولها من الخطر ما يضايق فيها وإنما المقصود من العبد التأدب فإذا ما اتقوا الشرك وثبتوا على الإيمان والأعمال الصالحة (ثم اتقوا وءامنوا) أى : اتقوا المحرم وآمنـــوا بتحريمه (ثم اتقوا وأحسنوا) أى : اتقوا الشح فآثروا وما أسرفوا وأحســـنوا أى : عملوا الأعمال الحسنة التى تقربهم من الله تعالى ، والإحسان كما بين الرسول﴿ ﷺ وآله﴾ أن تعبد الله كأنك تراه فإن لم تكن تراه فإنه يراك (والله يحب المحســـنين) أى : يحب المحسنين أعمالا ، والمحسنين أقوالا ، والمحسنين أحوالا .

وقيل : كرر التقوى مبالغه .وقيل : الرتبة الأولى : إتقاء الشرك ، والثانية : إتقاء المعاصى ، والثالثة : إتقاء ما لا بأس به حذرا مما به البأس .

قوله تعالى : يأيها الذين ءامنوا ليبلونكم الله بشئ من الصيد تناله أيـــديكم ورماحكم

ليعلم الله من يخافه بالغيب فمن اعتدى بعد ذلك فله عذاب ألیـــم [٩٤]

بعد أن بين الله فى الآية السابقة مقامات أهل الإيمان ، ومـــدى تفـــاوت درجاتهم فى عمل الصالحات ، ثم مقامات الخاصه من أهل التقوى ، الـــذين زاد إيمانهم بمقدار رقيهم فى درجات تقواهم ، ثم ذكر سبحانه مقام أهل الإحسان مـــن خاصة الخاصه الذين نالوا محبة الله تعالى ، شرع سبحانه وتعالى يذكر فى هذة الآية

شيئا من إبتلائه لهؤلاء الأخيار من عباده فقال تعالى : (يأيها الذين ءامنوا ليبلونكم الله بشئ من الصيد) أى : ليختبرنكم بشئ من الصيد إمتحانا منه لمدى إيمـــانكم وثبات تقواكم ودرجة إحسانكم ٠

ورب قائل يقول : هل فى تيسر الصيد على الصياد اختبار وامتحـــان ؟ ! والجواب : إى نعم ، فالمؤمن حقا يحمد الله ويشكر له نعماه فيزيد إيمانه ، وإن لم يفعل نقص إيمانه والتقى يراعى الله فى صيده بعد حمده سبحانه وشكره ، يراقب الله فيما أنعم به عليه وولاه ، ويخشى الغفلة عن المنعم إنشغالا بالنعمة والمحسن حقا هو من يرى نفسه مسيئاً فى صيده رغم إحسانه ، وذلك تجرداً مـــن حولـــه وطولـــه ومسندا إحسانه إلى المحسن سبحانه ، ومعلنا عجزه عن شكر ربه فيكون إعترافـــه بعجزه هو عين شكره ٠

(تناله أيديكم ورماحكم) هذا لأن هناك صيدا من الطيور الداجنة يتكمن الإنسان من صيدها بيده بمجهود يسير — خصوصا لو إستعان عليها بأخذ من بنى جنسه — والصيد بواسطة الصقور المدربة والكلاب المعلمة يعتبر أيضا مما تناله أيدينا — خصوصا إذا كنا نحن الذين دربنا الصقور وعلمنا الكلاب — وأما صيد الرماح وغيرها من أنواع السلاح فهو على من يملكه أولا ويستطيع استعماله ثانيا حـــتى يمكنه صيد الطيور السابحة فى الجو والحيوانات البرية والوحشية ،وتعدد أنواع الصيد ووسائله رحمة من الله تعالى بعباده ٠ (ليعلم الله من يخافه بالغيب) أى : لـــيعلم رسول الله ﴿ ﷺ وآله﴾ والمؤمنون من يخاف الله ويتقيه فى صيده ، فلا يصطاد إلا على قدر حاجته ، ويخشى الله فى صيده ، فيحسن ذبحه ولا يعذبه ، وإن فاض منه شئ فليتصدق به على غيره ، وخوف العبد من الله والخشية منه وحسن تقواه إنمـــا تكون بالغيب ، لأن ذات الله غيب فى غيب الغيب ، لا يظهر إلا بأسمائه وصـــفاته

المتجلية فى كافة مخلوقاته ، وتدل عليه عظيم آياته ، فيخشاه العبد فى السر والعلانية رغم الستر والحجاب .

(فمن أعتدى بعد ذلك فله عذاب أليم) أى : فمن تعدى حدود الله بعد العلم بها ومعرفة أصولها و أحكامها وخالف أمر ربه فى سره وعلانيته ، فقد أعد الله له عقابا شديدا وعذابا أليما ولا يظلم ربك أحدا .

قوله تعالى : يأيها الذين ءامنوا لا تقتلوا الصيد وأنتم حرم ومن قتله منكم متعمدا فجزاءه مثل ما قتل من النعم يحكم به ذوا عدل منكم هديا بالغ الكعبة أو كفارة طعام مساكين أو عدل ذلك صياما ليذوق وبال أمره عفأ الله عما سلف ومن عاد فينتقم الله منه والله عزيز ذو انتقام [٩٥]

بعد أن بين الله تعالى فى الآية السابقة سنته سبحانه فى إبتلاء عباده ، وجعل هذا الإبتلاء مظهرا لتجليات أسمائه وصفاته وإمتحانا للناس كافة بمن فيهم الرسل والأنبياء والعارفون من الأولياء ، والصالحون من العلماء ، وشرع يبين فى هذه الآية نهيه عن قتل الصيد فى حالة معينة فقال تعالى : (يأيها الذين ءامنوا) أى : يا من آمنتم بالله تعالى ، وصدقتم رسوله﴿ ﷺ وآله﴾ وارتضيتم الإسلام دينا ، واتخذتم القرآن العظيم دستورا (لا تقتلوا الصيد) أى : لا تميتوا حيوانا حيا سواء كان أليفا داجنا ، أم بريا نافرا صغر حجمه أم كبر .

(وأنتم حرم) فيه وصف وتحديد للمكان والزمان والحالة التى لا يجوز فيها قتل الصيد مهما كان نوعه أو حجمه ، لأن إرتباط القتل بالصيد فيه شمول لكل حى على الإطلاق ، وذلك عندما تلبسون ملابس الإحرام بنية الحج أو العمرة .

(ومن قتله منكم متعمدا) أى : أماته منكم أيها المؤمنين المحرمـــون عـــن قصد وليس خطأ (فجزاء مثل ما قتل من النعم) أي: فعليه كفارة ذلك وهى أن يتصدق بمثل ما قتله فيأتى بشبيه للصيد ، أو بما يوازيه من النعم ويتصدق به علـــى الفقراء وبشرط أن لا يحدد نوع الكفارة نفس القاتل للصيد وأنما (يحكم بـــه ذوا عدل منكم) أى : يكون الحكم فى هذا لرجلين ذوى عدل وفطنة يميزان أقـــرب النعم شبها بالصيد المقتول ٠ والضمير فى الكاف والميم فى كلمة (منكم) عائـــد على المؤمنين المحرمين بالحج أو العمرة ٠

(هديا بالغ الكعبة) أى : تذبح الكفارة من النعم ويوزع لحمهـــا علـــى فقراء الكعبة والمساكين حولها ، لأن المراد بقول الله تعالى : (بالغ الكعبـــة) أى : بجوار الحرم وليس بداخله كما لا يجوز ذبح الكفارة فى مدينة أخرى غير مكـــة ، فإن لم يكن للصيد المقتول مثل من النعم كالعصفور والجراد وغيره فعلى العدلين أن يحكما بما يوازى قيمته من المال ويوزع على مساكين الحرم ،وهذا جائز بدليل قول الله تعالى : (أو كفارة طعام مساكين) أى : يجوز فى كفارة الصيد أن يتصـــدق بقدر ثمنه طعاما للمساكين من غالب قوت البلد لكل مسكين (مد) [1] (أو عدل ذلك صيام) أو يصوم عن كل (مد) يوما إذا لم يجد مالا ، فإن وجد المال فلا يجوز صيامه ويلزم الكفارة حسب حكم العدلين (ليذوق وبال أمـــره) أى : ليشـــعر بتكاليف النفقة أو ألم الصيام وثقل الجزاء على ما جنته يداه من قتل للصيد وهـــو حرم فلا يعود لمثله أبدا ٠

١- المد: ضرب من المكاييل يزن محتواه من البر رطلا وثلثا عند أهل الحجاز، ورطلين عند أهل العراق، وهوربع صـــاع،وهو قدر مد النبى ٠

(عفا الله عما سلف) أى أن الله تعالى قد سامح وغفر عما سبق فعله من قتل الصيد قبل نزول الآية بالتحريم (ومن عاد فينتقم الله منه) معنى هذه الآية أن الله تعالى ينذر من يعود إلى قتل الصيد عامدا متعمدا مرة أخرى وهو محرم فلا يقبل الله منه كفارة ولا عدلا لتكرار هذا الجرم منه ، وإنما ينتقم الله منه (والله عزيز ذو إنتقام) أى : اعلم أيها المستهتر – الذى تكرر منك فعل ما حرمه الله بعد أن سامحك وقبل منك كفارتك فى المرة الأولى – أن الله تعالى عزيز ذو إنتقام شديد ممن يخالف أوامره ويتعدى حدوده بعد أن عفا عنه وسامحه أول مرة .

قوله تعالى : أحل لكم صيد البحر وطعامه متاعا لكم وللسيارة وحرم عليكم صيد البر ما دمتم حرما واتقوا الله الذى إليه تحشرون [٩٦]

بعد أن بين الله فى الآية السابقة ما حرمه على المحرم ، بين سبحانه فى هذه الآية ما أحل له من الصيد فى إحرامه ، فقال جل جلاله : (أحل لكم صيد البحر وطعامه) يعنى بذلك جل جلاله أن المحرم المسافر على البحر يحل له صيد البحر بكل أنواعه ، ولو كان الذى يصيده يعيش فى البحر والبر ما دام إصطياده من البحر (وطعامه) برهان للقائلين : إن الصيد فى إصطلاح الشريعة ما يؤكل لحمه .

(متاعا لكم وللسيارة) يؤخذ منه الإشارة أنهم يملحون ما يصطادون من البحر ويكون ذلك حلالا ، لأن قوله : (متاعا) أى : به أنتم والسيارة السائرون فى الطريق ، فتمليحه جائز .

وقال بعض العلماء : تحليل المملح الذى يسمونه فى مصر بالفسيخ متسامح فيه ، وقد أكل رسول الله ﴿ ﷺ وآله﴾ لحم السمك المملح الذى أحضره بعض الصحابه الذين أرسلهم﴿ ﷺ وآله﴾ سرية إلى لسان البحر ، وعندما افتقدوا الطعام ورزقهم الله بسمكة كبيرة الحجم فأكلوا منها وملحوا باقى لحمها ، ولما

توجهوا إلى المدينة سألوا رسول الله ﴿ ﷺ وآله﴾ عنها فأحلها وقال : (أطعمونى منها) [1] . (حرم علكيم صيد البر ما دمتم حرما) أى أن صيد البر — كائنا ما كان من الأرنب فما فوقه — محرم على المحرم حتى يحل إحرامه ، وقد فصلت هـذا الموضوع فيما تقدم من الآيات السابقة ، قوله : (ما دمتم حرما) أى : ما دمـتم محرمين .

(اتقوا الله الذى إليه تحشرون) أى : وخافوا عقوبه الله علـى مخـالفتكم أوامره ، خوف عبد موقن أنه يحشر إليه سبحانه حتما ، لأن منكر البعث كـافر بدليل قوله تعالى : (اليوم ننساكم كما نسيتم لقاء يومكم هذا) [2] أى : نحرمكم من عطفنا ورحمتنا .

هذه الآية الشريفة بينت لنا ان فرائض الله التى قوله تعالى : جعل الله الكعبة البيت الحرام قياما للناس والشهر الحرام والهدى والقلائد ذلـك لتعلموا أن الله يعلم ما فى السموات وما فى الأرض وان الله بكـل شـئ عليم [٩٧]

فرضها علينا من أقوال وأعمال وتنقل من مكان إلى مكان جمع الله لنا فيها خيرات الدنيا والآخرة ، لأنه جل جلاله غنى عن خلقه ، وخلقه جميعا يفتقرون إليه افتقار الاضطرار وكلنا يعلم مقدار الأجر الذى يناله الحاج إلى بيت الله الحـرام ، وما يناله من يتقرب إلى الله بالهدى والقلائد ويجهل غير ذلك من الحكم ، فبين لنا

١- رواه البخارى فى كتاب المغازى الباب ٦٥ وأحمد فى الجزء الخامس صفحة٣، ٧

٢- سورة الجاثيةآية٣٤

أن فرائضه التى فرضها علينا ليست لنيل نعيم الآخرة فقط بل هى لخـــيرى الـــدنيا والآخرة .

أما خير الدنيا فما أخبرنا الله به فى هذه الآية بقوله تعـــالى : (جعـــل الله الكعبة البيت الحرام قياما للناس) أى : عصاما وحصنا وأمنا للناس مـــن شـــرور بعضهم فى الجاهلية ، وبالأولى فى الإسلام ، فإن الجاهلية الأولى كان الرجل منهم يقتل أباه أو أخاه وأعز الناس ليسلب ماله ، وكانت عيشتهم من السلب والنهب ، ولكن الله رحم خلقه فجعل الكعبة البيت الحرام والهدى والقلائد والشهر الحرام (قياما للناس) أى : حصون أمن يدفع بها ظالمهم عن مظلومهم ، وقـــويهم عـــن ضعيفهم ، حتى كان الرجل يرى قاتل أبيه وأخيه يطوف حول الكعبة فلا يخطـــر على باله أن يتعرض له لما أودعه الله فى قلوبهم من الهيبة والرهبة ،فسبحان من منح بعبادته الخير فى الدنيا والآخرة ، أسأل الله سبحانه أن يحفظنا من الوقـــوع فيمـــا يكرهه جل جلاله ومعنى الكعبة لغة أنها مكعبة ، أى : مربعه سقفها وأرضـــها ، وكونها بيتا حراما أى : بيتا حرم الله فيه أشياء لم تكن محرمة فى غيره من الصـــيد فيها ، فلا ينفر طيرها ولا يعضد شجرها ، فإذا كان ما أحل فى غيرها يحرم فيهـــا فمن باب أولى ما حرم فى غيرها يحرم فيها (والشهر الحرام والهدى والقلائد) وقد تقدم الكلام على مفردات هذه الآية [1]

(ذلك لتعلموا أن الله يعلم ما فى السموات ومـــا فى الآرض) الإشـــارة عائدة إلى ما بينه الله تعالى فى الآية السابقة من جعله الكعبة البيت الحرام قياما لخلقه كافرهم ومؤمنهم ، رحمة بهم ، وعلما بحاجاتهم الضرورية والكمالية ، وتقديره ما قدره فيه من إصلاح حالهم وفوزهم يوم القيامة بالنعيم المقيم إذا هم سمعوا وأطاعوا

١- راجع (اسرار القرآن) جـــ٦ص٤٩

واستجابوا لربهم ، وإذا علمتم حكمة هذه الأحكام والآيات بلغتم مقام اليقين فى أنه سبحانه يعلم ما فى السموات والأرض ، من الأسرار والآيات التى وضعها سبحانه لإصلاح خلقه وإصلاح حالهم ومآلهم ، وأنه تقدست ذاته لم يخلق شيئا عبثا ، بل خلق جميع الكون مرتبطا بعضه ببعض لخير بنى الإنسان فى الدنيا ولفوزهم بالخير يوم القيامة إذا هم قبلوا عن الله ما أنزله إليهم على ألسنة رسله ، ويعلم أيضا ما فى السموات والآرض من أنواع الجمادات والنباتات والحيوانات ، وما فوقها من أنهار جاريات وبحار ساكنات ، وما فوق ذلك من نسيم عليل بليل هو حياة كل حى ، بحيث لو فقد نفسا لهلك العالم ، وما فوق ذلك من سحب موفورة بالماء محمولة على متن الهواء مصرفة إلى حيث يشاء الله ، مما لو نظر إليه العاقل لتحقق أن ذلك كله لبنى الإنسان ، بل ومسخر له ما بين السماء والأرض ، وكل ما فى السموات من أنجم زاهرات ثابتات ومتحركات ، بل وعمار السموات من الملائكة إلى حملة العرش ،وكل هذه الأنواع العاليات يسبحون الله تعالى ويستغفرون لأهل الإيمان ويدعون لهم فيقولون : (ربنا وسعت كل شئ رحمة وعلما فاغفر للذين تابعوا واتبعوا سبيلك وقهم عذاب الجحيم) [1] .

إذا تحقق الإنسان بفضل الله تعالى عليه ، وبما أتمه علينا من النعم ببعثة حبيبه خاتم الأنبياء لتحققنا بالعجز عن شكره سبحانه ، والعجز عن الشكر هو عين الشكر كما قال الله لداود (أعملوا آل داوود شكراً) [2] قال داوود لربه : (رب إنى عجزت عن الشكر) فقال الله له : (شكرتنى الآن يا داوود) .

١- سورة غافر آية٧

٢- سورة سبأ آية١٣

(وأن الله بكل شئ عليم) تأويل هذه الآية الشريفة أن هذا خبر من الله مؤكد بأداة التوكيد ، وأخبار الله بغير توكيد مؤكدة ، ربما أتى الله بالتوكيد هنا ليلفت العقول التى تعقل عن الله تعالى إلى عظيم أسراره فى تلك الآية ، فإن قوله : (بكل شيء عليم) أى : بكل ما هو موجود ، وذلك الموجود إما أن يكون من الأرواح العاليات الغائبة عن العقول والنفوس ، أو مما تتمثله النفوس وتتوهمه الأوهام وتتخيله الخيالات ، أو مما يقوى الإنسان على اتباعه من عقائد حقة أو باطلة أو آراء سديدة أو فاسدة أو مذاهب مضلة أو موافقة للشرع الحنيف .

كل ذلك يعلمه الله ، بل وما هو فى كل ذرة من ذرات الكائنات وخواصها ومميزاتها ، بل وما فوق ذلك من أسماء الله تعالى وصفاته ومعانى صفاته ،بل وما حجب ، فإن علم الله تعالى يحيط بواجب الوجود ، وممكن الوجود ، تنزهت حضرة العلم الإلهى أن يكون شئ ما كائنا ما كان لا تحيط به ، وتنزهت أيضا عن أن يكون علم الله يتجدد بتجدد الأحداث أو بتجدد الأعيان، بل علم الله تعالى محيط بالجزئيات والكليات ، خلافا لمن زعم أن علم الله لا يحيط إلا بالكليات ،والكل منكشف لعلم الله من الأزل إلى الأبد ، فهو جل جلاله كما يرى النملة السوداء فى الصخرة الصماء فى الليلة الظلماء ، بل ويرى نياط عروقها ، فهو جل جلاله يعلم كل ذلك بعلم هو خاص بذاته العلية ليس كمثله شئ ، لأن كلمة (عليم) ليست بمعنى عالم ، بل هى أوسع من ذلك وليست بمبالغة فقد تنزهت أسماؤه وصفاته عن أن تكون محلا للمبالغة ، بل هى كلمة تدل على وسعة علمه وسعة لا نعلمها ، وما علينا إلا أن نسلم لله فيما أخبرنا به تسليما كاملا ، ونكل الكم والكيف إلى جهلنا الأول ، حتى يطلعنا الله تعالى على ما يليق بكماله وجماله وجلاله وبهائه وضيائه ونوره سبحانه .

قوله تعالى : أعلموا أن الله شديد العقاب وأن الله غفور رحيم [٩٨]

معلوم أن العلم هو تصور النفس رسوم المعلوم ، ولا تتصور النفس رسوم المعلوم إلا بأحد أمرين عظيمين الأمر الأول : أن يهب الله للعبد ضياء من علم يقوى حتى يصير يقينا ثم يلوح للبصيرة حتى تصير عين يقين ، ثم يرقى فى معارجه حتى يكون حق يقين وهذا هو الكشف الصراح ، وقد بينت المراتب الثلاث فى كتاب : (معارج المقربين) [1] عند ذكر علم اليقين ، وعين اليقين ، وحق اليقين ، والكشف الصراح هو أعظم الأمرين فى تصور رسوم المعلوم .

الأمر الثانى : أن تقوم الحجة القاطعة بالبرهان الحق فتقوى النفس بعد تزكيتها على تصور رسوم المعلوم ، حتى يكون العبد كأنه يرى الغيب المصون بقوة الحجة .

ولما أن بين الله لنا بالحجة القاطعة أن إيجاد الكون وما فيه من الآثار المفيدة لبنى الإنسان إمدادا لنا لحجة ملموسة محسوسة لا يختلف فيها ذو عقل ولو صغر ، فإن نظام السموات والأرض أعد لمصالح بنى الإنسان ، ثم بين فى الآيات التى تلى ﴿جعل الله الكعبة البيت الحرام قياما للناس﴾ حقائق قامت بها الحجة علينا لنعلم أن الله تعالى بكل شئ عليم ، وبعد ذلك أمرنا أن نعلم فصار علمنا تصديقا لما أعلمنا به ، وصار كل إنسان لم يدر تلك الحجج الإلهية ، ولم يتصور تلك المعلومات على جوهر نفسه حاكما على نفسه أن جوهرها من أردأ الجواهر ، كيف لا ؟ والله تعالى يأمرنا أن نعلم أنه شديد العقاب ، أى أنه جل جلاله بعد أن بين لنا ما تفضل به علينا مما به صلاح ديننا وآخرتنا ، داخلنا طمع أنه جل جلاله جميل على الإطلاق ليس من صفاته الجلال والقهر، فأحيا فى قلوبنا الخشية والرهبة والخوف

١- يطلب من دار الكتاب الصوفى لنشر تراث الإمام المجدد السيد محمد ماضى أبى العزائم ﷺ. ١١٤ ش مجلس الشعب – القاهرة

ليهب لنا حسن معاملته فى أقوالنا وأفعالنا وأحوالنا،فى مراقبة يحفظنا بها جل جلاله من أن يكون للشيطان علينا سلطان – وهذا مقام الخوف – وقد بينت ذلــك فى كتاب : (أصول الوصول) [1]

ولما كان المسلم يجب أن يكون قوامه الخشية والخوف ، ومزاجه الطمــع والرجاء حتى يحصن جسمه بالخوف ، ويؤنس روحه بالرجاء ، لهذا جمع الله لنا فى هذه الآية ما به الخشية والخوف والأنس والرجاء فقال تعــالى : ﴿اعلمــوا أن الله شديد العقاب ﴾ أى : خافوه خوف تعظيم لأمره ونهيه إجلالاً لذاته العلية ﴿وأن الله غفور رحيم ﴾ أكد سبحانه هذه الآية بتأكيدين كما تقدم بأداة التوكيد الــتى هى : (أن) ، واسمية الجملتين ليتعقل العقل ما تضمنته من الإشــارة إلى واســع المغفرة والرحمة ، فلا يقوى الخوف عليه فييأس من رحمته تعالي، فإن الخوف الذى يقنط العبد من رحمة ربه يوقعه فى الكفر ، كما أن الطمع فى رحمة الله قــد يوقــع الإنسان فى معاصيه جل جلاله حتى يقع فى نار جهنم ، وخير الأمور الوسط حتى يكون الخوف والرجاء جناحين للمؤمن يحملانه إلى بر الأمان .

وكثيرا ما أهلك الخوف بلا رجاء عبادا يائسين ، وأهلك الطمع والرجــاء عبادا شاطحين ، والله جل جلاله له أسماء مخوفات وأسماء جميلة تطمــع العبــد فى رحمته وفضله فالعبد الكامل لا تنسيه الأسماء المخوفات الأسماء الجميلة ، ولا تنسيه أسماؤه الجميلة أسماءه المخوفات ، حفظنا الله بالتوسط بــين الخــوف والرجــاء ،

١- يطلب من دار الكتاب الصوفى لنشر تراث الإمام المجدد السيد محمد ماضى أبى العزائم ﷺ. ١١٤ ش مجلس الشعب – القاهرة

وجعلنا من أهل قوله تعالى : ﴿وكان بين ذلك قواماً ﴾ [١] ومن أهل المعرفة أدبا فى مقام البسط .

وقد سئل رسول الله ﴿ ﷺ وآله﴾ عن سبب شيبه فقال ﴿ ﷺ وآله﴾ : (شيبتنى هود وأخواتُها) [٢] فبحث أهل العلم عن ذلك فوجدوا أن الذى شيبه ﴿ ﷺ وآله﴾ قول الله تعالى (ألا بعدا لمدين كما بعدت ثمود) [٣] ، انظر كيف شيب الحبيب﴿ ﷺ وآله﴾ ذكر البعد وهو فى أرقى مقامات القرب ، فإن أهل القرب إذا ذكر البعد أمامهم شيبهم ، لأن الله تعالى ملك مطلق لا يتقيد بشئ ،أهل المحبة لا يخطر على قلوبهم البعد ، فإذا أخبرهم حبيبهم أنه يبعد من شاء شابت من الهيبة رؤوسهم ،وذابت من شبح البعد قلوبهم .

وكذلك قوله تعالى : ﴿شديد العقاب ﴾ آية تذيب أكباد الرجال ، خصوصا أن السابقة والخاتمة مجهولتان ولا يعلمها إلا الله ، قال تعالى : ﴿ولئن أذقنا الإنسان منا رحمة ثم نزعناها منه إنه ليئوس كفور ولئن أذقناه نعماء بعد ضراء مسته ليقولن ذهب عنى السيئات عنى إنه لفروح فخور﴾ [٤] فالطرفان نعوذ بالله منهما وخير الأمور الوسط وهو أن يجمع المؤمن على قلبه الخوف من الله بدرجة لا تيئسه ،والطمع الذى لايجعله يأمن جانب الله تعالى فيتيه فخرا وعجبا .

١- سورة الفرقان آية ٦٧

٢- رواه الترمذي:تفسير سورة الواقعة/ج٧

٣- سورة هود آية ٩٥

٤- سورة هود آية ٩-١٠

وفى قوله تعالى : ﴿غفور رحيم﴾ بيان أن جمال الله تعالى سبق جلاله وأن رحمته سبحانه وسعت كل شئ، وقد سبقت رحمته غضبه كما ورد فى الأثر، والمغفرة ليست محو الخطايا إنما هى سترها عن الخلق حتى عن الحفظة كما قال ﴿ ﷺ وآله﴾ : (إذا تاب الله على العبد أنسى الله الحفظة ذنوبه وأنسى ذلك جوارحه ومعالمه من الأرض حتى يلقى الله وليس عليه شاهد بذنب) .

والرحمة هى إرادة الله تعالى الخير للعبد فى الدنيا والآخرة ،فإن لفظ رحمة هى مصدر الرحمة فجمعت معنى الرحمن الرحيم، والرحمن : المنعم بجلال النعم الكونية ، والرحيم : هو المنعم بالنعم الأخروية ، والرحمة جامعة للمعنيين ، ومن رحمة الله بالعبد أن يبدل سيئاته بحسنات فضلا منه جل جلاله ، نسأله سبحانه أن يعاملنا برحمته لا بعدله .

قوله تعالى : ما على الرسول إلآ البلاغ والله يعلم ما تبدون وما تكتمون [٩٩]

﴿ما على السول إلا البلاغ﴾ تأويل هذ الآية الشريفة أن الله تعالى فرض على رسله وعلى نوابهم وورثتهم أن يبلغوا خلقه ما أنزل الله على رسله ، و لم يفرض عليهم أن يكلفوا الخلق بالقبول ، وقد بينت لك مراتب الهداية فيما سبق [١] فالذى على الرسل صلوات الله عليهم هداية البيان ، وعلى الله تعالى هداية الإحسان ،والقوم فى فترة حتى تبلغهم رسالة الرسل عن أوامر الله ونواهيه ومحابه ومراضيه ، فإذا بلغتهم الرسالة وقامت الحجة بالمعجزة ، غفر الله ما تقدم ورحم

١- راجع كتاب (اسرار القرآن) جـ٢ص٢٠،ج٣ص١١٢،ج٥ص٨٠ يطلب من (دار الكتاب الصوفي)لنشر تراث الامام المجدد السيد محمد ماضى أبى العزائم ﴿عليه السلام﴾، ١١٤ ش مجلس الشعب – القاهرة

من قبل منهم ، وانتقم بشدة العقاب ممن كذب الرسل عليهم الصلاة والسلام ، وفى ذلك من التهديد والوعيد والإنذار ما فيه بلاغ لأولى الألباب .

﴿والله يعلم ما تبدون وما تكتمون ﴾ هذه الآية خبر من الله تعالى ، فيها بيان للناس ، وتأمين لأهل الإيمان ،وتخويف لأهل النفاق والكفر ، فإن المؤمن إذا علم أن الله تعالى يعلم ما يظهره وما يخفيه جاهد نفسه أن يظهر خيرا ويخفى خيرا ، فيكون جميلا فى ظاهره وفى باطنه ، محبوبا لله تعالى محبا له سبحانه، وإذا علم المنافق أن الله تعالى يعلم ما يظهره وما يخفيه قد يسمع عن الله سماع تعبد فيتوب من النفاق ، أو قد يكون ممن قال الله عنهم : ﴿ولو أسمعهم لتولوا وهم معرضون﴾ [1] فينقلب كافرا ولو جمل ظاهره بكل جمال الشريعة وشر الناس على أهل الإيمان هم المنافقون، فإن الكفار يحفظنا الله منهم ، وأما المنافقون فإنهم يخدعوننا بظاهرهم، وقد أقام الله الحجة لنا أو علينا ﴿فلله الحجة البالغه ﴾ [2]

قوله تعالى : قل لا يستوى الخبيث والطيب ولو أعجبك كثرة الخبيث فاتقوا الله يا أولى الألباب لعلكم تفلحون [١٠٠]

﴿ قل لا يستوى الخبيث والطيب ولو أعجبك كثرة الخبيث ﴾ تأويل هذه الآية الشريفة : أن الخبيث هو ما كان نجسا ، ونجاسة الإنسان عند الله تكون بالكفر أو بالنفاق ،والطيب هو ما كان طاهرا صافيا ، والطيب هو المؤمن . ولتقريب فهمها أبين لك مثالا ، لو أن رجلا فقيرا ذليلا حقيرا ذا روح تأنس بملكوت الله الأعلى ، ورجلا خبيث الجسم خبيث الطبع محروما من الروح

١- سورة الانفال آية ٢٣

٢- سورة الانعام آية ١٤٩

الملكوتية وقد كثر أولاده ، ونفذت كلمته ، وقوى أنصاره ، ونما ماله ، فإنه مع كل تلك الكثرة فى الأموال والأولاد وغيرها فهو خبيث، مهما تنعم بالملاذ والشهوات فى المأكل والمطعم والمنكح ونفاذ الكلمة والجاه ، وإن مآله إلى النار ، وإن طال عمره وتوالت عليه خيرات الأبدان فإنه فى نكد وَهمٍّ طوال حياته الدنيوية ، ولو لم يكن إلا حرمانه من شهود جمال الله فى الآخرة لكفاه ذلك حسرة وندما حيث لا ينفع الندم ، يوم يخلد فى نار جهنم ذليلا مهانا .

والله تعالى يبين لأهل الإيمان انه لا مساواة بين الخبيث والطيب ، وأن كل لذة وشهوة وأمل يتمكن الإنسان منها - وهو خبيث - فذلك بلاء من الله واستدراج لا يغبطه عليه أهل الإيمان الكامل ، وإن كان أكثر الناس إذا رأوا رجلا ذا مال وجاه نافذ الكلمة حسدوه وتمنوا أن ينالوا مثل ما ناله ، كما أخبرنا الله عنهم بقوله تعالى : ﴿ قال الذين يريدون الحياة الدنيا ياليت لنا مثل ما أوتى قارون إنه لذو حظ عظيم ﴾ (1) .

فلما خسف الله به وبداره الأرض وأخذه أخذ عزيز مقتدر ، وتغير الوضع كما قال سبحانه : ﴿ وأصبح الذين تمنوا مكانه بالأمس يقولون ويكان الله يبسط الرزق لمن يشاء من عبادة ويقدر لولا أن من الله علينا لخسف بنا ﴾ (2) .

وهذه الآية الشريفة أحيا الله بها قلوب المؤمنين ، وهى بشرى لهم ليحتقروا نعيم الدنيا وليستهينوا بملاذها ، لأن لذة الأرواح فوق ملاذ النفوس كلها ، وشتان بين من يتلذذ بمأكل شهى طيب الرائحة والمنظر لذيذ الطعم ، وبعد فراغه منه

١- سورة القصص آية ٧٩

٢- سورة القصص آية ٨٢

ينصرف فيخزنه فى المراحيض ، فإذا مات لا يجد فيما خلفه إلا بولا وغائطا ، وبين رجل منحه الله روحا نورانية صافية تسبح بلطائفها فى ملكوت الله الأعلى فتشهد أنوار الملكوت ، وترجع إلى الهيكل بما اكتسبته من المعارف واللطائف ، فيبدل الله جوارحه الإنسانية بجوارح ملكوتية فيسمع بأذنيه تسبيح الكائنات ، قال تعـــالى : ﴿ وإن من شئ إلا يسبح بحمده ولكن لا تفقهـــون تســـبيحهم ﴾ [1] بـــأذانكم البشرية ، ولكن يسمعها من يسمع بالله ، قال ﴿ ﷺ وآله﴾ فى الحديث القدسى : " كنتُ سمعه الذى يسمع به " [2] ويبصر آيات الله فى ملكوتــه، ويشـــم طيـــب الملكوت الأعلى بأنفه ، وينطق الحكمة بلسانه ، ولا يزال يرقى حتى يقع به العلـــم على عين اليقين ، فإذا مات أرسل الله له رفرفا يحمله حتى يصل به إلى مقعد صدق ، وهذا هو الطيب الذى ذكره الله تعالى ، وصدق الله العظـــيم : ﴿ لا يســـتوى الخبيث والطيب ولو أعجبكم كثرة الخبيث ﴾ أى : ولو عجبت بما يمـــد الله بـــه الخبثاء من الشهرة والسمعة والعلو فى الآرض وكثـــرة المـــال والأولاد والجنـــود والأنصار ، فإن مآل كل ذلك السلب والعذاب عليه ، وفى الآية حجة قاطعة على أن من حرم من جمال الروح فهو خبيث ، لأن الإنسان من حيث هو أشـــر مـــن الشيطان وأضر من الوحوش ، فإذا منحه الله تعالى الزيادة علـــى الإنســـانية،كتب الإيمان فى قلبه ، وزينه له ، فكان فوف' الملائكة قدرا ، أينما وجه وجهه يرى الله تعالى .

﴿ فاتقو الله يأولى الألباب ﴾ الفاء هنا للفصيحة ، والمعنى : إذا فهمتم ما تقدم من مفارقة الخبيث للطيب ، وعقلتم من الله ما أنزله إليكم ، فخافوا الله تعالى

١- سورة الإسراء آية ٤٤

٢- رواة البخاري: جـــ٨ص١٠٥ باب التواضع

، وجدوا فى القيام بما أمركم به من المسارعة إلى الفوز بجمال الروح ، والتنائى عن دار الغرور وترك العجب من حال أهل الدنيا الذين جعلهم الله فتنة لأهل الإيمان ، وابتلاهم بإقبال الدنيا عليهم حتى تمنى أهل الغفلة أن يكونوا مثلهم ، وسارعوا فيهم ، كما نرى فى هذا الزمان بل وقبله من مسارعة من فى قلوبهم مرض إليهم لينالوا منهم ما يشتهون ، فإنك ترى علماء الدين يسارعون فى أهل الكفر بالله طمعا فى حطام الدنيا الزائل فباعوا الدين بالدنيا كما قال ﴿ ﷺ وآله﴾ : " إذا رأيتم العالم يغشى بيوت الملوك والأغنياء فاحذروه فإنه لص " .

ولما كانت تقوى الله تعالى فوق تقوى الرب [1]، ولا يصل الإنسان إلى تقوى الله تعالى بما تحصله جوارحه ، بل بما يتذوقه عقله وتراه روحه التى هى جوهرة نورانية ولطيفة ربانية، فما تدركه الجوارح من العلوم الشرعية يبلغ به الإنسان تقوى ربه لا تقوى الله ، ولذلك قال تعالى : (فأتقوا الله يأولى الألباب) أى : اتقوا الله يا أهل العقول النورانية التى تعقل عن الله ، قال تعالى : (ومن لم يجعل الله له نورا فما له من نور) [2] .

(لعلكم تفلحون) معلوم أن عسى ولعل فى كتاب الله بمعنى اللام ، لأن الله تعالى تنزه عن أن يأتى بما يفيد الترجى والتوقع ، ذلك من صفة العبيد ، لأنهم يجهلون الحقائق ، والله تعالى يعلم السر وأخفى بدءا وختما ، فيلزم أن يكون عسى ولعل فى القرآن بمعنى اللام ، وقوله (تفلحون) الفلاح هو نجاح المقاصد ، فمن كان مقصده الله تعالى فاز بمقصده فكان فى مقعد صدق عند مليك مقتدر ، وهم

١- راجع (اسرار القران)ح١ الطبعة الثانية ص١٢٩، ج٣ص٤٨، ج٤ص١٢ يطلب من(دار الكتاب الصوفى) لنشر تراث الامام المجدد السيد محمد أبى العزائم رضي الله عنه .

٢- سورة التوبة آية٤٠

أهل مقام الإيقان ، ومن كان مقصده شهود وجه الله تعالى فاز بمقصده وهم أهل مقام الإحسان، ومن كان مقصده الجنه فاز بمقصده وهم أهل مقام الإيمان ، ومن كان مقصده العفو والمغفرة فاز بمقصده وهم أهل مقام الإسلام ، وكل ذلك فلاح، فيكون المعنى : فاتقوا الله ليفوز كل أهل مقام بمقصدهم .

قوله تعالى : يأيها الذين ءامنوا لا تسئلوا عن أشياء أن تبد لكم تسؤكم وإن تسئلوا عنها حين يترل الله القرءان تبد لكم عفا الله عنها والله غفور حليم [١٠١]

(يأيها الذين ءامنوا لا تسئلوا عن أشياء أن تبد لكم تسؤكم) هذه الآية الشريفة بيان من الله تعالى لأهل الإيمان بعد أن أخبر بقوله سبحانه : (ما على الرسول إلا البلاغ) [(١)] فإن معناها أن الرسول ﴿ ﷺ وآله﴾ يتلقى الوحى من الله —الذى هو أعلم بخلقه وبمصالحهم وبما به يسعدون فى الدنيا والآخره — فيبلغهم ما أنزل إليه ، وليس على المسلمين إلا أن يسلموا لرسول الله ﴿ ﷺ وآله﴾ تسليما ، فلا يسألونه سؤال امتحان ، ولا سؤال تقول ولا سؤال رغبة فى تشديد لأن ذلك كله يكون مضرة عليهم كما فعل اليهود أخزاهم الله تعالى ، فإنهم قالوا : (اجعل لنا إلها كما لهم آلهه) [(٢)] وغير ذلك من الأسئلة وكما فعل النصارى حيث سألوا عيسى أن يترل عليهم مائدة من السماء ، فلما أنزلها الله تعالى كفروا بها ، وغيرها من أنواع التشديد .

١- سورة المائدةآية٩٩

٢- سورة الأعراف آية ١٣٨

وتلك الأسئلة هى كما روى أنس بن مالك أنهم سألوا النبى ﴿ ﷺ وآله﴾ فأكثروا المسألة ، فقام على المنبر فقال : سلونى ، فوالله لا تسألونى عن شئ ما دمت فى مقامى هذا إلا حدثتكم به ، فقام عبد الله بن حذافه السهمى - وكان يطعن فى نسبه — فقال : يا نبى الله : من أبى ؟ ، فقال : (أبوك حذافة بن قيس) وكما سأله سراقة بن مالك — ويروى عكاشة بن محصن _ (يا رسول الله : ألحج علينا فى كل عام ؟) فأعرض عنه رسول الله ﴿ ﷺ وآله﴾ حتى أعاد مرتين أو ثلاثا، فقال عليه الصلاة والسلام : "حسبك ، فإن تلك الأسئلة تقتضى التشديد علينا) [1] .

أما إذا سأل الجاهل العالم عن علم كان لا يفهمه، أوسأله عن حكمة ،أو سأله عن خبر يعلمه العالم ، فإن ذلك قد يكون فريضة بحسب ما تعين على العبد ، قال الله تعالى : (وأما السائل فلا تنهر) [2] والسائل هنا هو سائل العلم ، فإن سائل المال قد ينهر ويطرد كما كان يفعل عمر بن الخطاب رضى الله عنه إذا رأى رجلا يسأل الناس ويخزن عنده ما يأخذه ، إذن فسؤال الجاهل العالم هنا لابد منه وهذا فريضة ، قال ﴿ ﷺ وآله﴾ : (طلب العلم فريضة على كل مسلم) [3]

وأما سؤال المسلم العالم عن أشياء مما لا يعلمها إلا الله ، كسؤاله عن أبيه والعالم لا يعرفه كما يسأل بعض الناس الرماليين أو المشعبذين أو المنجمين عن الغيب الذى يكون غدا أو بعد غد ، هذا كله محرم شرعا ، ولا ينبغى لمسلم أن

١- روته البخارى فى كتاب الاعتصام الباب ٣

٢- سورة الضحى آية١٠

٣- رواه ابن ماجه فى المقدمه الباب ١٧

يتعرض له بعد قول الله تعالى لحبيبه محمد ﴿ ﷺ وآله﴾ (قل لا أقول لكم عندى خزائن الله ولا أعلم الغيب ولا أقول لكم إنى ملك إن اتبع إلا ما يوحى إلى) [1]

فمن سأل الأنبياء أو الأولياء عن شئ من هذا فهو مخطئ ، فإن الرسل وورثتهم من الأولياء كاشفهم الله بأمور لا تفيد الأكوان والأقدار ، فأوحى إلى الأنبياء بأسرار كماله وجماله وجلاله ، وبإسرار أحكامه ، وحكمة أحكامه ، ولكنه تتزه وتعالى لم يطلع على غيبه أحدا إلا من إرتضى من رسول ، فإنه سبحانه يطلعه على غيب ما يجب أن يعلمه عباده من عقيدة التوحيد ومن العبادة والأخلاق والمعاملة ،ولكنه لم يشأ جل جلاله أن يطلع أحد على سر قدره ولا على غيب ذاته تتزهت وتعالت ، ولا على مضنون علم أسمائه وصفاته ، والسؤال عن هذا منهى عنه شرعاً .

وما علينا جماعه المسلمين إلا أن نقبل بلاغ رسول الله ﴿ ﷺ وآله﴾ ونسلم له تسليما ، فلا نفتح على أنفسنا أبواب الفتن والتشديدات ، وما علينا بعد رسول الله ﴿ ﷺ وآله﴾ إلا أن نسمع بيان ورثته والعلماء القائمين مقامه ﴿ ﷺ وآله﴾ ونسلم لهم تسليما بعد قيام الحجة ووضوح المحجة ، فإذا جلس بيننا العالم سمعنا منه بيان ما جاءنا به رسول الله ﴿ ﷺ وآله﴾ محافظين على موازين الشريعة بقدر الطاقة ، فإذا وجدنا البيان يخالف ما جاء به رسول الله﴿ □ وآله﴾ ضربنا به عرض الحائط ، قال ﴿ ﷺ وآله﴾ : (الحلال بين والحرام بين وبينهما شبهات ، فمن أتقى الشبهات فقد إستبرأ لدينه) [2] ، ونحن يجب أن نقف عند الحرام والحلال حتى تنكشف لنا الحجة إتقاء للشبهات أن نقع فيها ، والدين هو الكتاب والسنه

١- سورة الأنعام آية ٥٠

٢- رواه البخارى فى كتاب الإيمان الباب٣٩وكتاب البيوع الباب الثاني،ومسلم فى كتاب المساقاة الحديث ١٠٧، ١٠٨

وما كان عليه سلفنا الصالح ، ما خالف ذلك فبدعة مضلة وفساد كبير ، نسأل الله تعالى السلامة .

(أشياء) جمع شئ والشئ ما قل أو كثر (إن تبد لكم تسؤكم) يعني : إن يظهرها لكم الرسول ﴿ﷺ وآله﴾أو يأتكم بها الله تعالى تحصل منها الإساءة إلى من سألها وإلى غيره معه ، كما سأل قوم صالح أن يأتيهم بناقة من الجبل ، ولما جائتهم كانت سببا فى هلاكهم ، فإنهم قتلوها فدمدم عليهم ربهم بذنبهم ، وكما سأل النصارى عيسى بن مريم عليه السلام المائدة ، فلما أنزلها الله تعالى وأكلوا منها كفروا بها .

والواجب على المسلمين أن لا يسألوا العالم إلا لبيان ما يجهلونه من أحكام العقيدة والعبادة والأخلاق والمعامله كما قدمت .

(إن تسألوا عنها حين يترل القرءان تبد لكم) أى : وإن تسألوا عن تلك الأشياء الغريبة عند نزول القرآن تبد لكم ، أى : يبيدها لكم رسول الله ﴿ﷺ وآله﴾ فتسؤكم فى دينكم ودنياكم (عفا الله عنها) أى : لم يجبكم عنها لأنه سيحانه يعلم ما ينفعكم وما يضركم وأنتم لا تعلمون (والله غفورحليم) أى : كثير الستر يستر زلات عباده باسمه الغفور ، ويحلم عليهم باسمه الحليم .

قوله تعالى : قد سألها قوم من قبلكم ثم أصبحوا بها كافرين [١٠٢]

هذه الآية متعلقة بالآية السابقة من قوله : (لا تسألوا عن إِشياء) وهنا يقول : (قد سألها قوم من قلبكم ثم أَصبحوا بها كافرين) فإختلاف الآيتين بأن الأولى فيها (عن) والثانية ليس فيها (عن) وللجمع بينهما أقولك : إن سؤال السائل قد يكون لطلب الشئ ، وقد يكون لفهم هيئة أو معنى من معانيه ، فإذا

قلت : سألتك درهما ، فهو سؤال لطلب الدرهم ، وإذا قلت : سألتك عن الدرهم ، يكون مرادك السؤال عن هيئته أو شكله أو قيمته ، والصحابة رضوان الله عنهم سألوا (عن أشياء) لتستبين لهم أحكامها وهيئتها .

ومثال ذلك : أن قوم صالح سألوه أن يوجد لهم ناقة من الجبل ، فأوجدها الله تعالى ، وقوم عيسى سألوه أن يوجد لهم مائدة من السماء ، وقوم موسى سألوه أى يجعل لهم إلها كما لعباد العجل إله ، وهذا هو الفرق بين قوله تعالى : (لا تسألوا عن أشياء) وقوله تعالى (قد سألها قوم من قبلكم ثم أصبحوا بها كافرين)

وفى هذه الآية سر خفى ، هو أن أهل الإيمان الكامل يسلمون لله تسليما ، فلا يجعلون لهم معه مرداً ، وكل من جعل له مرداً مع الله تعالى تسربت إلى قلبه الفتنه ، قال تعالى : (وما أرسلنا من قبلك من رسول ولا نبى إلا إذا تمنى ألقى الشيطان فى أمنيته فينسخ الله ما يلقى الشيطان) [1] فإذا كان هذا شأن الرسل ، فكيف يكون شأن العلماء والورثة والأولياء ؟

قوله تعالى : ما جعل الله من بحيرة ولا سائبة ولا وصيلة ولا حام ولكن الذين كفروا يفترون على الله الكذب وأكثرهم لا يعقلون [١٠٣]

(ما جعل الله من بحيرة ولا سائبة ولا وصيلة) إتصال هذه الآية بما قبلها أن السائلين إعتادوا أن يستظهروا على الأنبياء بأسئلتهم ، كما إعتاد أهل الجاهلية الأولى أوابد أنزلوها منزلة الأحكام الدينية المفروضة عليهم ، وفى ذلك ما لا يخفى من إتباع الهوى ، ومن تلك الأوابد – عوائد الجاهلية – أن عمرو بن لحى كان ملكا على مكة فطغى فيها ووضع أوابد أخذها العرب من بعده ومنها البحيرة ،

١- سورة الحج آية ٥٢ .

والبحيرة مأخوذه من البحر ، والبحر هو الشق فى الأرض ، فكانوا إذا ولدت الناقة خمس بطون شقوا أذنها وتركوها فلا يحملون عليها ، ولا يرضــعون لبنـــها ، ولا يجزون وبرها ، وتركوها للآلهة ، وسميت بحيرة لشق أذنها كالبحر ، والسائبة هـــى الناقة االتى تلد عشر بطون إناث ، وسائبة مأخوذة من سابه يسيبه ، يعنى تركـــه ، ومنه سيب الشئ ، فيسيبونها فى المراعى لا يؤذونها وتكـــون لســدنة الأصـــنام ، والوصيلة هى الشاه التى يجعلون الإناث من أولادها لهم ، والذكور للآلهة ، فـــإذا ولدت ذكرا وأنثى قالوا : وصلت أخاها ، أى : وصلته بنفسها ، فيتركونها كمـــا تركوا البحيرة والسائبة ، فالله سبحانه وتعالى حرم ذلك بتاتا .

ولقائل أن يقول : إن الإنسان إذا كان له مملوك له أن يعتقـــه ، فكـــذلك الإنسان إذا كان عنده ناقة أو شاة له أن يعتقها . وما ترك من الجهاله شيئا قائـــل هذه المقاله ، لأن الله تعالى خلق الأنواع كلها لينتفع بها الإنسان ، فـــإذا خـــالف الإنسان ربه وكفر بنبيه إستحق الرق ، فإذا زالت تلك الأسباب فلسيده أن يعتقه فيبنتقع بعد عتقه بنفسه ، وأما الحيوانات فإنها خلقت منافع للناس فـــإذا أعتقهـــا الإنسان فوت على نفسه المنفعه التى جعلها الله له وأضاع الحيوانـــات ، لأنهـــا فى حاجة لرعاية الإنسان فى أكلها وشربها وحفظها ، خصوصا بعـــد أن إستؤنســـت وأصبحت مستأنسة داجنة .

(ولا حام) والحامى مأخوذ من الحماية ، ومعناه محمى فهو إسم فاعل ، والمراد به إسم المفعول أى : أنه صار حاميا لنفسه أو محميا ، والحامى : هى الناقة التى تلد عشر بطون ، أو أنه الفحل الذى يكون له فحل من أولاد أولاده يحمـــى ظهره من أن يحمل عليه ، فيترك حتى يموت فيأكلون لحمه .

(ولكن الذين كفروا يفترون على الله الكذب وأكثرهم لا يعقلون) بعد أن بين الله ما حرمته أوابد المشركين من البحيرة وما بعدها ، أثبت أن هذا العمل كان المشركون إعتادوا عليه بعد أن إبتدعه عمرو بن لحى الذى كان ملكا بمكة ، فإنه شق أذن الناقة وقال : إنها بحيرة ، وغير دين إسماعيل عليه السلام ، ونصب الأصنام على الكعبة .

والله تعالى يقول مبينا لنا أن تلك العوائد إبتدعها أهل الكفر بالله تعالى ، والمسلم يجب ألا يعمل عملا إلا بأمر الله وبيان رسول الله ﴿ ﷺ وآله﴾ .

(ولكن الذين كفروا) أى أن الكفار غيروا دين إسماعيل وحكموا بهواهم فضلوا وأضلوا (يفترون على الله الكذب) يعنى يبتدعون بدعا مضله ، وينسبونها للدين إفتراء على الله وإستظهارا على رسله صلوات الله وسلامه عليهم ، قوله: (وأكثرهم لا يعقلون) أى أن العامة منهم يقتدون بأهل الضلال من قادتهم وكبرائهم ، وإنا لنرى بأعيننا أن كثيرا من الضلال الذين يزعمون أنهم أولياء الله بالباطل يقتدى بهم العامة من غير بصيرة فيضلون عن الحق ، وهلاك المسلمين مرتبط بظهور أهل الضلال ، كما أن هلاك المضلين مرتبط بظهور أهل الحق . والواجب على كل مسلم أن لا يترك ميزان الشرع من يده ، فلا يقتدى برجل إلا إذا أيده الله بالشريعة المطهرة قولا وعملا وحالا ، ومن خالف رسول الله ﴿ ﷺ وآله﴾ ولو فى سنه خفيفة مجاهرا بذلك معاندا من نصحه فهو كمبيح ما حرمه الله تعالى مما علم من الدين بالضرورة ، أو المحرم ما أحله الله تعالى مما علم من الدين بالضرورة ، يجب على المسلم المؤمن أن لا يغتر بإقبال الدنيا على مدعى العلم بالله ، وهم فجرة جهلاء . وفى قوله تعالى : ﴿ وأكثرهم لا يعقلون ﴾ إشارة إلى أن السواد الأعظم من الناس يقتدى بالجهلاء من غير بصيرة ، مع أن الواجب على السالكين أن يعاشروا إمامهم ، فإذا علموا عليه ما يخالف السنه من غير ضرورة

وجب عليهم أن يهجروه ، إلا إذا كان به مرض يلجئه إلى عمل ظـــاهره مخـــالف للسنة .

قوله تعالى : وإذا قيل لهم تعالوا إلى ما أنزل الله وإلى الرسول قالوا حســبنا ما وجدنا عليه ءابائنا أولو كان ءاباهم لا يعلمون شيا ولا يهتدون[١٠٤]

تأويل هذه الآية الشريفة أن رسول الله ﴿ ﷺ وآله﴾ وأصحابه إذا بينـــوا للمشركين ضلالهم بإحلالهم ما حرمه الله تعالى عليهم ، وبهتانهم بأن ذلك أحله الله من البحيرة وغيرها ، أقاموا الحجة على أنفسهم أنهم أضل من الأنعام لا يتعقلـــون الحجة لأنهم لا عقول لهم ، ولكنهم كالبهائم السائمة أتباع كل ناعق ، وكيـــف وقد ظهر الحق جليا لأهل العقول السليمة ووضح بقوله تعالى ﴿ وإذا قيـــل لهـــم تعالوا إلى ما أنزل الله وإلى الرسول ﴾ أى : اتبعوا الحق الذى أنزل على رســوله ﴿ ﷺ وآله﴾ كتحريم أوابدهم التى إبتدعها آبائهم من البحيرة وغيرها ، وأبوا قبول ما أنزل الله تعالى ، لأن نفوسهم خبيثه لا تقبل الحق .

﴿ قالوا ﴾ و الظاهر أن تعليلهم بقولهم (حسبنا ما وجدنا عليه ءآباءنـــا) أى : يكفينا ما وجدناه من الآباء ولو كان ضلالا ، فليس هذا بالتعليل الذى يقبله العقل ، لأن العقلاء لا يقتدون بآبائهم إلا إذا قامت الحجة لهم بأنهم على الحـــق ، ولا يقلد هذا التقليد الأعمى إلا البهائم السائمة التى تساق بالعصا حيث لا تعلم إلا إتباعا لراعيها ، وإلا فما جاء به رسول الله ﴿ ﷺ وآله﴾ مـــن عنـــد الله تعـــالى كالشمس فى رائعة النهار عند من له ذرة عقل ، ولكن الهوى أخو العمى .

(أولو كان ءابآؤهم لا يعلمون شئياً ولا يهتدون) الهمزه للإنكار ، والواو للحال ، والجمله حالية ، وفى هذه الآية توبيخ وتشنيع للمشركين ، ويكون المعنى : أتقلدون آباءكم والحال أنهم لا يعلمون شيئا لخبث نفوسهم التى لا تقبل عن الحق

جل جلاله ، ولكنها تقبل عن مقتضى طبعها الخبيث ، وهذه الآية بينت أن كل ما عدا العلم بالله وبأيامه جل جلاله وبأحكامه وبحكمة أحكامه ليس بعلم ، لأن الله تعالى نفى العلم عن آبائهم ، وكانوا يعلمون تدبير معيشتهم ويتقنــون الصــناعه الضرورية لهم والكمالية ، ويعلمون أنواع السياسة والكيد والتجارة والزراعــة ، ويعلمون كيفية تربية حيواناقم الداجنة والسائمة ، ويعلمــون الطــب والبيطــرة واليزدرة ، ويعلمون فن العمارات والهندسة والحساب وعلم النجوم وعلم التاريخ وسير الملوك والأنبياء ،ويعلمون فنون الحروب ، وما عدا ذلك مــن ضــروريات المجتمعات الانسانية ، وما من نوع معين من الحيوانات إلا وفى الإنســان جميــع صفاقا من كيد وحيل وقهر وبخل وشح وشجاعه وإقدام وظلم وتظــالم ، وكــل تلك علوم يعلمها أهلها فى المجتمع ، وكلها ليست علوما عند الله تعالى ولا عنــد رسول الله﴿ ﷺ وآله﴾ ولا عند العلماء الربانيين ، بل هى فنون ، وهنا يظهر لنا أن التقليد يتعين فى حقائق خاصه إلى حد معلوم ٠

فيجب على المسلمين أن يقتدوا برسول الله ﴿ ﷺ وآله﴾ بعد قيام الحجــة بالمعجزة وبيان المحجة بالقول والعمل والحال ، ويسلموا له ﴿ ﷺ وآله﴾ تسليما ، ويعلموا بكل ما جاء به وبقدر الطاقة البشرية ، وما أنزل الله علينا فى كتابه إلا ما نطيقه ، وكل ما دعت إليه الضرورة من مرض أو سفر أو خوف فــإن الــرخص تكون فى هذه المواطن عزيمة ، ويجب علينا أن نترك ما نهانا الله عنه مرةً واحدة إلا دعت الضرورة الفادحة إليه كالجوع الذى يضطر الجائع إلى أكل الميتة ، وفى هذا الحال لا يكون الأكل مخالفا للشريعة ، وهذا يبين لنا الفرق بين الإقتــداء الصــالح والتقليد الفاسد ، فالإقتداء إنما يكون فيما ثبت نفعه ماديا وصلاحه معنويا ، أمــا التقليد فهو عوائد يعتادها الإنسان فيعمل بها مقهوراً حتى ولو لمس ضررها وظهــر فسادها ٠

لهذا يجب على المسلم أن يكون على بصيرة من أمره ، ويستفتى قلبه فى كل ما يحير عقله ، ولا يقلد أحدا فى عمله لمجرد إرضاء نفسه ، ولكن عليه الإقتداء بالعالم العامل بالشريعه والسنه ، ويجاهد نفسه فى تقوى الله حتى يعلمه الله ، ويريه الحق حقا ويرزقه أتباعه و يريه الباطل باطلا ويعينه على إجتنابه ، وهكذا نجد أن الإقتداء أمر صعب لحاجته إلى مجاهدة النفس مجاهدة فادحة ، أما التقليد فأمره سهل لا يحتاج إلى تفكير ولا تدبير ، ويقوم به الأطفال فى سهولة ويسر .

(ولا يهتدون) أى : أن آباءهم الذين إبتدعوا البحيرة والسائبة وغيرها لا يعلمون ما يحبه الله ويرضاه منهم كما تقدم ، ولا يقبلون عن الله ما أنزله عليهم لخبث نفوسهم وغلبة طباعهم عليهم ، ومن كان كذلك لا يقبل ما جاء به رسول الله ﴿ ﷺ وآله﴾ مع ما أقامه الله تعالى من الحجج بالمعجزات الباهرات ومن الحجج بالبيانات الواضحات – خصوصا مشركى العرب – ،ولذلك نهانا الله تعالى عن أخذ الجزية منهم ، وأمرنا بإستئصالهم قتلا لما علمه الله فيهم من فطرهم الخبيثة

قوله تعالى : يأيها الذين ءامنوا عليكم أنفسكم لا يضركم من ضل إذا اهتديتم إلى الله مرجعكم جميعاً فينبئكم بما كنتم تعملون[١٠٥]

(يأيها الذين ءامنوا) ينادى الله تعالى من صدقوه وصدقوا رسوله بقوله سبحانه يا أيها الذين صدقونى وصدقوا خاتم أنبيائى محمدا ﴿ ﷺ وآله﴾ (عليكم أنفسكم لا يضركم من ضل إذا اهتديتم) اسم فعل أمر معناه : حصنوا أنفسكم ، والزموا حصون الشريعه حتى تقوموا بما أوحيته لنبيكم من عقد القلب على العقيدة الحقه ، والعمل بالطاعات ، وترك المنهيات ، والقيام بالأمر بالمعروف والنهى عن المنكر لجميع إخوانكم المسلمين ، ولا يضركم أهل النفاق والكفر إذا قالوا أو فعلوا ما يغضب الله تعالى ، فدعوهم فى غيهم وعنادهم حتى يأتى الله بأمره فيسلطكم

عليهم أو ينتقم منهم بسريع نقمه ، قال تعالى : (لا يغرنك تقلب الذين كفروا فى البلاد متاع قليل ثم مأواهم جهنم وبئس المهاد) [1] .

هذه الآية الشريفه بينت قوة الإيمان عند أهله ، وضعفه عند المنافقين الذين إغتروا بتقلب الكفار فى البلاد فسارعوا إليهم ، ونسوا ما توعد الله به مرضى القلوب من المؤاخذه فى الدنيا والآخره ، وها نحن الآن نرى أعداء الله المستعمرين أفسدوا أخلاق أهل النفاق من المسلمين فسارعوا فيهم ، وظهروا أمام المسلمين بمظهر الأنصار لهم والدعاة إليهم ، فإنقاد لهم ضعاف الإيمان ومرضى القلوب فقلدوهم فى أعمالهم وأقوالهم ، وبعضهم أفسدوا عليهم العقيدة فتركوا الصلاة والصيام والحج والزكاة ، ونظروا إلى أهل التقوى بعين الإزدراء والإحتقار ، وجهلوا ما توعد الله به أعداءه .

(لا يضركم من ضل إذا اهتديتم) معنى هذه الآية أن الله تعالى يطلب منا أن نأمر بالمعروف وننهى عن المنكر أهل الإسلام ، وأن نأمرهم بتوحيد الله تعالى وإتباع نبيه محمد ﴿ ﷺ وآله﴾ ، كما نأمر غير المسلمين إذا تحققنا قبولهم ، فإذا أبوا وكان المسلمون ظاهرين على الكفار قهرناهم على الجزية أو القتل إن أبوها ، أو على القتل إن كانوا مشركين ، وإن كان أهل الكفر ظاهرين لزمنا أنفسنا قائمين بأوامر الله ونواهية كما أمرنا ، لأن سبب نزول هذه الآية الشريفه قول المنافقين للصحابه : إن فرض الجزية على قوم دون قوم ليس من العدل ، فأنزل الله قوله : (عليكم أنفسكم) أى : زكوا أنفسكم وجاهدوها لتقوموا لله تعالى بما أمركم وتنتهوا عما نهى ، ومن هذا يظهر أن كل مسلم الواجب عليه أن يتمسك بأحكام الشريعة لينجو بنفسه من عذاب النار يوم القيامة ، وقد دل قوله : (

١- سورة آل عمران آية ١٩٦-١٩٧

عليكم أنفسكم) أى : جملوها بتنفيذ أوامر الله والإنتهاء عن نواهيه ، لا يضركم كفر الكافرين ونفاق المنافقين إذا قمتم بالواجب عليكم نحوهم من الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر .

(إلى الله مرجعكم جميعا) المرجع إلى الله يكون بالموت ، فأهل الله تعـالى يموتون بالفناء عما سوى الله فى الدنيا فيرجعون إليه جل جلاله بالتوبة والإنابه قبل موته عزرائيل ، قال تعالى : (أو من كان ميتا فأحييناه وجعلنا له نوراً يمشى به فى الناس) [1] ، وأهل الكفر وأهل النفاق يموتون موته الحياه الدنيا بـالكفر وموتـه عزرائيل وهم عليه ، فيرجعون إلى الله بكفرهم مقهورين ، يخلدون يوم القيامـة فى نار جهنم .

(فينبئكم بما كنتم تعملون) والإنباء يوم القيامة قد يكون بقراءة الظاهر ، أو بإنكشاف الحقائق فى الوقت الذى يقول فيه أهل الكفر بالله تعالى ما أخبرنا الله عنهم : (ربنا أبصرنا وسمعنا فارجعنا نعمل صالحاً إنا موقنون) [2] أي: ارجعنا إلى الدنيا ، فلا ينفعهم إيقانهم بما شهدوا .وقد يكون الإنباء بالحساب وشهادة الأنبياء والمؤمنين وكلها بإنباء من الله تعالى ، الذى لا تخفى عليه خافيه من قول أو عمل أو حال أو وسوسة نفس ، نسأل الله السلامة فى الدنيا والآخرة .

قوله تعالى : يأيها الذينءامنواشهادة بينكم إذاحضر أحدكـم المـوت حيـن الوصية اثنان ذوا عدل منكم أو ءاخران من غيركم إن أنتم ضربتم فـى الأرض فأصابتكم مصيبـة الموت تحبسونهما من بعد الصلاة فيقسمان بـالله إن

١- سورة الأنعام آية ١٢٢

٢- سورة السجدة آية ١٢

ارتبتم لا نشترى به ثمناً ولو كان ذا قربى ولا نكتم شهادة الله إنا إذا لمن الاثمين [١٠٦]

﴿ يَأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ﴾ أى : يا أيها الذين صدقوا الله ورسوله ﷺ وآله ، إذا كنتم فى سفر وحضر أحدكم الموت من المسافرين ففرض عليكم أن يقوم منكم اثنان بحفظ وصية الميت حتى يؤديها لأوليائه وورثته كما سمعها من الميت قبل موته ﴿ شَهَدَةُ بَينِكُم ﴾ أى : تشهدونها بينكم ، أى : تسمعونها من الميت ، كما تقول : شهدت كذا ، أى : حضرته ، كما قال تعالى : ﴿ فَمَن شَهِدَ مِنكُمُ ٱلشَّهرَ ﴾[١] أى : حضر طلوع هلال رمضان فى أهله ولم يكن مسافرا . وفى قوله ﴿ بَينِكم ﴾ إشارة إلى تمام الارتباط بيننا وكأن الميت واحد منا ، كما قال تعالى : ﴿ وَلاَ تَقتُلُوا أَنفُسَكُم ﴾[٢] .

﴿ إِذَا حَضَرَ أَحَدَكُمُ ٱلمَوتُ ﴾ أى : إذا ظهرت علامات الموت على الرجل وهو بعيد عن أهله ، ﴿ حِينَ ٱلوَصِيَّةِ ﴾ أى : وقت وجوب الوصية التى ذكرها الميت أو أوصى بها ، فإن الواجب على مَن مع الميت إذا شغلته سكرات الموت أن ينبهوه للوصية خصوصا إذا كان مسافرا .

﴿ ٱثنَانِ ذَوَا عَدلٍ مِّنكُم ﴾ ، ومعنى شهادة بينكم هى أن يشهد إثنان من العقلاء المعروفين بالعدالة والعفة والعمل الصالح ﴿ مِنكُم ﴾ أى : أيها المسلمون ، إذ لا تجوز شهادة الكافر على المسلم ، وقد أجازتها الشريعة هنا فى السفر إذا لم يكن مع الميت شهداء عقلاء من المسلمين بقوله تعالى : ﴿ أَو ءَاخَرَانِ مِن غَيرِكُم ﴾

١- سورة البقرة آية ١٨٥ .

٢- سورة النساء آية ٢٩.

أى : اثنان من غير المسلمين ، و لم تجز الشريعة شهادة اثنين غير مسلمين على مسلم إلا فى هذا الموضع .

﴿ إِن أَنتُم ضَرَبتُم فِى الأَرضِ ﴾ هذه الآية الشريفة بيان للحالة التى تتعين فيها تلك الأحكام ، وهذه الحالة هى حالة الضرب فى الأرض ، أى السفر من بلد إلى بلد ﴿ فَأَصَبَتكُم مُّصِيبَةُ آلمَوتِ ﴾ إشارة إلى أن الموت ثقيل على النفوس ، ثقيل على من نزل به ، ثقيل على من شهده ، لأن الله تعالى جعله مصيبة ، لأن الميت إذا كان صالحا تمنى أن يطول عمره ليزداد صلاحا و إن كان فاسقا تمنى أن يطول عمره ليتوب إلى الله ويعمل صالحا .

﴿ تَحبِسُونَهُمَا مِن بَعدِ آلصَّلَوةِ ﴾ المراد بالصلاة الصلاة مطلقا ، وورد أنها صلاة العصر المعهودة بقوله تعالى : ﴿ حَافِظُواْ عَلَى آلصَّلَوَاتِ وَآلصَّلَوةِ آلوَسطَى وَقُومُواْ لِلَّهِ قَانِتِينَ ﴾[1] وقد ورد فى رواية أنها صلاة العصر فصارت الألف واللام فى الصلاة للعهد ، والمعهود العصر ، ومعنى ﴿تَحبِسُونَهُمَا ﴾ أى : تطلبونهما للشهادة ، فإن كانا مسلمين شهدا الشهادة بدون يمين .

﴿ فِيقسِمَانِ بِآللَّهِ ﴾ المكلف باليمين هنا هم غير المسلمين ، وقد طلب اليمين بشهود موت من مات بعض الصحابة رضوان الله عنهم ، وطلب اليمين من بعض المسلمين ، وعلى هذا يكون ﴿ فِيُقسِمَانِ ﴾ راجع إلى المسلم وغيره .

﴿ إِنِ آرتَبتُم لاَ نَشترِى بِهِ ثَمَناً وَلَو كَانَ ذَا قُربَى ﴾ معنى هذه الآية الشريفة أن الله تعالى فرض اليمين يطالب به من ارتاب ــ فيمن أودعهما الميت متاعه ليوصلاه إلى ورثته ــ فإن الواجب على ولى الأمر من المسلمين أن يوقفهما

١- سورة البقرة آية ٢٣٨.

بعد صلاة العصر ويكلفهما أن يقسما بالله أنهما لا يشتريان بقسمهما ثمنا ، أى : يقسمان بالله ألا يضيعا من مال الميت شيئا باليمين بعد الريبة وعدم الثقة فيهما ، ومعنى (لا نشترى به ثمنا) أى : لا نجعل القسم بالله سببا فى ضياع حق الورثة من مال الميت ، ويكون قوله تعالى : ﴿ يَأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ شَهَادَةُ بَيۡنِكُمۡ إِذَا حَضَرَ أَحَدَكُمُ ٱلۡمَوۡتُ حِينَ ٱلۡوَصِيَّةِ ٱثۡنَانِ ذَوَا عَدۡلٖ مِّنكُمۡ أَوۡ ءَاخَرَانِ مِنۡ غَيۡرِكُمۡ ﴾ ممن يحضرون وصية الميت واستلام ما لديه من المتاع ليسلماه إلى ورثته وذلك ﴿ إِنۡ أَنتُمۡ ضَرَبۡتُمۡ فِي ٱلۡأَرۡضِ ﴾ أى : سافرتم (فَأصابتكم مصيبة الموت) أى : أصاب أحدكم فكانت مصيبة لكم جميعا ، لأن مصيبة المسلم مصيبة لجميع مَن معه من المسلمين فهم جسد واحد إذا اشتكى منه عضو تداعى له سائر الجسد ، ولذلك فالله تعالى يخاطب المؤمنين بقوله (فأَصبتكم) بكاف الخطاب وصيغة الجمع ، لأن مصيبة الموت لواحد مصيبة للجميع لما بين المسلمين من التواد والتعاطف ، ومن لم يَتَأَلَّم بألم أخيه المسلم فليس من المسلمين ، فإذا حصل اتهام من الورثة لمن أحضرا الوصية تعين على ولى الأمر أن يقيمهما بعد صلاة العصر إذا كان الوصيان مسلمين ، وهذا القيد ليعلم أنهما صالحان بشهادة الجماعة ، وإن كانا غير مسلمين فبعد صلاتهم الدينية ، يقسمان بالله عند حصول الريبة والتهمة .

﴿ وَلَوۡ كَانَ ذَا قُرۡبَىٰ ﴾ يعنى أنهما يقسمان أن يقولا الحق ولا يشتريان بالقسم شيئا قل أو كثر بتغيير وصية الميت ولو كان الذى يريدان أن يخصاه بالقسم ذا قربى .

﴿ وَلَا نَكۡتُمُ شَهَٰدَةَ ٱللَّهِ ﴾ أى : ومن الملحق بجواب القسم أنهما لا يكتمان شهادة الله التى أوجبها الله تعالى ﴿ إِنَّآ إِذٗا لَّمِنَ ٱلۡأٓثِمِينَ ﴾ أى : إذا كتمنا شهادة الله أو اشترينا بالقسم شيئا قليلا أو كثيرا نكون من الذين ارتكبوا الإثم ، والإثم هو الكبيرة التى توبق فاعلها فى النار .

قوله تعالى : فَإِن عُثِرَ عَلَى أَنَّهُمَا آستَحَقَّا إِثماً فَأخرَانِ يَقُومَانِ مَقَامَهُمَا مِن آلَّــذِينَ آستَحَقَّ عَلَيهِمُ آلأَولَيَنِ فَيُقسِمَانِ بِآللَّهِ لَشَهدَتُنَا أَحَقُّ مِن شَهَدَتِهِمَا وَمَا آعتَدَينَا إِنَّـــا إِذاً لَّمِنَ آلظَّلِمِينَ (١٠٧)

﴿ فَإِن عُثِرَ عَلَى أَنَّهُمَا آستَحَقَّا إِثماً فَأخرَانِ يَقُومَانِ مَقَامَهُمَا مِــن آلَّــذِينَ آستَحَقَّ عَلَيهِمُ آلأَولَيَنِ فَيُقسِمَانِ بِآللَّهِ ﴾ أى : فإن ظهر أو انكشـــف أن اللـــذين وصاهما الميت أن يعطيا ورثته متاعه بعد موته خانا الأمانة أو غيرا فى الوصية بعـــد قسمهما بالله ، فالواجب شرعا أن يقوم رجلان من ورثة الميت المستحقين للميراث فيقسمان بالله ، وجواب القسم قولهما ﴿ لَشَهدَتُنَا أَحَقُّ مِن شَهَدَتِهِمَا ﴾ لأنا نعلم حق اليقين أن متاع الميت كـــان كـــذا وكـــذا ، فـــنقص منـــه كـــذا وكـــذا ﴿ وَمَا آعتَدَينَا ﴾ فى شهادتنا ولا كذبنا فى قسمنا ﴿ إِنَّا إِذاً لَّمِنَ آلظَّلِمِينَ ﴾ وإنـــا لنعلم أننا إذا اعتدينا فى شهادتنا بعد القسم نكون من الذين ظلموا أنفسهم ، وقد أخبرنا الله تعالى بقوله : ﴿ إِنَّ آلشَّركَ لَظُلمٌ عَظِيمٌ ﴾[1] والكذب بعد القسم فيـــه شرك خفى .

قوله تعالى : ذَلِكَ أَدنَى أَن يَأتُواْ بِالشَّهَدَةِ عَلَى وَجهِهَا أَو يَخَافُواْ أَن تُـــرَدَّ أَيمَنُ بَعدَ أَيمَنِهِم وَآتَّقُواْ اللَّهَ وَآسمَعُواْ وَآللَّهُ لَا يَهدِى آلقَومَ آلفَسِقِينَ (١٠٨)

﴿ ذَلِكَ أَدنَى أَن يَأتُواْ بِالشَّهَدَةِ عَلَى وَجهِهَآ أَو يَخَافُواْ ﴾ الإشارة راجعة إلى ما بينه الله تعالى من أحكام من أصابتهم مصيبة الموت فى السفر ، ويعـــنى الله تعالى بهذه الآية أن الأحكام التى قررها (أَدنَى) أى : أقرب لأن يأتوا بالشـــهادة على حقيقتها من غير تغيير ولا كذب ولا خيانة فى مناع الميت ، وأحرى أن يخافوا

١- سورة لقمان آية ١٣.

من ﴿ أَن تُرَدَّ أَيۡمَٰنٌ بعدَ أَيۡمَٰنِهِم ﴾ أى : فتضل أيمانهم وتثبت حقوق الميت لـــديهم ، فإذا علم الوصيان أن الشريعة قررت قيام رجلين عدلين من الورثة ببيان ما نقـــص من متاع الميت ويقسمان على أنهما يقولان حقا ، فيحكم ولى الأمر بما بيناه على الوصيين السابقين وهذا حق للورثة وهم أولى من غيرهم .

﴿ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَٱسۡمَعُواْ ﴾ أى : وخافوا الله فيما بينه من الأحكـــام فـــلا تخالفوا أمره ﴿ وَٱللَّهُ لَا يَهۡدِى ٱلۡقَوۡمَ ٱلۡفَٰسِقِينَ ﴾ أى : لا يهدى هداية الإحســـان قوما فسقوا من الدين كما تفسق الحية من ثوبها ، أى : خالفوا أحكام الله تعالى ، والفاسق هو مفارق الحق لعلة من شهوة أو طمع فى متاع زائل أو للانتقام من عدو ، ومن آثر هواه على أحكام الله فقد فسق ، أى : فارق الدين كما يفارق السهم القوس إلى المرمى .

قوله تعالى : يَوۡمَ يَجۡمَعُ ٱللَّهُ ٱلرُّسُلَ فَيَقُولُ مَاذَآ أُجِبۡتُمۡ قَالُواْ لَا عِلۡمَ لَنَآ إِنَّكَ أَنتَ عَلَّٰمُ ٱلۡغُيُوبِ (١٠٩)

بعد أن بين الله تعالى الأحكام وأمرنا أن ننفذها على وجهها ، ذكر هنـــا يوم القيامة الذى تفزع منه القلوب وتقشعر الجلود ، لتقوم الحجة على أهل الفسق أنهم فى ضلال فيرجعون إلى الله بالتوبة ، فقال تعالى : ﴿ يَوۡمَ يَجۡمَعُ ٱللَّهُ ٱلرُّسُلَ ﴾ وذلك اليوم هو يوم القيامة ، ومعنى جمعهم أى : نشرهم من القبور ، وقد بينـــت لك فى كتاب (النشأة الثانية)[1] شرح القيام من القبور بالحجة البالغة وبالأسباب القائمة ، فراجعه إن أردت المزيد .

١- يطلب من ((دار الكتاب الصوفى)) لنشر تراث الإمام المجدد السيد محمد ماضى أبى العزائم قدس سره ١١٤ ش مجلـــس الشعب ـــ القاهرة .

وفى هذه الآية دليل على أن رفعة المقامات عند الله لها خطر عظيم ، ويجب على من رفع الله مقامه فى الدنيا والدين أن ينهج صراط الله القويم فيسير على صراط أدق من الشعرة ، وأحد من السيف ، والصراط الذى سمعنا عنه فى الآخرة هو فى الدنيا أيضا ، فإن السالك على الصراط المستقيم فى الدنيا لا يرى صراطا فى الآخرة ولا يسير عليه ، وصراط الدنيا أدق وأحد من صراط الآخرة ، وهو العمل بكتاب الله وبسنة رسول الله بالقلوب والجوارح ، وعندى أن العامل بكتاب الله وبسنة رسوله ﴿ ﷺ وآله﴾ كمن بينه وبين النار غلالة لو لمسها لفتح على نفسه بابا من أبواب النار ، وقد ورد أن رسول الله ﴿ ﷺ وآله﴾ قال : ((أَنَا أَعلَمُكُم بِاللَّهِ وَأَشَدُّكُمُ مِنهُ خَوفاً)) [1] ، فمن تعدى صراط الله المستقيم فى الدنيا ـــ الذى أمرنا الله أن نسأله هدايتنا إليه أربعين أو ثلاثين مرة فى اليوم ـــ مشى يوم القيامة على صراط مرفوع على متن جهنم لا ينجيه من السقوط فيها سوى توفيق الله له فى الدنيا فيعمل للآخرة .

﴿ فِيقُولُ مَاذَآ أُجِبتُم قَالُواْ لاَ عِلمَ لَنَا ﴾ تقدم الكلام على (ماذا أجبتم) أى : ماذا أجابتكم أممكم عندما دعوتموهم إلى توحيد الله وعبادته ؟ والجواب يعلمه الأنبياء صلوات الله وسلامه عليهم ، ولكن هول الموقف وعظمة الله تعالى وكمال يقينهم بإحاطة علم الله بالكليات والجزئيات جعلهم يجيبون بقولهم ﴿ لاَ عِلمَ لَنَا ﴾ أى : لا علم لنا بعلمك الذى تعلمه فيهم من أعمال قلوبهم وجوارحهم ﴿ إِنَّكَ أَنتَ عَلَّمُ آلغُيُوبِ ﴾ وهذا خبر من الله تعالى عن قول الرسل له سبحانه يوم القيامة ، ومعنى الآية : إنك أنت الله تعلم الغيوب جميعها أى : تحيط علما بما فوق العرش وما تحت النجوم وما بين ذلك ، وبما تكنه النفوس قبل إيجادها وبعد إيجادها وبعد ذلك مما انفردت سبحانك بعلمه دون غيرك ، وقد قرر الإمام ابن جرير أن معنى

١- رواه البخارى فى كتاب الإيمان الباب ٣ وكتاب الاعتصام الباب ٥.

قوله تعالى : ﴿ مَاذَا أُجبتُم قَالُواْ لاَ عِلمَ لَنَا ﴾ أن السؤال كان عما فعله الأمم بعد موهم ، فأجابوا عليهم السلام بقولهم : ﴿ لاَ عِلمَ لَنَا ﴾ لأنا بعد موتنا لا نعلم ما حصل ، وظاهر الآية يفيد أن السؤال كان عما أجابوهم به حتى يحسنوا الجواب ، لأن السائل هو الله تعالى والمسئول هم رسل الله صلوات الله عليهم .

قوله تعالى : إذ قَالَ آللَّهُ يَعِيسَى آبنَ مَريَمَ آذكُر نِعمَتِى عَلَيكَ وَعَلى وَلدَتِكَ إذ أَيَّدتُّكَ بِرُوحِ آلقُدُسِ تُكَلِّمُ آلنَّاسَ فِى آلمَهدِ وَكَهلاً وَإذ عَلَّمتُكَ آلكِتَبَ وَآلحِكمَةَ وَآلتَّورَاةَ وَألإنجِيلَ وَإذ تَخلُقُ مِنَ آلطِّينِ كَهَيئَةِ آلطَّيرِ بِإذنِى فَتَنفُخُ فِيهَا فَتَكُونُ طَيرا بِإذنِى وَتُبرِئُ آلأَكمَةَ وَآلأَبرَصَ بِإذنِى وَإذ تُخرِجُ المَوتَى بِإذنِى وَإذ كَفَفتُ بَنِى إسرَائِيلَ عَنكَ إذ جِئتَهُم بِآلبَيِّنَتِ فَقَالَ آلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنهُم إن هَذَا إلاَّ سِحرٌ مُّبِينٌ ۝

﴿ إذ قَالَ آللَّهُ ﴾ معنى تأويل هذه الآية : واذكر وقت قول الله تعالى : ﴿ يَا عِيسَى آبنَ مَريَمَ آذكُر نِعمَتِى عَلَيكَ ﴾ أى : تذكر نعمتى ، وَآلنِّعمَةُ المضافة إلى الله تعالى نعم لا تعد ولا تحصى ، قال تعالى : ﴿ وَإن تَعُدُّوا نِعمَةَ آللَّهِ لاَ تُحصُوهَا ﴾(1) ، وقوله تعالى : ﴿ وَعَلى وَلِدَتِكَ ﴾ ، أى مريم التى أكرمها الله تعالى من طفولتها حتى وفاها ﴿ إذ أَيَّدتكَ بِرُوحِ آلقُدُسِ ﴾ وقت تأييدك بروح القدس وَآلرُّوحُ : هو جبريل ، وَالقُدسُ : هو الله تعالى ، وهذا بيان للنعم العظمى التى خصه الله بها بعد نعم الإيجاد والإمداد التى لا تحصى .

﴿ تُكَلِّمَ آلنَّاسَ فِى آلمَهدِ وَكَهلاً ﴾ وهاتان النعمتان من عجائب القدرة ، لأنه عليه السلام تكلم عند خروجه من بطن أمه حيث قال : ﴿ إنِّى عَبدُ آللَّهِ

١- سوره النحل آية ١٨.

ءَاتَانِىَ ٱلكِتَابَ وَجَعَلَنِى نَبِياًّ وَجَعَلَنِى مُبَارَكاً أَينَمَا كُنتُ ﴾[1] ، أمـــا كلامـــه فى الكهولة فله معنيان ، المعنى الأول : أنه تكلم بعد أن استوى رجلا ولـــيس هـــذا بغريب ، والذى أفهمه مما يناسب عجائب القدرة أن الله يترله فى آخـــر الزمـــان فيكلم الناس ويكون كلامه حينئذ أغرب وأعجب ، بل وفوق طاقه البشر ، وهذا المعنى الثانى سيكون من أبهر المعجزات .

﴿ وَإِذ عَلَّمتُكَ ٱلكِتَبَ وَٱلحِكمَةَ ﴾ يظهر أن المراد به تعليمه عليه الســـلام بيان الحقائق بما آتاه الله من تأييده بروح القدس ﴿ وَالتَّوراةَ والإِنجِيلَ ﴾ معلومان ، فالأول أنزله الله على موسى ، والثانى على عيسى عليهما السلام ، وفى هذه الآية بيان لما آتاه الله لعيسى بن مريم من علم الكتاب والحكمة .

﴿ وَإِذ تَخلُقُ مِنَ ٱلطِّينِ كَهَيئَةِ ٱلطَّيرِ بِإِذنِى ﴾ هذه النعمة مما خص الله به عيسى بن مريم عليه الصلاة والسلام وهى بلاء من الله تعالى للخلق ، فكم فتن بها من لا بصيرة له من أهل النصرانية ، وكان الطب قد بلغ فى زمن عيســـى مبلغـــا يقارب المعجزات ، فجعل الله لعيسى بن مريم معجزة حيرت عقـــول الأطبـــاء فى وقتهم ، وكما كان يأخذ الطينة أمامهم فيصورها بشكل الطير ، وكـــان إذ ذاك المصورون قد برعوا فى التصوير ، فكان تصويره الطير ونفخه فيها فيجعله حيـــا ، أمرا أعجز المصورين فى ذاك الوقت مما كاد يسلب العقول ، وكم هلـــك أقـــوام بسبب ما كان يرويه القساوسة لهم فى مثل هذه الأخبار مما أظهره الله علـــى يـــد المسيح ليظهر براءته ونبوءته ، ويظهر الله سبحانه وتعالى عجائب قدرته لعباده على يد عبد منهم اصطفاه وعلمه .

١- سورة مريم آية ٣٠ ـــ ٣١.

وقبح الله أهل العقول الضالة كيف حكموا بألوهة عيسى بعد قوله الـــذى قاله فى نفسه لإثبات عبوديته مما كثر فى الإنجيل ، بل وما ورد فى التوراة ، بل وما خلقه الله فى الكون من آيات دالات على توحيده جل جلاله ، وكل ذلك لا ينتفع به من أضلهم الله تعالى .

وقوله : (تخلق) هنا بمعنى تصور ، فإن خلَق وجعَل وصوَّر وصيَّر بمعـــنى أحدث شيئا من شىء ، أو شيئا من لا شىء ، ومعلوم أن تصوير الأشكال التى لها ظل محرم شرعا ، ومن صور شكلا مجسما قيل له يوم القيامة : انفخ فيه الروح أو ادخل النار . ولما كان عيسى عليه السلام بعثه الله تعالى ليكمل شريعة موســـى ، وكان أحبار اليهود قد انغمسوا فى الدنيا وطمعوا فيما فى أيدى الملوك والأغنياء ، وكانوا على علم بالتوراة وكان الرومان المحتلون بلاد سوريا قد اغتصــبوا علـــوم اليونان وغيرهم من الأمم الشرقية العريقة فى المدينة ، فكان لهم أوفر قسط من علوم الطب الذى تفوقوا فيه على من سبقهم ، فإن الله أيد عيسى عليه السلام بما أدهش علماء دهره ، وحير أحبار اليهود إقامة لحجة الله تعالى ، ومهما كانت هداية البيان مؤيده بأقوى الحجج فإنهما لا تؤثر على قلوب عليها أقفالها ، فالهداية المؤثرة هـــى هداية الإحسان التى هى هداية الله تعالى .

﴿ فَتَنفُخُ فِيهَا فَتَكُونُ طَيراً بِإِذنِى ﴾ والنفخة هنا على ظاهرها تقتضـــى أن يكون ذلك سرا من أسرار الله تعالى ، وجائز أن تكون : كلمة ، وهى أن يقول : آحىَ بِإِذنِ اللَّهِ . أَو : كُن طيراً بِإِذنِ اللَّهِ . و(طيرا) هنا طائر ، بدليل ما ورد فى بعض القراءات ، والتاء فى المضارع عائدة إلى : هيئة ، أى : فتكون الهيئة طــيرا ، وعلى رواية : فيكون ، يكون الفاعل المعنى المأخوذ من الكاف التى هى : مثـــل ، أى : فيكون مثل هيئة الطير طيرا (بِإِذنِى) أى : بتقدير الله وإرادته ، لا بتقـــدير عيسى وإرادته .

﴿ وَتُبرِىءُ الأَكمَهَ وَٱلأَبرَصَ بِإِذنِى ﴾ الأكمه هو من ولد بدون عيـــنين ، والأعمى هو من ولد بصيرا وزال بصره ، والأعمه هو من فقد بصيرته ﴿ وَتُبرِىءُ الأَكمَهَ ﴾ أى : توجد له عينين ﴿ وَٱلأَبرَصَ بِإِذنِى ﴾ أى : تشفى من تغير لـــون جسمه بالبرص ، كما فعل بشمعون من أحبار اليهود ﴿ وَإِذ تُخرِجُ ٱلمَوتَى بِإِذنِى﴾ واذكر وقت أن ناديتَ لعاذر وهو ميت فى قبره فأخرجتَهَ حيا ، وعاذر هذا هو ابن مريم المجدلية صديقة أمه مريم ، وقد رآهما تبكيان على قبره وطلبت منه أن يحييه لها ، ومعنى (تخرج الموتى) أى : تخرجهم من قبورهم أحياء بعد موتهم .

﴿ وَإِذ كَفَفتُ بَنِى إِسرَائِيلَ عَنكَ ﴾ معنى هذه الآية أن الله تعالى كـــفَّ ، أى : منع ضرر كيد بنى إسرائيل أن يصل إليه فرفعه إلى السماء مؤيدا بروح منـــه سبحانه ﴿ إِذ جِئتَهُم بِٱلبَيِّنَتِ ﴾ وأداة التعريف ((الـــ)) فى البينـــات ، إمـــا أن تكون للعهد ويكون المعهود ما أخبرنا الله به مما تفضل على عيسى عليه الســـلام ، وجائز أن تكون ((الـــ)) هنا للجنس ، والمراد جنس البينات التى أرسله الله يدعو إليها ، وما أقامه له سبحانه من الحجج القوية بالمعجزات الباهرات التى بينها الله لنا فى هذه الآية ، وتكون تلك البينات هى التى أوغرت صدور اليهود فسعوا بـــه إلى الروم المحتلين لسوريا فى وقت زمانه عليه السلام ، ليستريحوا مما ينالهم مـــن الـــذل والخزى والهوان لو أظهر الله الحق على يديه بإظهار الحق عليهم .

﴿ فَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنهُم إِن هَذَا إِلاَّ سِحرُ مُّبِينُ ﴾ يعنى بعد أن جـــاء عيسى بالبينات لليهود الذين أخبرنا الله عنهم مع من سبق من أنبيائه عليهم السلام ، مما دل على خبث طباعهم وسوء نفوسهم وعمه بصائرهم ، أخبرنا جل جلالـــه أنهم جبلوا على هذا الخبث فإنهم ـــ قبحهم الله تعالى ـــ بدلا من أن يسلموا بمـــا جاءهم من الحجج وما وضح لديهم من الدلائل ، بل وبما ثبت عندهم فى التـــوراة من النبوة بالمسيح وغيره ممن قدر الله بعثهم بعد موسى ، وأنكـــروا وجحـــدوا ،

وياليتهم بعد إنكارهم وجحدهم تركوا المسيح وشأنه كما يفعل العدو العاقل ، بل سعوا وغيروا كلمة التوراة فى شأن المسيح عن مواضعها ، وأغروا حكومة الظلم المحتلة من الروم بعيسى عليه السلام ، ولكن الرب الكبير المتعال الذى وعد رسله بالنصرة والتأييد رفعه إليه ونجاه من مكرهم ، فإن قوله تعالى خبرا عنهم : ﴿ إِنْ هَذَآ إِلاَّ سِحْرٌ مُّبِينٌ ﴾ طليعة جيش الباطل ، وقد ورد فى قراءة سَاحِرٌ مُّبِينٌ ، وكلتا القراءتين صحيحتان ، والجمع بينهما أن قراءة (سِحرٌ) معناها : هذه الأعمال سحر ، وقراءة (ساحر) معناها : أن فاعل هذا العمل ساحر ، و (مبين) أى : بيِّن ، وكذبوا ــ أخزاهم الله ــ لأن الساحر لا يدعى نبوة ولا رسالة ويقيم الحجة عليها بسحره ، ولكنه يعمل السحر طمعا فى نيل الدنيا .

قوله تعالى : وَإِذْ أَوحَيتُ إِلَى آلحَوَارِيينَ أَن ءَامِنُواْ بِى وَبِرَسُولِى قَالُواْ ءَامَنَّا وَآشهَد بِأَنَّنَا مُسلِمُونَ (111) ﴿ وَإِذ أَوحَيتُ إِلَى آلحَوَارِيينَ ﴾ الوحى معلوم وله عشرة طرق اختص الله الرسل منها بأربعة وقد وردت فى البخارى فى باب بدء الوحى ، وستة منها اشترك الرسل فيها مع أهل الإيمان الكامل ، وقوله : ﴿ أَوحَيتُ ﴾ إن كان هذا الوحى بواسطة الملك يثبت أنهم أنبياء ، وإن كان المراد بالوحى هو الإلهام كما قال : ﴿ وَأَوحَينَا إِلَى أُمِّ مُوسَى ﴾[1] وهو الظاهر من هذه الآية يكون الوحى إلى الحواريين بالإلهام من عند الله تعالى للقوم بالهداية والقبول من عيسى عليه السلام .

﴿ أَن ءَامِنُواْ بِى ﴾ أى : صدِّقوا بى كما أخبرتكم به عن نفسى من صفات كمالى وجمالى وجلالى ، ومن اختصاصى بالعبادة دون غيرى ، وتفردى بالإيجاد والإمداد ﴿ وَبِرَسُولِى ﴾ أى : وبأن عيسى مرسل من قِبلى ليبلغكم عن

١- سورة القصص آية ٧.

محابى ومراضى ﴿ قَالُواْ ءَامَنَّا ﴾ أى : صدقنا الله ورسوله ﴿ وَآشهَد بِأَنَّنَا مُسلِمُونَ ﴾ أى : واشهد لنا عند ربنا شهادة عيان بما ترانا نقوم أمامك من المسارعة إلى تنفيذ أمرك فيما تأمرنا أن نعمله ، ومن الانقياد لما تبينه لنا مما يتعلق بالقلوب انقياد استسلام وتسليم كامل ، فأثبتوا الإيمان ـــ أى : التصديق بقلوبهم ـــ

لأن الإيمان عمل القلوب ، ولا ينبغى الحكم عليه بالشهادة بل بمجرد الخبر ممن قالوا (واشهد بأننا مسلمون) لأن الإسلام عمل من أعمال الجوارح تقوم به الحجة على التسليم وقد يكون فى بعض الأحايين دليلا على الإيمان ، وقد يكون فى أحايين أخرى نوعا من النفاق .

قوله تعالى : إِذ قَالَ آلحَوَارِيُّونَ يَعِيسَى آبنَ مَريَمَ هَل يَستَطِيعُ رَبُّكَ أَن يُنَزِّلَ عَلَينَا مَآئِدَةً مِنَ السَّمَاءِ قَالَ آتَّقُواْ آللَّهَ إِن كُنتُم مُّؤمِنِينَ (١١٢)

﴿ إِذ قَالَ آلحَوَارِيُّونَ ﴾ معنى هذه الآية واذكر وقت أن قال الحواريون : ﴿ يَعِيسَى آبنَ مَريَمَ ﴾ بعد إقرارهم وإيمانهم بالله وبرسوله ﴿ هَلُ يَستَطِيعُ رَبُّكَ ﴾ الاستفهام هنا للتقرير لسابق إيمانهم ﴿ يَستَطِيعُ ﴾ هنا بحسب ما فهمه أهل المعرفة بالله تعالى : هَل يُطِيعُكَ رَبُّكَ فيتفضل عليك بإجابة ما تطلبه منه جل جلاله كما فعل مع الخليل عليه السلام ؟ وكان الحواريون من العلماء بالله العارفين بسير رسله عليهم الصلاة والسلام ، وهذا ما يناسبه مقامهم ، فتكون السين والتاء زائدتين ، ويؤيد ذلك قولهم بعد : (نأكل منها وتطمئن قلوبنا) كما قال الخليل عليه السلام : ﴿ بَلَى وَلَكِن لِّيَطْمَئِنَّ قَلْبِى ﴾[1] وهذا مشهد الصديقين أو الأنبياء ، فإن مقام

١- سورة البقرة آية ٢٦٠ .

الطمأنينة فوق مقام الإيمان ، والأنبياء لا يقفون عند مقام الإيمان فحسب ، حتى تقوم الحجة التى تطمئن بها القلوب .

وقد رويت تلك الآية بِٱلتَّاءِ كما رويت بِٱلْيَاءِ فتكون : هل تَستَطِيعُ رَبَّكَ ـــ بفتح رب ـــ أى : هل تستطيع أن تسأل ربك مائدة لتقوم الحجة أنك مقبول الشفاعة عنده ؟ ولا يتصور متصور أن الحواريين كانوا فى شك من قدرة الله تعالى على إنزال المائدة .

﴿ أَن يُنَزِّلَ عَلَيْنَا مَآئِدَةً مِنَ السَّمَاءِ ﴾ أى : يتفضل علينا بإنزال مائدة من السماء ، لا لأننا فى شك من قدرته على ما هو فوق ذلك ، ولا فى شك أنك رسوله بما أقامه سبحانه من المعجزات الباهرات على صدقك ، ولكننا فى جوع شديد إلى معجزة سماوية بعد توالى المعجزات الأرضية ﴿ قَالَ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ إِن كُنتُم مُّؤمِنِينَ ﴾ أى : خافوا سريع عقوبة الله تعالى بامتحانكم ، فقد قامت الحجة على توحيده جل جلاله وعلى صدق دعواه بما أظهره من المعجزات الملموسة المحسوسة ﴿ إِن كُنتُم مُّؤمِنِينَ ﴾ أى : إن تحققتم بالإيمان بتصديق الله تعالى وتصديقى .

قوله تعالى : قَالُواْ نُرِيدُ أَن نَّأْكُلَ مِنْهَا وَتَطْمَئِنَّ قُلُوبُنَا وَنَعْلَمَ أَن قَدْ صَدَقْتَنَا وَنَكُونَ عَلَيْهَا مِنَ الشَّاهِدِينَ (١١٣)

﴿ قَالُواْ نُرِيدُ أَن نَّأْكُلَ مِنْهَا ﴾ معنى هذه الآية أهم قد سألوا عيسى ابن مريم هذا السؤال لا شكا ولا ريبة ولا عنادا ، ولكنهم سألوه إنزال المائدة من السماء لاحتياجهم إليها من الجوع ، وكونها من السماء أقوى دلالة على مقام عيسى عند الله تعالى خصوصا بعد توالى المعجزات الأرضية ﴿ وَتَطْمَئِنَّ قُلُوبُنَا ﴾ يعنى أهم بعد أن بلغوا مقام الإيمان بما أظهره الله لهم من المعجزات ، وما سمعوه من عيسى عليه السلام من علوم الإيمان ، أرادوا أن يبلغوا مقام اليقين الذى يكمل

بطمأنينة القلب كما قال تعالى للخليل : ﴿ أَوَ لَم تُؤمِن قَالَ بَلَى وَلَكِن لِّيَطمَئِنَّ قَلبِى ﴾[1] أى : ليس مقامى وأنا خليلك مقام الإيمان ، بل مقامى يقتضى أن أكون على حق اليقين ، فكذلك الحواريون وهم أصحاب عيسى يريدون أن يصلوا إلى مقام اليقين بعد الإيمان بالغيب .

﴿ وَنَعلَمَ ﴾ أى : ونعلم على اليقين الذى هو تصور النفس رسوم المعلوم حتى تكون معالم أمام جوهر النفس لا يغيب بظلال الحس ، وإذا بلغ العلم إلى هذا المقام صار المعلوم أقرب إلى النفس من كل شيء ، فيبلغ المسلم به مقام المحاسبة أو المراقبة ﴿ أَن قَد صدَقتَنَا ﴾ أى : أنك قد صدقت فى دعواك أنك عبد الله ورسوله سبحانه وتعالى ﴿ وَنَكُونَ عَلَيْهَا مِنَ الشَّاهِدِينَ ﴾ لأنفسنا ولغيرنا من معاصرينا ولمن بعدنا .

قوله تعالى : قَالَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ اللَّهُمَّ رَبَّنَا أَنزِلْ عَلَيْنَا مَآئِدَةً مِّنَ السَّمَاءِ تَكُونُ لَنَا عِيداً لِّأَوَّلِنَا وَآخِرِنَا وَآيَةً مِّنكَ وَارْزُقْنَا وَأَنتَ خَيْرُ الرَّازِقِينَ (١١٤)

﴿ قَالَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ اللَّهُمَّ رَبَّنَا ﴾ تأويل هذه الآية الشريفة أن عيسى عليه السلام نادى الله تعالى ، فإن قوله : (اللَّهُمَّ) فى الأصل : يا ألله ، حذفت ياء النداء وأبدل عنها بالميم فقال : (اللهم) ، ومعناها : أدعو الله تعالى (ربنا) منادى حذفت منه ياء النداء أيضا ، ولما كان الاسم ـــ الله ـــ علما على الذات المقدسة بكامل أسمائها وصفاتها ؛ وكان المراد من النداء الفوز بمقصد خاص وهذا المقصد ينال من الاسم الرب جل جلاله ، قال : (اللهم) ملتجئا إلى الله تعالى مستعينا به رعاية للعلم الذى خص به عيسى عليه السلام ، ثم قال : (رَبَّنَا) أى :

١- سورة البقرة آية ٢٦٠.

يا مربينا بلطائف إحسانك ، وموجدنا وممدنا ﴿ أَنزِلْ عَلَيْنَا مَآئِدَةً مِّنَ السَّمَاء ﴾ والمائدة سميت مائدة لأنها تمد الآكلين بما عليها من الطعام ، أو أنها مأخوذة من ماده أى : أعانه بما ينفعه ، أى : أنزل لنا طعاماً من السماء ، أى : من حيث لا يتوقع الإنسان أن ينال طعاما ، لتقوم الحجة على الحواريين أن الله سبحانه يطيع عيسى ويستجيب له لأنه عليه السلام عبده ورسوله وقد أطاعه ، وتكون حجة أيضا على عجائب قدرة الله تعالى ﴿ تَكُونُ لَنَا عِيداً لِأَوَّلِنَا وَآخِرِنَا ﴾ أى : نجعل وقت تحقق الأمر ، فإنها نزلت فى يوم أحد فاتخذه أتباع عيسى عيدا لهم ﴿ وَآيَةً مِّنكَ ﴾ أى : دالة على قدرتك سبحانك وصدق رسالة عيسى ومقامه .

﴿ وَارْزُقْنَا ﴾ أى : أدم عطاياك التى هى قوامنا فى ضرورياتنا وكمالياتنا دائمة ميسرة ﴿ وَأَنتَ خَيْرُ الرَّازِقِينَ ﴾ خبر عن عيسى عليه السلام بالحقيقة التى لا مراء فيها ، ومعنى أنت خير الرازقين أى أنه لا رازق إلا أنت ، فإنك تعطى بفضلك وكرمك لا لسبب ولا لعلة ، وتمنع كذلك الأرزاق ، فلا رازق سواك .

وفيما أخبرنا الله عن الحواريين وعن عيسى بيان لما تفضل الله به على الرسل صلوات الله وسلامه عليهم من كمال المعرفة والأدب ، لأن الحواريين قالوا عند طلبهم المائدة من عيسى : (نُرِيدُ أَن نَأْكُلَ مِنهَا ﴾ فقدموا الشهوة الجسمانية على الأعمال الروحانية ، ثم أخروا القسم الروحانى بعد الشهوانى بقولهم : ﴿ وَتَطْمَئِن قُلُوبُنَا ﴾ وأما عيسى عليه السلام فإنه قدم حقوق الروح على الجسم بقوله : ﴿ أَنزِلْ عَلَيْنَا مَآئِدَةً مِّنَ السَّمَاء تَكُونُ لَنَا عِيداً لِّأَوَّلِنَا وَآخِرِنَا وَآيَةً مِّنكَ ﴾ ثم افرد الحق جل جلاله بالقصد فى جميع شئونه دون غيره فقال : (وارزقنا) الرزق الذى يجعلنا نشهدك واحدا أحدا فاعلا مختارا ﴿ وَأَنتَ خَيْرُ الرَّازِقِينَ ﴾ وهذا هو مقام الأدب اللائق بالرسل عليهم الصلاة والسلام ، فالرسل وقع بهم العلم على عين اليقين فشهدوا من الغيب المصون ما لا يشهده غيرهم من الأبدال

والصديقين ، وأهل الإيمان رفعهم الله والذين أوتوا العلم درجات ، وأعلاهم درجة الصديق الأكبر ، والصديقية يتفضل الله بها على من أقامهم خلفاء عنه فى أرضـــه ، وأبدالا لرسله عليهم الصلاة والسلام .

قوله تعالى : قَالَ اللّهُ إِنِّى مُنَزِّلُهَا عَلَيْكُمْ فَمَن يَكْفُرْ بَعْدُ مِنكُمْ فَإِنِّى أُعَذِّبُهُ عَذَابًا لاَّ أُعَذِّبُهُ أَحَدًا مِّنَ الْعَالَمِينَ (١١٥)

﴿ قَالَ اللّهُ إِنِّى مُنَزِّلُهَا عَلَيْكُمْ ﴾ : تأويل هذه الآية الشريفة أن قوله تعالى : ﴿ إِنِّى مُنَزِّلُهَا عَلَيْكُمْ ﴾ إجابة من الله تعالى بسؤال عيسى بن مريم الذى طلبه من ربه ، إجابة لقومه الذين طلبوا منه أن يسأل الله تعالى إنزال مائدة من السماء تقوم بها الحجة على توحيد الله وقدرته ، وعلى صدق عيسى فى دعواه الرســالة ، وفى قوله : ﴿ عَلَيْكُمْ ﴾ إشارة إلى أن الله تعالى أراد إقامة الحجة عليهم ، لأنه تعالى لم يقل : منزلها لكم ، لأن من طلب المعجزة أثبت أنه فى ريبة من صــدق الرســول ويكون طلبه امتحانا لله تعالى فجعل سبحانه استجابته لعيسى بخبره تعالى أنه منزلها عليكم سببا فى وعيد الله تعالى لهم أنه سبحانه يعذبهم عذابا لا يعذبه أحــدا مــن العالمين ، أسأل الله تعالى أن يمنحنا الإيمان بالغيب والتسليم لرســله صــلوات الله وسلامه عليهم .

﴿ فَمَن يَكْفُرْ بَعْدُ مِنكُمْ فَإِنِّى أُعَذِّبُهُ عَذَابًا لاَّ أُعَذِّبُهُ أَحَدًا مِّنَ الْعَــالَمِينَ ﴾ أى : فمن يخالف آداب نزول المائدة بأن يدخر منها ، أو يخون فيهــا أو يشــك بعدها أو يرتاب ، أو يتعدى حدود الله بعد تلك المعجزة الباهرة ، فإن الله يعذبــه عذابا لا يعذبه أحدا من العالمين ، فلما انزلها سبحانه وتعالى ــ وهذا مــا عليــه أكثرية العلماء ــ وقد تواتر أن بعضهم خان فيها ، وادخر بعضهم شيئا منــها ، وارتاب البعض الآخر ، فعذبهم الله تعالى فى الدنيا عذابا لم يعذبه أحدا من عــالم

أهل زمانهم ، وذلك بمسخهم قردة وخنازير ، ولهم عذاب يوم القيامة فوق هـــذا العذاب ، وإن قال بعض العلماء إن الله لم يترلها عليهم لأنهم لما علموا أن الله يعذب من يكفر بعد نزولها بعذاب لا يعذب به أحدا من العالمين تركوا طلبــها ، ولمــن حكم بترولها حجته ، ولمن حكم بعدم نزولها حجته ، وأولى التأويلين تأويل مــن حكم بترولها ، والله أعلم .

قوله تعالى : وَإِذْ قَالَ اللّهُ يَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ أَأَنتَ قُلتَ لِلنَّاسِ اتَّخِــذُونِى وَأُمِّىَ إِلَهَيْنِ مِن دُونِ اللّهِ قَالَ سُبْحَانَكَ مَا يَكُونُ لِى أَنْ أَقُولَ مَا لَيْسَ لِى بِحَقٍّ إِن كُنتُ قُلْتُهُ فَقَدْ عَلِمْتَهُ تَعْلَمُ مَا فِى نَفْسِى وَلاَ أَعْلَمُ مَا فِى نَفْسِكَ إِنَّكَ أَنتَ عَــلاَّمُ الْغُيُوبِ (١١٦)

﴿ وَإِذْ قَالَ اللّهُ يَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ أَأَنتَ قُلتَ لِلنَّاسِ اتَّخِذُونِى وَأُمِّىَ إِلَهَيْنِ مِن دُونِ اللّهِ ﴾ تأويل هذه الآية الشريفة أن سؤال الله تعالى عيسى بن مــريم قــد كان فى الدنيا بعد رفعه إلى السماء بدليل : إذ ، فإن إذ تكون للماضى من الزمان ، ولو كان هذا الكلام يوم القيامة لكان المناسب : إذًا ، والحقيقة أن هــذا الكــلام يكون يوم القيامة بدليل قوله تعالى : ﴿ هَذَا يَوْمُ يَنفَعُ الصَّــادِقِينَ صِــدْقُهُمْ ﴾[1] وللجمع بينهما نقول إن : إذ ، ذكرت كثيرا فى موضع : إذًا ، كما فى قوله تعالى : ﴿ وَلَو تَرَى إِذ فَزِعُواْ ﴾[2] أى : يفزعون ، فوضــعت : إذ ، موضــع : إذا ، وكقول أبى النجم : ثُمَّ جَزَاهُ اللهُ عَنَّا إِذ جَزَى ، والمعنى : إذا جزى ، لأن المــراد الجزاء يوم القيامة ، فَــ : إذ ، هنا بمعنى : إذا وجزى بمعنى : يجزى ، فثبت إذن أن سؤال الله تعالى عيسى يكون يوم القيامة .

١- سورة المائدة آية ١١٩ .

٢- سورة سبأ آية ٥١.

والاستفهام هنا إنكارى ، ومعلوم أن الحق جل جلاله علام الغيوب ، يعلم أن عيسى عليه السلام لم يقل شيئا من ذلك ، لكنه جلا جلاله أراد بالاستفهام تعظيم الأمر ،وإعلام عيسى بأن قومه غيروا من بعده واتخذوه وأمه إلهين من دون الله .

﴿ قَالَ سُبْحَانَكَ مَا يَكُونُ لِى أَنْ أَقُولَ مَا لَيْسَ لِى بِحَقٍّ ﴾ أى : تتريها لك وتقديسا أن يكون لك شريك وولد ، وما أنا فى الحقيقة إلا عبد ذليل خاضع ، وما أمى إلا أمة من إمائك ، وليس من حقى أن أقول للقوم اتخذونى وأمى إلهين من دونك ، وما ليس من حقى كيف أقوله ؟ فلم ينكر عيسى القول و لم يثبته أدبا مع الله ورهبة منه ، فإن عيسى عندما سأله الله هذا السؤال كاد يصعق من الخوف خشية أن يكون قاله .

قوله تعالى مخبرا عن عيسى : ﴿ إِن كُنتُ قُلْتُهُ فَقَدْ عَلِمْتَهُ تَعْلَمُ مَا فِى نَفْسِى وَلاَ أَعْلَمُ مَا فِى نَفْسِكَ إِنَّكَ أَنتَ عَلاَّمُ الْغُيُوبِ ﴾ والمعنى أن عيسى عليه السلام يقول لربه : إنك تعلم ما تخفيه نفسى فيكون علمك بما قتله وما أظهرته أولى ، فلو أنى قلته لعلمتَه سبحانك لأنك تترهت وتعاليت علام الغيوب فلا يخفى عليك شىء من الظاهر ولا من الباطن ، وبهذا القول أظهر عيسى كمال الأدب مع ربه جل جلاله حيث فوض الأمر إليه و لم يحكم على نفسه بالقول ولا قام بنفيه عنه ، وهذا من كمال أدب الأنبياء عليهم الصلاة والسلام مع ربهم ، لأنهم فى أرقى مقامات التفويض ، ثم إنه عليه الصلاة والسلام بعد أن فوض الأمر إلى الله ، قام ببيان حقيقة ما قال لقومه ، وقد أخبرنا الله تعالى عن ذلك فى الآية التالية .

قوله تعالى : مَا قُلتُ لَهُم إلاَّ مَآ أَمَرتَنِى بِهِ أَنِ آعبُدُواْ آللَّهَ رَبِّى وَرَبَّكُم وَكُنتُ عَلَيهِم شَهِيداً مَّا دُمتُ فِيهِم فَلَمَّا تَوَفَّيتَنِى كُنتَ أَنتَ آلرَّقِيبَ عَلَيهِم وَأَنتَ عَلَى كُل شَىءٍ شَهِيدُ (١١٧)

﴿مَا قُلتُ لَهُم إلاَّ مَآ أَمَرتَنِى بِهِ﴾ أى أنه صلوات الله عليه قال لهم ما يجب أن يقوله بصفته عبد الله ورسوله ﴿أَنِ آعبُدُواْ آللَّهَ رَبِّى وَرَبَّكُم﴾ (أَن) هنا تفسيرية ، أى : اعبدوا الله ربى وربكم الذى أوجدنى وأوجدكم وأمدنى وأمدكم بما سخره لنا فى السموات والأرض مما لابد لنا منه وأكمل ، ومعنى (اعبدوا الله)

أى : خصوا الذات المقدسة بالعبادة ، لأن لفظ الجلالة علم على الذات الواجبة الوجود ، و ﴿رَبِّى وَرَبَّكُم﴾ الذى تولانا وربانا وخلقنا وأكرمنا بما هو أهل له لفضله وكرمه .

﴿وَكُنتُ عَلَيهِم شَهِيداً مَّا دُمتُ فِيهِم﴾ بالموعظة الحسنة ، والدعوة إلى الحق والترغيب والترهيب ﴿فَلَمَّا تَوَفَّيتَنِى﴾ أى : فلما رفعتنى إلى السماء بعد أن وفيتنى ما قدرته علىَّ فى الأرض ﴿كُنتَ أَنتَ آلرَّقِيبَ عَلَيهِم﴾ أى : الحفيظ عليهم ، القادر على أن توفقهم لما تحب أو أن تضلهم فتهلكهم ﴿وَأَنتَ عَلَى كُل شَىءٍ شَهِيدُ﴾ أى أنك سبحانك علام الغيوب فلا يخفى عليك شىء ، وأنت الشهيد على جميع ما خلقت ومن خلقت ، أما أنا فعبد ذليل ليس لى أن أشهد إلا على ما رأيته بعينى وسمعته بأذنى ، والأمر مفوض إليك ، وأنا عبدك ورسولك الخاضع لأمرك وإرادتك .

قوله تعالى : إن تُعَذِّبهُم فَإِنَّهُم عِبَادُكَ وَإِن تَغفِر لَهُم فَإِنَّكَ أَنتَ آلعَزِيزُ آلحَكِيمُ ١١٨)

﴿ إِن تُعَذِّبْهُم فَإِنَّهُم عِبَادُكَ ﴾ أى : إن تعذب القوم الذين اتخذونى وأمى إلهين من دونك سبحانك فإنهم عبادك ، أى : هم العبيد المقهورون تقهرهم بقهرك سبحانك ، والعباد المربوبون بربوبيتك جل جلالك ، فإن شئت أن تعذبهم إن ماتوا على الكفر و لم يتوبوا عن كفرهم .

﴿ وَإِن تَغفِر لَهُم فَإِنَّكَ أَنتَ آلعَزِيزُ آلحَكِيمُ ﴾ أى : وإن كانوا تابوا عما قالوه من الكفر وقبلت توبتهم فتغفر لهم فإنك أنت العزيز الحكيم ، أى : شديد الانتقام والقهر ، الحكيم فى أمرك وإرادتك ، فلا تحكم بأمر إلا وفى طيه أنواع من الحكمة الدالة على خفى لطفك .

وفى هذه الآية إشارة إلى أن هذا الكلام يكون يوم القيامة ، فإن الخليل عليه الصلاة والسلام قال : ﴿ فَمَن تَبِعَنِى فَإِنَّهُ مِنِّى وَمَن عَصَانِى فَإِنَّكَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾[1] فعيسى عليه السلام تأدب مع الله كمال الأدب ، ولو قال فإنك غفور رحيم لكان ذلك عن ضعف لا عن عزة وحكمة ، بخلاف قول الخليل فإنه فى الدنيا ، والدنيا واسعة تقبل فيها التوبة ، أما الآخرة فإنها مظهر جلاله الأكبر وجماله الأكمل ، فقول عيسى عليه السلام : ﴿ وَإِن تَغفِر لَهُم فَإِنَّكَ أَنتَ آلعَزِيزُ آلحَكِيمُ ﴾ رعاية مقتضى الحال ، والمعنى : إنك إن غفرت لهم يوم القيامة فتكون مغفرتك لهم عن عزة قائمة وحكمة عالية لا عن ضعف واحتياج ، وفى هذا المقام تكون المغفرة فضلا عظيما من الله تعالى .

١- سورة إبراهيم آية ٣٦.

قوله تعالى : قَالَ ٱللَّهُ هَـٰذَا يَوۡمُ يَنفَعُ ٱلصَّـٰدِقِينَ صِدۡقُهُمۡ لَهُمۡ جَنَّـٰتٌ تَجۡرِى مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَـٰرُ خَـٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا رَّضِىَ ٱللَّهُ عَنۡهُمۡ وَرَضُواْ عَنۡهُ ذَٲلِكَ ٱلۡفَوۡزُ ٱلۡعَظِيمُ (١١٩)

﴿ قَالَ ٱللَّهُ هَـٰذَا يَوۡمُ يَنفَعُ ٱلصَّـٰدِقِينَ صِدۡقُهُمۡ ﴾ هذه الآية الشريفة خبر من الله تعالى يبين لنا فيه أنه سبحانه وضع الأسباب بحكمة اقتضتها كمالات أسمائه وصفاته ، و لم تقتضها ضرورة ملحة ولا علة باعثة لأنه تنزهت ذاته العلية عن العلة والسبب ، فوضع جل جلاله فيما وضع من الأسباب أن الصدق فى العقيدة والهمة فى العمل والاختبار القلبى ينفع أهله يوم القيامة ، فهذه الآية الشريفة حجة وجذبة ، أما حجة فلأن خبر الله تعالى بالوعد لا يخلفه ، وإن أخلف وعيده فى الخبر ، وجذبة لأن أهل الإرادة تتضح لهم المحجة بمعنى هذه الآية الشريفة فتقوى بواعث الصدق عندهم ، حتى يكون حالهم المراقبة بعد المحاسبة ثم المشاهدة ، فيكون الحق سبحانه معالم بين أعينهم لا يغيبون إذا غاب أهل الغفلة ، ولا يحجبون عن شهود آيات الله المنبلجة فى الكائنات الدالات على كمال التنزيه والتفريد ، والإشارة عائدة إلى يوم القيامة ﴿ يَوۡمُ يَنفَعُ ٱلصَّـٰدِقِينَ صِدۡقُهُمۡ ﴾ بما وضعه الله تعالى من الأسباب التى يكون بها النافع فى الحقيقة هو الله تعالى ، لأنه الواضع للأسباب والأواسط المسببة لها ، وهنا تتشوق الأرواح الطاهرة إلى معرفة ما لهؤلاء الصادقين من جزاء عند ربهم فقال سبحانه مطمئنا لقلوبهم : ﴿ لَهُمۡ جَنَّـٰتٌ تَجۡرِى مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَـٰرُ خَـٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا ﴾ هذه الآية بشرى من الله تعالى لأهل الصدق معه سبحانه ، لأن ذكر الموت أو الفناء بعد الفوز بهذا النعيم الذى لم تسمعه آذان و لم تره الأعين و لم يخطر على قلب بشر يحزن من تمتع بهذا النعيم ، وليتم الله تعالى سرور أهل الصدق بهذا المقام العظيم بشرهم بالخلود فيه ، ولما كان الخلود فحسب ربما يعتوره شيء من شوب ذكر الموت والفناء أزال الله عن قلوبنا ما ربما يلم بها فقال

سبحانه : ﴿ أَبَدًا ﴾ ثم بين جل شأنه سبب هذا الخلود الأبدى بقوله تعـــالى : ﴿ رَّضِيَ ٱللَّهُ عَنۡهُمۡ وَرَضُواْ عَنۡهُ ﴾ والرضا عند أهل العلم بالله هو برد القلـــب عنـــد نزول مر القضاء فرحا بقدر الله تعالى ، وهذا مقام قد يبلغ الرجال الولاية الكبرى ومع ذلك يحرمون منه لأنه من مقامات كمل الصديقين ، وقد أخبرنا الله تعالى أنه رضى عن أصحاب رسول الله ﴿ ﷺ وآله﴾ وأرضاهم عنه بعد ذكر ما قاموا به لله ولرسوله ﴿ ﷺ وآله﴾ ، وذكر الرضا بعد الجنات التى تجرى من تحتها الأنهار فيـــه بيان لعلو مقام الرضا عند الله تعالى .

﴿ ذَٰلِكَ ٱلۡفَوۡزُ ٱلۡعَظِيمُ ﴾ الإشارة عائدة إلى ما أخبرنا الله عنه من إحسانه لعباده الصادقين أى : هو العطاء العظيم ، وفى قوله : ﴿ ٱلۡفَوۡزُ ٱلۡعَظِيمُ ﴾ دليـــل على أن العبارة لاتفى بقدره ، ولكنا نؤمن ونسلم لله خبره ، ونكل مقداره وهيئته لله جل جلاله ، حتى إذا تفضل ومنحنا هذه الأفضال العظيمة يمكننا أن ندركها ، ولكنا نسأل الله تعالى أن يعيننا على شكره ، وأن يجعلنا من أهل هذا المقام عنـــده سبحانه .

قوله تعالى : لِلَّهِ مُلۡكُ ٱلسَّمَٰوَاتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَمَا فِيهِنَّ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرُۢ (١٢٠)

هذه الآية الشريفة حجة قائمة على أن السموات والأرض وما فـــيهن لله تعالى إيجادا وملكا وتصريفا ، وعيسى عليه السلام وأمه مملوكان لله ، مخلوقان له ، مقهوران بقهره ضمن من فى السموات ومن فى الأرض ، ودعوى النصـــارى أن عيسى قال لهم أنا وأمى إلهان من دون الله دعوى باطلة كاذبة بدليل الحس والعيان ، وعيسى وأمه لا يخرجان عن كونهما عبدين لله عابدين له سبحانه ، ليس لهمـــا أدنى تصريف فى الأرض ولا فى السماء ، وكون عيسى خلق من غير أب لا تقـــوم

به حجة على أنه إله من دون الله ، فإن الله خلق أنواع ملكوته الأعلى وعالم لاهوته وجبروته وعالم أعلى وعليين من لا شيء ، وهى كلها مخلوقة مقهورة لله ، وآدم عليه السلام فى خلقه أعجب من عيسى ، لأن آدم أبوه وأمه الطين ، وعيسى أمه مريم ، وأبوه جبريل ، لأن الله تعالى أرسله فنفخ فيها من روحه فكان سببا قائما كقيام الوالد للولد . وبعيد جدا أن يكون عيسى قد قال .

أنا وأمى إلهان من دون الله ، ولكن الشيطان ـــ أخزاه الله ـــ بعد رفع عيسى أتى لمن فر من حوارييه فخدعهم حتى اتبعوه فى أن أباه هو الله كما قدمت لك ، وكم خدع رجالا فأفسد عليهم عقيدهم وعبادهم ، ومن كان له ملك السموات والأرض وما فيهن تفرد سبحانه بالألوهة ، وصار كل ما سواه ومن سواه مقهورين بقهره تعالى ، وقد ختم الله تلك السورة بهذه الآية تقريرا لحقائق التوحيد ، كما افتتحها بأمر المؤمنين بالوفاء بالعقود ، ومن ضمن تلك العقود عقد يوم ((ألست)) الذى يقول الله تعالى فيه : ﴿ أَن تَقُولُواْ يَومَ ٱلقِيَامَةِ إِنَّا كُنَّا عَن هَذَا غَافِلِينَ أَو تَقُولُواْ إِنَّمَا أَشرَكَ ءَبَآؤُونَا مِن قَبلُ وَكُنَّا ذُرِّيَّةً مِن بَعدِهِم ﴾[١] .

نسأل الله أن يمنحنا الفقه فى كتابه ويوفقنا للعمل بمحابه ومراضيه ، إنه مجيب الدعاء .

١- سورة الأعراف آية ١٧٢ ـــ ١٧٣ .

سورة الأنعام

بسم الله الرحمن الرحيم

قوله تعالى : ٱلحَمدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَوَاتِ وَٱلأَرضَ وَجَعَلَ ٱلظُّلُمَـــتِ وَٱلنُّورَ ثُمَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِرَبِّهِم يَعدِلُونَ (١)

هذه السورة الكريمة نزلت دفعة واحدة فى مكة إلا ست آيات منها نزلت فى المدينة ، و لم تنزل سورة بتمامها على النبى ﴿ ﷺ وآله﴾ إلا هذه السورة ، لأنها جمعت أصول الدين ، وما يتعلق بالعقيدة والآداب وبيان الغيب المصـــون ، فـــدل ذلك على أن أول علم مقدم من علوم الدين هو علم الأصول ، فيكون فرضا على كل مسلم ومسلمة .

﴿ ٱلحَمدُ لِلَّهِ ﴾ سبق الكلام عليها فى سورة الفاتحة ، ولكننا لا نخلى هذا الموضع من بيان فيه مزيد ، فمن المعلوم أن المدح أعم من الحمد ، والحمد أعم من الشكر ، لأن المدح قد يكون للعاقل وغيره ، فإنك قد تمدح بعض الجواهر الكريمة لما اختصت به من الصفاء وسطوع اللون واللطف ، وقد تمدح بعض الحيوانات لما امتازت به من جمال الهيئة والتكوين ، ومن قبول التدريب والتأديب ، وكما تمدح أهل صفات الكرم والعفة والشجاعة . وَٱلحَمدُ خاص للإِله العظيم لما يتفضل به من النعم اختيارا ، وعمومه على الشكر أتى من جهة أن المحمود قد يتفضل بســوابغ النعم الجميلة على الحامد أو على غيره ، فهو عام من تلك الجهة ، والشـــكر هـــو تعظيم من أسبغ نعمة على الشاكر فقط ، و (الـــ) هنا للاستغراق فى الحمـــد ، بمعنى أن حقيقة أنواع الحمد ثابتة لله تعالى ، لأن الأسماء والصفات الـــتى تفـــيض بالخيرات الموجبة للحمد ثابتة لله فلا يحمد فى السراء والضراء سواه .

وفى قوله تعالى ﴿ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَوَاتِ وَٱلأَرضَ ﴾ بيان لحكمة استحقاقه للحمد جل جلاله ، وجمع السموات لكثرة طبقاتها وأفلاكها الثابتة والسيارة وقدمها فى الخلق ، ولما جمع فيها سبحانه وتعالى من الخيرات التى يفيضها على الأرض وما فيها ومن فيها ، وما من كوكب فى السماء إلا وهو خاص بخير ينتفع به أهل الأرض ، ولهذا قال تعالى : ﴿ وَفِى ٱلسَّمَآءِ رِزقُكُم وَمَا تُوعَدُونَ ﴾[1] كما أن فى خلق السموات والأرض حجة بالغة على أنه سبحانه إله واحد وخالق منفرد بإيجاد الخلق والأمر ، وفى ذلك من النعم ما لا يحصى والمنن التى لا تستقصى مما يوجب على الخلق تفريده بالحمد جل جلاله ، واختصاصه بالعبادة دون غيره من خلقه ، فما فى الوجود من شىء أو شأن إلا وهو من خلقه وأمره .

﴿ وَجَعَلَ ٱلظُّلُمَتِ وَٱلنُّورَ ﴾ وجعل ــ هنا ــ بمعنى : صيَّر ، وَٱلظُّلُمَات : لياليها ، وَٱلنُّور : نهارها ، وجائز أن تكون الظلمة هى العدم والنور هو الوجود ، وهذه هى صيغة الحمد التى يقبلها الرب من العبد وفاء لحقه جل جلاله ، لأن الله كلفنا بأن نحمده على نعماه فعجزنا عن القيام بالحمد ، فحمد جل جلاله ذاته بصيغة رضيها لنفسه وقبلها منا سبحانه وتعالى ، وأما حقيقة الحمد فلا يستطيع القيام بها مخلوق على الإطلاق ، وفى قوله : ﴿ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَوَاتِ وَٱلأَرضَ ﴾ إعلام بوجوب الحمد علينا شرعا وعقلا ، لأن تفضله علينا بالإيجاد والإمداد نعم تعجز العقول عن حمده تعالى عليها ، قال ﴿ ﷺ وآله﴾ : ((ثَمَنُ ٱلجَنَّةِ : لاَ إِلَهَ إِلاَّ ٱللَّهُ ، وَثَمَنُ ٱلنَّعمةِ : ٱلحَمدُ لِلَّهِ)) فمن قال : لا إله إلا الله محمد رسول الله ، دفع ثمن الجنة ، ومن قال : الحمد لله ، دفع ثمن النعمة .

١- سورة الذاريات آية ٢٢ .

﴿ ثُمَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِرَبِّهِم يَعدِلُونَ ﴾ جاءت هذه الآية الشريفة بعـــد مـــا تقدم من ذكر الدلائل الساطعة على كمال قدرة الله وتوحيده وتتريهه عن الضـــد والند والولد والشريك ، وأنزلها الله تعالى ليتعجب عباد الله المؤمنون من أهل الكفر بالله والملحدين ، الذين يضعون مخلوقا فى مكانة الخالق ، وكان بعـــض الخـــوارج يؤولها أنها نزلت فى أهل الإيمان الذين اختلفوا من الصحابة ، وهذا من الجهل البين ، وقد تأولها بعضهم أنها نزلت فى أهل الكتاب ، ولكن لم يرد نص صريح يفيـــد ذلك ، وأولى التأويل لهذه الآية أنها نزلت تشنيعا على كل كافر بالله من اليهـــود والنصارى وعبدة الأوثان والدهريين والفلاسفة وكل من جعل لله مساويا من خلقه ، أو ضدا أو ندا أو شريكا له فى ملكه .

وهذا التأويل أولى ، خصوصا بعد أن بين الله تعالى لنا فى الآيات الســـابقة أنه جل جلاله خلق السموات والأرض وجعل الظلمات والنـــور ، ومـــن جعلـــه السموات منسقة أفلاكها منتظمة مداراتها وبروجها ، وأفاض الخير ممـــا جمعـــه فى سمواته على الأرض من أنوار وأمطار ورياح ، جمع فيها حكما وآيات وبـــراهين قاصمات لظهور أهل الكفر بالله تعالى ، مما دل على عظمته وكبريائه وقدرتـــه ، وأنه جلا جلاله هو القادر الحكيم ، الذى خلق الأرض وكتر فيها من أنواع المعادن والعناصر المختلفة ، وجعل فيها من أنواع النباتات والبحار والأنهار والجبال ، وزين سطحها بأنواع الحيوانات ، وبحارها وأنهارها بالأسماك ، وأوديتها وفيافيها ونجدها وبطحاءها بالطيور والحيوانات ، وصرف فى الأجواء والأرجاء النسيم العليل الذى به حياة كل حيوان ونبات ، وفوقه الهواء الذى به يطهر وجه الأرض مما عليه مـــن الفضلات ، ولحمل السحب إلى حيث يشاء الله بما تحمله من الماء العذب ، وأودع فى السموات والأرض خزائن خيراته لعباده .

إن الله خلق هذا الخلق العظيم وجعله مسخرا لبنى الإنسان ، وأقام الدلائل الواضحات والحجج البينات على أن كل من فى السموات والأرض عبيد له جل جلاله ، بما أقامه من الدلائل عامة ، وحياة الأناسى خاصة ، وبقائهم زمنا محدودا وتغيرهم فى مدة بقائهم ، ثم يفنون فناء العبيد المقهورين ، كيف يكون منهم من يشابه ربنا جل جلاله ؟ كيف يعدلون به سبحانه ؟ ولو استعمل الإنسان عقله بعد تجرده من العلة والغرض والحظ والهوى لا تضح له أن السموات والأرض وما فيهن ومن فيهن مخلوقات لله ، مقهورات بقهره جل جلاله ، فكيف يعدلون بربهم شيئا مما حكمت عليه حقيقتة بالحدوث والفناء ؟ .

قوله تعالى : هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن طِينٍ ثُمَّ قَضَىٰ أَجَلاً وَأَجَلٌ مُّسَمًّى عِندَهُۥ ثُمَّ أَنتُم تَمتَرُونَ (٢)

هذه الآية حجة بعد حجة على تفرد الله تعالى بالألوهية وإيجاد من سواه وما سواه ، لأن المخلوق من الطين قامت عليه الحجة أنه أضعف الخلق أجمعين ، قال الله تعالى : ﴿ لَخَلقُ ٱلسَّمَوَاتِ وَٱلأَرضِ أَكبَرُ مِنَ خَلَقِ النَّاسِ ولكنَّ أَكثَرَ النَّاسِ لَا يَعلَمُونَ ﴾(١).

﴿ هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن طِينٍ ﴾ ومعنى خلقكم من طين ، أى : خلق أصلكم الذى هو آدم من طين ، وأنتم مخلوقون أصلا من طين ، ومن تذكر ذكر ، ومن ذكر حضر فحفظ لنفسه قدرها ، ولزم أعتاب العبودية ، وسارع إلى القيام بالشكر على تلك النعم التى لا تحصى ، وإذا كان آدم مخلوقا من الطين ، وكنا نحن لم نشهد خلقه من الطين ، فإن الله سبحانه وتعالى حفظ لنا هذا المثل الأعلى فى

١- سورة غافر آية ٥٧.

أنفسنا فخلقنا من ماء مهين يجرى فى مجرى البول مرتين ، وكفى بذلك خسة ودناءة لو تدبر أهل الكفر بالله ، وأهل الغفلة عن المبتدأ والمنتهى ، فإن المبتدأ ماء مهين جرى فى مجرى البول مرتين ، والمنتهى جيفة قذرة تتحلل فى الطين ، ومن علم المبتدأ والمنتهى وتيقن أن المرجع إلى ربنا جل جلاله تأدب بما ينبغى أن يتأدب به العبد لسيده .

﴿ ثُمَّ قَضَى أَجَلاً ﴾ أما الأجل الذى قضاه فيبتدىء من وضع النطفة المخلقة فى الرحم وتنقلها فى أدوارها الآدمية والبشرية على ساعة الموت ، وهذا الأجل الذى قضاه .

﴿ وَأَجَلٌ مُّسَمًّى عِندَهُ ﴾ الأجل المسمى عنده يبدأ من ساعة الموت إلى يوم القيامة ، الأجل الأول معلوم لنا ، وأما الأجل المسمى عنده فلا يعلمه إلا الله تعالى ، فإن عمر البرزخ مجهول انفرد بعلمه الله تعالى ، وهذا التأويل أولى ، وفى قوله تعالى : ﴿ عِندَهُ ﴾ أى : فى غيب قدره .

﴿ ثُمَّ أَنتُم تَمتَرُونَ ﴾ أى : ثم أنتم أيها الناس ـــ الذين لم يقع بهم العلم على اليقين و لم يقو إيمانهم بالغيب ـــ تشكون فى تفردنا بالألوهة دون غيرنا بعد أن ثبت أننا خلقنا جدكم الأول من طين ، ومنه ولدتم فأنتم فى الحقيقة ممن هو من طين ، وتشكون فى أنه جل جلاله قدر لكم أجلين بخلاف غيركم من أنواع الحيوانات ، فإن لها أجلا واحدا ، وقد بينت الأجلين فيما تقدم ، ومن شك بعد أن بيان الله تعالى فيما بينه من دلائل تجلى كمال قدرته وحكمته وعلو كمال علمه بالجزئيات والكليات ، فهو رغم كونه إنسانا لكنه أضل من الأنعام وأشر من إبليس

قوله تعالى : وَهُوَ ٱللَّهُ فِى ٱلسَّمَوَاتِ وَفِى ٱلأَرضِ يَعْلَمُ سِرَّكُم وَجَهرَكُمُ وَيَعْلَمُ مَا تَكْسِبُونَ (٣)

هذه الآية الشريفة حجة أخرى قصمت ظهور أهل الكفر بالله وأهل الفسق وأهل الشك والريب ممن يحكمون على الله تعالى فيجعلون علم الله كعلمهم ، ويعتقدون أن الله تتره وتعالى لا يعلم الجزئيات لأن علمه بالجزئيات يقتضى حدوث العلم ، فهو لا يعلم المطيع من العاصى على دعواهم الباطلة ، وإذا جهل المطيع والعاصى كيف يثيب ويعاقب ؟ إذن فلا قيامة تقوم ، وهذا هو الكفر الصراح ، فأقام الحجة عليهم بقوله :

﴿ وَهُوَ ٱللَّهُ فِى ٱلسَّمَوَاتِ وَفِى ٱلأَرضِ يَعْلَمُ سِرَّكُم وَجَهرَكُمُ ﴾ أى : ليس فى السموات والأرض إلا آثار قدرته وحكمته التى خصصتها إرادته من حضرة علمه ، فهو سبحانه وتعالى يعلم الكليات ظاهرها وباطنها ، والجزئيات صغيرها وكبيرها ، وما هو أخفى من ذلك ، لأن أسماءه وصفاته هى المتجلية فى كافة مخلوقاته ﴿ مَا يَكُونُ مِن نَّجوَى ثَلاثَةٍ إِلاَّ هُوَ رَابِعُهُم وَلاَ خَمسَةٍ إِلاَّ هُوَ سَادِسُهُم وَلاَ أَدنَى مِن ذَلِكَ وَلآ أَكثَرَ إِلاَّ هُوَ مَعَهُم أَينَ مَا كَانُوا ثُمَّ يُنَبِّئُهُم بِمَا عَمِلُوا يَومَ ٱلقِيَامَةِ إِنَّ ٱللَّهَ بِكُلِ شَىءٍ عَلِيمٌ ﴾[1] ، ويعلم ما توسوس به النفوس ، ويعلم عدد ذرات الأجرام العظام ، ويعلم عدد مثاقيلها بالموازين ، ويعلم خواصها قبل إيجادها فى الأعيان الظاهرة ، ويعلمها على ما هى عليه الآن وفى كل نفَس وَأقل ، ويعلم أدوارها وتنقلاها وحركاها وسكناها ، ومن ضمن ذلك يعلم سركم وجهركم ، والسر هو الذى لا تحس به الجوارح ، والجهر ما يبرز عن الجوارح .

﴿ وَيَعْلَمُ مَا تَكْسِبُونَ ﴾ أى : ما تعلمه جوارحكم مما هو من كسبكم فقد يكون لكم خيرا فى الدنيا والآخرة ما كان من طاعة الله تعالى ، وقد يكون خيرا فى الدنيا بحسب نظركم ومألوفكم وشرا يوم القيامة بالعقوبة عليه والعذاب ، وكما

١- سورة المجادلة آية ٧ .

يكون خيرا فى الدنيا والآخرة ، قد يكون شرا فى الدنيا والآخرة لتعجيل عقوبة الله وتأجيل عقوبته عليه إلى يوم القيامة ، ونطوى بساط معنى تلك الآية حتى تسمعها آذان الأرواح ، أدبا مع الله تعالى ، وحفظا للعقول .

قوله تعالى : وَمَا تَأْتِيهِم مِّنْ آيَةٍ مِّنْ آيَاتِ رَبِّهِمْ إِلاَّ كَانُواْ عَنْهَا مُعْرِضِينَ (٤)

هذه الآية الشريفة دلت على غلوهم فى العدول بربهم ، واتخاذهم من خلقهم من طين مساوين له وأندادا ، وعلى فريتهم ومريتهم وافترائهم بسوء الظن والشك والريب ، وحجة ذلك أنهم كلما أقام الله تعالى بينهم رسولا يدعوهم إلى الحق ويدلهم على سبيل السعادتين ، ويبين لهم ما نزَّله الله إليه ليبينه لهم ، أعرضوا عنه وجحدوا وأنكروا ، وفى الآية نفى وإثبات بأسلوب القصر ، فحكم الله عليهم بأنهم مقصورون على الإعراض عن قبول ما يتفضل الله به عليهم على ألسنة رسله ، لخبث طباعهم ، ونجاسة نفوسهم التى سجل القضاء عليها أنها لا تقبل عن الله شيئا ، قال تعالى : ﴿ قُلْ إِنَّ هُدَى ٱللهِ هُوَ ٱلْهُدَى ﴾[1] .

قوله تعالى : فَقَدْ كَذَّبُواْ بِٱلْحَقِّ لَمَّا جَآءَهُمْ فَسَوْفَ يَأْتِيهِمْ أَنبَؤُاْ مَا كَانُواْ بِهِ يَسْتَهْزِءُونَ (٥)

الفاء هنا فاء الفصيحة عن جواب شرط مقدر تقديره : إذا ثبت عليهم ذلك فيما مضى ﴿ فَقَدْ كَذَّبُواْ بِٱلْحَقِّ لَمَّا جَآءَهُمْ ﴾ والحق هنا هو القرآن ومحمد ﴿ ﷺ وآله ﴾ ، فإن القرآن حق ، ومحمد ﴿ ﷺ وآله ﴾ حق ، لأنا إذا قلنا : القرآن حق ، ثبت أن محمدا ﴿ ﷺ وآله ﴾ حق لأنه جاء به ، وإن قلنا : محمد ﴿ ﷺ وآله ﴾ حق ، ثبت أن القرآن حق لأنه أنزل عليه .

١- سورة البقرة آية ١٢٠ .

﴿ فَسَوفَ يَأتِيهِم أَنبؤُاْ مَا كَانُواْ بِهِ يَستَهزِءُونَ ﴾ أى : فسيمهلهم الله تعالى استدراجا لهم لينفذ ما قدره سبحانه عليهم من الضلالة والغواية ، ثم تأتيهم أنباء ما كانوا به يستهزئون فى الدنيا بضرب الجزية عليهم أو خزيهم بالرق ، وفى الآخرة بالعذاب الأليم ليذوقوا وبال أمرهم .

قوله تعالى : أَلَم يَرَواْ كَم أَهلَكنَا مِن قَبلِهِم مِن قَرنٍ مَّكَّنَّهُمْ فِى آلأَرضِ مَا لَم نُمَكّن لَّكُم وَأَرسَلنَا آلسَّمَآءَ عَلَيهِم مِّدرَاراً وَجَعَلنَا آلأَنهَرَ تَجرِى مِن تَحتِهِم فَأَهلَكنَهُم بِذُنُوبِهِم وَأَنشَأنَا مِن بَعدِهِم قَرناً أَخَرِينَ (٦)

﴿ أَلَم يَرَواْ كَم أَهلَكنَا مِن قَبلِهِم ﴾ تأويل هذه الآية الشريفة أن الله تعالى يشير إلى أهل مكة الذين كذبوا رسول الله ﴿ ﷺ وآله﴾ بقوله ـــ ما معناه ـــ ألم ير أهل مكة كم أهلكنا ، أى : كثير من قبلهم ﴿ مِن قَرنٍ ﴾ و (من) هنا فى مقام النفى للعموم ، والقرن هو مدة اقتران جماعة من بدايتهم إلى موتهم ، وقدره بعضهم بسبعين سنة أو ثمانين سنة ، والقرن كما بينت لك قد يكون أكبر وقد يكون أقل بحسب عمر من اقترنوا ببعضهم .

﴿ مَّكَّنَّهُمْ فِى آلأَرضِ ﴾ أى : جعلنا لهم مكينا فى أماكن تيسر ضرورياتهم وكمالياتهم فى الحياة ، لأن اللفظ وإن دل على المكان ففى طيه تيسير الكماليات بملاحظة التمكين ، وقوله تعالى : ﴿ مَا لَم نُمَكّن لَّكُم ﴾ فيه العدول عن الغيبة إلى الخطاب مقتضى سياق الخبر الملحوظة فيه : قل يا محمد عليه الصلاة والسلام ـــ وفى هذا السياق ـــ ألم تروا ، وألم يروا ، ومكنا لهم ، ومكنا لكم ، وهى اللغة الفصحى ، والمخاطب هم الذين أخبرنا الله عنهم بسياق الغيبة وهم أهل مكة الذين كذبوا رسول الله ﴿ ﷺ وآله﴾ ، ثم بين هذا التمكين فى الأرض بقوله : ﴿ وَأَرسَلنَا آلسَّمَآءَ عَلَيهِم مِّدرَاراً ﴾ والمراد بالسماء هنا السحاب ، ويكون المدرار

صفة للسحب ، وجائز أن يكون صفة للمطر الذى أنزله الله من السحاب ، والمدرار مأخوذ من الدر وهو نزول المطر الوفير الذى ينتظره أهل مكة ، فإن إنزال المطر المدرار يحيى الأرض بعد موتها فيكثر الزرع والضرع والثمار والفاكهة ، وإنزال الأمطار إنما ينتفع بها بعد انتهاء نزولها ، ولما كان فضل الله العظيم لا ينقطع عن خلقه بين ذلك بقوله : ﴿ وَجَعَلْنَا ٱلْأَنْهَرَ تَجرِى مِن تَحتِهِم ﴾ أى : تحت أشجارهم ومزروعاتهم ، ليدوم فضل الله عليهم ينتفعون به متى شاءوا ، ولا أنفع للعالم من ألأمطار والأنهار ، فإن الأمطار والأنهار بها زهرة الحياة الدنيا ، فتكثر البساتين والحدائق والغياض والرياض التى تطيب بها الحياة .

﴿ فَأَهلَكنَهُم بِذُنُوبِهِم ﴾ والهلاك هو الموت ، ولكنه فى هذا المقام بالنسبة لقوله تعالى : ﴿ بِذُنُوبِهِم ﴾ خسف بهم الأرض كما فعل بقوم لوط ، أو أغرقهم كما فعل بقوم نوح ، أو أهلكهم بطير أبابيل ، أو سلط عليهم الجراد والقمل والضفدع آيات مفصلات لمن كفروا بالله وبرسله ، أما الموت حيث هو فليس بمقصود هنا ، إنما المقصود بسلب ما تفضل الله به عليهم ، ﴿ وَأَنشَأنَا مِن بَعدِهِم قَرناً أَخَرِينَ ﴾ وكما بينا فى الإهلاك نبين فى هذه الآية ، إن الله ينشىء فى كل حال قرونا متعاقبة ، ولكن الإنشاء هنا دليل على قدرة الله تعالى ، وإن كفر الأمم وجحودهم لا يضر الله شيئا ، بل وإيمانهم وأعمالهم الصالحة لا تنفع الله بشىء ، فهو جل جلاله .

الضار النافع ، وما هلك من هلك إلا بكفره ومعصيته لله تعالى ، وما فاز من فاز إلا بمسارعته إلى محاب الله ومراضيه سبحانه ، قال تعالى : ﴿ مَن يَهدِ ٱللَّهُ فَهُوَ ٱلْمُهتَد وَمَن يُضلل فَلَن تَجدَ لَهُ وليًّا مُّرشداً ﴾[1] .

١- سورة الكهف آية ١٧ .

قال تعالى : وَلَو نَزَّلنَا عَلَيكَ كِتَباً فِى قِرطَاسٍ فَلَمَسُوهُ بِأَيدِيهِم لَقَالَ آلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِن هَذَآ إِلاَّ سِحرٌ مُّبِينٌ (٧)

﴿ وَلَو نَزَّلنَا عَلَيكَ كِتَباً فِى قِرطَاسٍ فَلَمَسُوهُ بِأَيدِيهِم لَقَالَ آلَّذِينَ كَفَرُواْ ﴾ يطمئن الله تعالى قلب نبيه محمد ﴿ ﷺ وآله﴾ ـــ رحمة من الله به لما كان يعتوره من الحزن على من كان يكذبه من أهل الكفر بالله تعالى ـــ مبينا له صلوات الله وسلامه عليه ، أن أهل الكفر بالله لا يعقلون عن الله ولا عن أنبيائه عليهم السلام شيئا مهما كانت الآية ، حتى ولو بلغت أن تكون محسوسة ملموسة ، لأن الله سجل عليهم الكفر به سبحانه ، وتكذيب أنبيائه عليهم السلام .

ومعنى هذه الآية الشريفة أن الله تعالى يقول لحبيبه محمد ﴿ ﷺ وآله﴾ : إن هؤلاء الكفار من أهل مكة بلغ بهم الكفر والجحود مبلغا جعل قلوبهم مقفلة ، وبصائرهم وأبصارهم فى عمى عن تدبر آيات الله تعالى ، حتى بلغ بهم الحال أن الله تعالى لو أنزل عليهم كتابا من السماء محسوسا ملموسا لتأولوه ، كما تأول إبليس الرجيم عند أمر الله تعالى له بالسجود ، ولقالوا : ﴿ إِن هَذَآ إِلاَّ سِحرٌ مُّبِينٌ ﴾ وذلك كفرا بالله تعالى وتكذيبا لك ، وَلَو : حرف امتناع ، والامتناع ينفى المثبت ويثبت المنفى ، فيكون المعنى : إذا أنزلنا عليك كتابا فى قرطاس عيانا بيانا لقالوا : هذا سحر مبين ، وما قالوا بعد إنزاله ، ولكنهم ـــ قبحهم الله تعالى ـــ لو حصل إنزاله لقالوا ، وخبر الله حق ، لأن النفوس العنادية هى أشر النفوس ، وإنما يسلم لله ولرسوله﴿ ﷺ وآله﴾ ولأهل العلم بالله من صاغ الله جواهر نفوسهم من نور جماله سبحانه ، وقد تقدم الكلام على معنى السحر ، ومُبِينٌ أى : بين .

قوله تعالى : وَقَالُواْ لَولاَ أُنزِلَ عَلَيهِ مَلَكٌ وَلَو أَنزَلنَا مَلَكاً لَّقُضِىَ آلأَمرُ ثُمَّ لاَ يُنظَرُونَ (٨)

﴿ وَقَالُواْ لَولاَ أُنزِلَ عَلَيْهِ مَلَكُ ﴾ معلوم أن ﴿ لَــولاَ ﴾ حــرف امتنــاع لوجود سبب عدم إيمانهم بالإسلام لامتناع نزول ملك على محمد ﴿ ﷺ وآلــه﴾ ، والحال أننا لو أنزلنا ملكا لقضى الأمر ، أى : لانتهى دور الكون والنشــأة الأولى التى جعلناها دار ابتلاء وتكليف وتعريف ، وأوجبنا فيها الإيمان بالغيب بعد قيــام الحجة بالمعجزة ، ووضوح المحجة بالأيات التى أعجزت العقل ، ولا يشهد الملائكة إلا من زكت نفسه وطهرت من شوب الشرك الخفى ودرن مقتضيات العناصــر ، أو صيغت جواهر نفوسهم من أصفى الجواهر النورانيــة كالرســل صــلوات الله وسلامه عليهم ، وأبدالهم رضى الله عنهم الذين منحهم الله نورا فى قلوبهم يقدرون به على مواجهة الملائكة وعلى التلقى منهم وحيا أو إلهاما ، كما بــين الحــديث الصحيح مراتب الوحى .

ومعنى هذه الآية أن عُبَّاد الأوثان الذين يعدلون بالله ، وأهل الجحود بآيات الله ، وأهل الكفر بالله تعالى من أهل الملل والنحل المضلة ــ بعد ما تقدم من تشنيع الله تعالى عليهم بأنهم عدلوا به وشكوا فيه سبحانه وأعرضوا عن رســوله محمــد ﴿ ﷺ وآله﴾ استهزاء بما جاءهم ــ غالوا فى كفرهم فقالوا : ﴿ لَولاَ أُنزِلَ عَلَيْــهِ مَلَكُ ﴾ ، وكم قالوا ما هو أشر من ذلك فقد قالوا ما أخبرنا به الله عنهم بقوله : ﴿ وَقَالَواْ لَن نُّؤمِنَ لَكَ حَتَّى تَفجُرَ لَنَا مِنَ آلأَرضِ يَنبُوعاً أَو تَكُونَ لَكَ جَنَّةٌ مِّــن نَّخِيلٍ وَعِنَب فَتُفَجرَ آلأَنهَارَ خِلاَلَهَا تَفجِيراً أَو تُسقِطَ آلسَّمَاءَ كَمَا زَعَمتَ عَلَيَنَــا كِسَفاً أَو تَأتِي بِآللهِ وَآلمَلائكَةِ قَبِيلاً أَو يَكُونَ لَكَ بَيتٌ مِّن زُخرُفٍ أَو تَرقَــى فِــى آلسَّمَاءِ وَلَن نُّؤمِنَ لِرُقِّيكَ حَتَّى تُنَزِّلَ علينا كِتَاباً نَّقرَأهُ ﴾[1] ، وأمثال هؤلاء أبعدهم الله تعالى عن رحمته الواسعة وأقامهم فيما يغضب الله ، ودليل ذلك قوله تعــالى :

١- سورة الإسراء آية ٩٠ ــ ٩٣ .

﴿ وَلَو أَنزلنَا مَلَكاً لَّقُضِيَ آلأَمرُ ﴾ أى : لانْطَوَى بساط هذا الكـــون ، وطويـــت السموات كطى السجل للكتاب وتقوم القيامة ﴿ ثُمَّ لاَ يُنظَرُونَ ﴾ أى : لا تؤجل حياتهم بعد نزول الملك على حقيقتة الملكية .

وجائز أن يكون معنى ﴿ وَلَو أَنزلنَا مَلَكاً لَّقُضِيَ آلأَمرُ﴾ أى : ولو أنزلنـــا ملكا فكفروا به بعد نزوله على صورته الحقيقة لعجل لهم العذاب فأهلكهم جميعا ، ثم لا يؤخرهم ليتوبوا كما فعل بقوم يونس عليه السلام ، فإن نزول الملك ظهـــور لغيب الملكوت الأعلى الذى إذا ظهر آمن به كل كافر ، قال الله تعالى مخبرا عمن قامت قيامتهم : ﴿ رَبَّنَا أَبْصَرْنَا وَسَمِعْنَا فَارْجِعْنَا نَعْمَلْ صَالِحًا إِنَّا مُوقِنُونَ ﴾[1] .

قال تعالى : وَلَوْ جَعَلْنَاهُ مَلَكًا لَّجَعَلْنَاهُ رَجُلاً وَلَلَبَسْنَا عَلَيْهِم مَّا يَلْبِسُونَ (٩)

﴿ وَلَوْ جَعَلْنَاهُ مَلَكًا لَّجَعَلْنَاهُ رَجُلاً ﴾ أى : ولو قدّرنا بأن يكون الرسول إليهم ملكا لجعلناه فى صورة رجل ، حفظا لمرتبتهم البشرية ، حتى تقوم الحجة على خبث طبعهم ونجاسة نفوسهم وفقدهم القابل عن الله تعالى ﴿ وَلَلَبَسْنَا عَلَيْهِم مَّـــا يَلْبِسُونَ ﴾ أى : لخلطنا عليهم الأمر فهم فى ريب لبسهم الدال على سوء نواياهم ، كما قال الله تعالى : ﴿ وَمَكَرُواْ وَمَكَرَ اللّهُ وَاللّهُ خَيْرُ الْمَاكِرِينَ ﴾[2] .

وهذه الآية الشريفة تدل على أن الله يعلم عن القوم أنه ســبحانه وتعـــالى كلما أظهر لهم آية من الآيات القوية الدالة على توحيده وصدق رســوله محمـــد ﴿ ﷺ وآله﴾ أنكروا ، وطلبوا آية أخرى عنادا ، وكفروا بـــالله تعـــالى وبرســـله صلوات الله وسلامه عليهم جميعا .

١- سورة السجدة آية ١٢ .

٢- سورة آل عمران آية ٥٤ .

قوله تعالى : وَلَقَدِ اسْتُهْزِىءَ بِرُسُلٍ مِّن قَبْلِكَ فَحَاقَ بِالَّذِينَ سَخِرُواْ مِنْهُم مَّا كَانُواْ بِهِ يَسْتَهْزِؤُونَ (١٠)

تقدم فى الآيات السابقة أن قريشا كانوا يقولون مستهزئين : ﴿ لَولاَ أُنزِلَ عَلَيْهِ مَلَكٌ ﴾ فكان ذلك يحزن رسول الله ﴿ ﷺ وآله﴾ ، ولرحمته ورأفته كان يرى أنه لم يحسن دعوهم ، فطمأن الله تعالى قلبه ﴿ ﷺ وآلــه﴾ بقولــه : ﴿ وَلَقَـدِ اسْتُهْزِىءَ بِرُسُلٍ مِّن قَبْلِكَ ﴾ والمعنى : أن الله تعالى يبين ما جبل عليه أهل الجحود من الاستهزاء بالرسل من قبله ﴿ ﷺ وآله﴾ ، وأن النفوس الخبيثة والطباع النجسة مجبولة على إنكار الحق ، فإذا وقع منهم الاستهزاء بآيات الله فلا تجعل فى نفســك غضاضة من سوء صنيعهم ، فإنا أرسلناك لتقيم الحجة عليهم بتبليغك إيــاهم مــا أرسلت به إليهم .

﴿ فَحَاقَ بِالَّذِينَ سَخِرُواْ مِنْهُم مَّا كَانُواْ بِهِ يَسْتَهْزِؤُونَ ﴾ أى : فترل هم ، أو : أحاط هم ، وذلك من وعيد الله لهم لانتقامه منهم فى الدنيا والآخرة ، فإن الله تعالى عجل لهم النقمة فأذلهم وأعز نبيه ﴿ ﷺ وآله﴾ وأصحابه ، فكانــت تلــك النقمة بقتلهم واسترقاقهم وأسر من بقى منهم حيا ، وضرب الجزية عليهم وإجلاء أهل الكتاب منهم عن جزيرة العرب ، والانتقام منهم يوم القيامة بالخلود فى نــار جهنم .

ومعنى هذه الآية الشريفة أن الله تعالى أنزل بالذين سخروا مــن الأنبيــاء السابقين الانتقام الذى توعدهم به ، وهذا ثابت بالتفصيل فى الكتب الســماوية ، ومنشور بالتواتر بين الأمم ، فصدق الله العظيم فى قوله تعالى : ﴿ وَمَن لَّم يَجعَــل

اللهُ لَهُ نُوراً فَمَا لَهُ مِن نُّورٍ ﴾[1] ولا تزال تلك النقم تترل بكل منكر مستهزىء بما جاءت به الرسل وبينه العلماء من بعدهم ، وقد ظهرت جرثومة الفساد فى هـــذا العصر بسبب ما نشره دعاة النصرانية فى مدارسهم التى جعلوها لإفساد العقائــد والأخلاق الإسلامية .

وإنى أرى سبب النقم التى تترل بالمجتمعات الإسلامية ـــ من فســـاد ذات بينهم ، ومن التفرقة بين قلوبهم ، ومن تسليط غير المسلمين عليهم ، ومن مسارعة أهل النفاق فى الظلمة منهم ، ومن مغالاة الكافرين المتسلطين ـــ كل ذلك من ترك المسلمين التراحم بينهم ، وترك القيام بالفرائض والآداب والمعاملات الإســـلامية ، حتى صارت البدع سننا محبوبة ، والسنن بـــدعا مبغوضـــة ، وأصـــبحت الأمـــم الإسلامية بين مستعبد ذليل قد اتبع من كانوا أرقاء بين أيديهم ، وآخر مستضعف ضال عن حقيقة دينه ، قال الله تعالى : ﴿ إِنَّ اللّهَ لاَ يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُواْ مَـــا بِأَنْفُسِهِمْ ﴾[2] أسأل الله أن يوفقنا لتغيير ما بأنفسنا حتى يجدد لنا ما كان لســـلفنا الصالح إنه مجيب الدعاء .

قوله تعالى : قُلْ سِيرُواْ فِى الأَرْضِ ثُمَّ انظُرُواْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ (11)

يقول الله تعالى لحبيبه محمد ﴿ ﷺ وآله﴾ : ﴿ قُلْ ﴾ للذين عبدوا الأوثان وكذبوا رسلى ، وكذبوا برسالتك بعد قيام الحجة بالمعجزة ووضوح المحجة ببيانك وعملك ﴿ سِيرُواْ فِى الأَرْضِ ﴾ حال قيامكم بقضاء مصالحكم من التجارة ﴿ ثُمَّ

١- سورة النور آية ٤٠ .

٢- سورة الرعد آية ١١ .

انظُرُواْ ﴾ وثم هنا دلت على أن السير لم يكن للنظر ، بل لغيره من التجارات والمبادلات وجلب ما لابد لهم منه ، فلفت أنظارهم على التأمل والبحث أثناء هذا السير ، حتى تنكشف لهم حقيقة المصائب التى إعتورت من إستهزءوا برسل الله وكذبوهم ، لأن السير لو كان للنظر لقال سبحانه : فانظروا ، بدلا من : ﴿ ثُمَّ انظُرُواْ ﴾ .

وفى هذه الآية الشريفة تهديد ووعيد لمن إستهزءوا برسول الله ﴿ ﷺ وآله﴾ ، فإنها حجة قصمت ظهورهم ، هذا لأن بلدان الذين كذبوا الرسل عليهم السلام لا تزال آثار النقم ظاهرة فيها مثل قوم عاد وثَمُود وقوم لوط وقوم نوح وقوم موسى ، فإن قريشا كانوا تجارا يسافرون إلى الشام وإلى بلاد العجم وبلاد اليمن ، فيمرون على آثار تلك المدن وهم كالأنعام من غفلتهم ، وفى هذه الآية تنبيه لهم إلى النظر فى سبب خراب تلك المدن ودمار أهلها بعد ما كانوا فيه من النعيم والأموال والزينة .

﴿ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ ﴾ أى : ما آل إليه أمر المكذبين من إهلاكهم بالإنتقام منهم ، وكذلك فى هذه الآية الشريفة تخويف لمن إدعوا الإسلام وخالفوا أحكامه ، وصدق قول الله تعالى : ﴿ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُوْلُواْ الأَلْبَابِ ﴾[1] .

قوله تعالى : ﴿قُل لِّمَن مَّا فِى السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ قُل لِلّهِ كَتَبَ عَلَى نَفْسِهِ الرَّحْمَةَ لَيَجْمَعَنَّكُمْ إِلَى يَوْمِ الْقِيَمَةِ لاَ رَيبَ فِيهِ الَّذِينَ خَسِرُواْ أَنفُسَهُم فَهُم لاَ يُؤْمِنُونَ ﴾(١٣)

١- سورة الرعد آية ١٩ .

(قُل) هذا أمر من الله تعالى لرسوله سيدنا محمد ﴿ ﷺ وآله﴾ يأمره بأن يقول لمن عبدوا الأوثان وكذبوه ﴿ ﷺ وآله﴾ فيما جاءهم به من عند الله تعالى يسألهم بقوله : ﴿ لِّمَن مَّا فِى السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ ﴾ ملكا وإيجادا وإمدادا ، ثم أمره سبحانه وتعالى أن يجيبهم بما هو معلوم بالضرورة بقوله سبحانه : ﴿ قُل لِلّهِ ﴾ أى : هى لله ، وهذا الجواب لا ينكره أحد من الخلق من بنى آدم — ولا عبَّاد الأوثان — لأن الإنسان دينى بالطبع ، وكل من عبد غير الله فإنما يعبده ليقربه إلى الله تعالى الذى خلق السموات والأرض وما فيهن ، بل وما يعبدونه من دونه مخلوق لله مملوك له سبحانه ، وإنما هى الآراء المضلة والمذاهب المفسدة للقوى الإنسانية جعلت الإنسان الجاهل يتخذ أولياء من دون الله وأندادا له ، فإذا سئل أهل الكفر : من خلق السموات والأرض ؟ قالوا : خلقهن الله ، وهى لله ، لأن ذلك بديهى ، ولكنها الأهواء والحظوظ حجبت عيون البصائر عن النظر بعين اليقين .

﴿ كَتَبَ عَلَى نَفْسِهِ الرَّحْمَةَ ﴾ الكتابة من شأننا لا من شأنه جل جلاله ، لأنه الملك المتصرف فى ملكه كما يشاء ، ولكنه سبحانه يبين لنا بهذه الآية كمال إحسانه ، وعميم فضله ، وجميل عطفه على خلقه لتقوم ، الحجة له جل جلاله ، فهو جل جلاله يعطف على من عدل به الأنداد والأوثان ، وكذَّب رسلَه عليهم السلام ، عطفا يجعلهم يسارعون إلى التوبة والإنابة ليفوزوا بقسط من رحمة أرحم الراحمين ، لأن هذه الآية الشريفة دليل على أنه قدر فى سابق أزله أن رحمته وسعت كل شىء كما ورد فى الحديث الصحيح بسند الإمام ابن جرير ، قال : عن أبى هريرة عن النبى ﴿ ﷺ وآله﴾ قال : لَمَّا فَرغَ اللهُ مِنَ الخَلقِ كتب كِتاباً : ﴿ إِنَّ رَحمَتِى سَبَقَت غَضَبى ﴾ ، وقال عن عكرمة : (إذا فَرغَ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ مِنَ القضَاءِ

بَينَ خَلَقِهِ أَخرَجَ كِتَاباً مِن تَحتِ آلعَرشِ فِيهِ : إِنَّ رَحمَتِى سَبَقَت غَضَبِى وَأَنا أَرحَمُ آلرَّاحِمِينَ)[١] .

﴿ لَيَجمُعَنَّكُمُ إِلَى يَوُمِ آلقِيمَةِ لاَ رَيبَ فِيهِ ﴾ اللام هنا للقسم والكـــلام تم عند قوله : ﴿ كَتَبَ عَلَى نَفْسِهِ آلرَّحُمَةَ ﴾ والجملة مستأنفة ، وهى تهديد شـــديد لأهل الكفر بالله الذين أنكروا يوم القيامة ، أى : والله ليجمعنكم سبحانه وتعـــالى يوم القيامة للحساب على ما فرطتم فى جنب الله تعالى .

﴿ إِلَى يَوُمِ آلقِيَمَةِ ﴾ أى : فى يوم القيامة ، ولكنه قال : (إلى) ليدل على أن الجمع إليها محتم عليهم ، لأن الله تعالى قدره فى أزله ليحسن إلى من سمع وأطاع ، وينتقم ممن خالف وأبى ، لأنها دار الجزاء بالفضل أو العدل ثوابا وعقابا ، ومـــن نسى يوم القيامة أو أنكره هلك مع الهالكين ، أعاذنا الله تعالى من نسيان الغـــافلين وإنكار الهالكين ، قال تعالى : ﴿ آليَومَ نَنسَاكُم كَمَا نَسِيتُم لِقَآءَ يَومِكُم هَذَا ﴾[٢] وقال تعالى : ﴿ إِنَّ آلَّذِينَ يَضِلُّونَ عَن سَبِيلِ آللهِ لَهُم عَذَابٌ شَدِيدٌ بِمَا نَسُوا يَـــومَ آلحِسَابِ ﴾[٣] .

﴿ لاَ رَيبَ فِيهِ ﴾ أى : لا شك فى جمعهم يوم القيامة ، لأن يوم القيامـــة حق ، وجمعهم فيه حق ، ليثيب المحسن بإحسانه سبحانه ، ويعاقب المســـىء بمـــا يستحقه . ﴿ آلَّذِينَ خَسِرُواْ أَنفُسَهُم ﴾ بدل مـــن الكـــاف والمـــيم فى قولـــه : ﴿لَيَجمُعَنَّكُمُ ﴾ أو عطف بيان .

١-

٢-

٣-

﴿ خَسِرُوٓاْ أَنفُسَهُم ﴾ أى : أهلكوها بمخالفتهم الرسل عليهم الصلاة والسلام ، واتخاذهم الأنداد والأوثان من دون الله تعالى ، والخسران هو الغبن ، وهو إهلاك ما خسره من مال أو عافية أو نفس ، ويخبرنا الله تعالى عن هؤلاء الكفار بقوله سبحانه : ﴿ فَهُم لَا يُؤْمِنُونَ ﴾ والمعنى : فهم ــ بما جلبت عليه نفوسهم من العناد والإنكار والتكذيب ــ لا يصدقون الرسل عليهم الصلاة والسلام فيما جاءوا به من عند الله تعالى .

قوله تعالى : ﴿ وَلَهُ مَا سَكَنَ فِى ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلعَلِيمُ ﴾ ١٣)

﴿ وَلَهُ مَا سَكَنَ فِى ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ ﴾ بعد أن بين سبحانه وتعالى أن له ملك السموات والأرض ، وله ما فى السموات والأرض ، أخبرنا جل جلاله بأن له الزمان كما أن له المكان ، وفى قوله : ﴿ مَا سَكَنَ فِى ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ ﴾ اكتِفَاء ، أى : وما تحرك ، كما قال تعالى : ﴿ سَرَابِيلَ تَقِيكُمُ ٱلحَرَّ ﴾[1] أى : وَٱلبَرۡدَ ، لأن الحركة ناشئة عن السكون ولا تعرف إلا به ، ولا يعرف السكون إلا بالحركة ، ولا يوصف بالسكون والحركة إلا ما كان قابلا لهما من الأجسام الحية ، ولما كان الساكن أكثر من المتحرك أتى بالساكن اكتفاء عن المتحرك لأنه معلوم ملحوظ فى السكون ، وتلك الآيات حجج دامغة قاصمة لظهور أهل العناد لأنها خبر الصادق سبحانه ، وهى حقائق محسوسة ملموسة تسلم بها العقول ، فإن وجود الأكوان حادث ، وكل حادث لابد له من محدث ، ومستحيل أن تقوم الحجة على شىء يتحرك ويسكن ويحدث بعد العدم بعد الوجود موجودا بنفسه ، بل لابد له من موجد أوجده وصانع صنعه ، والله تعالى هو الخلاق العظيم .

١-

﴿ وَهُوَ آلسَّمِيعُ آلعَلِيمُ ﴾ الذى يسمع استغاثة عباده فيغيثهم ، ورفع حوائجهم إليه فيجيبهم سبحانه وتعالى بما شاء ، ويسمع جل جلاله كلام النفوس ، فهو العليم بالجزئيات والكليات قبل أن توجد الكائنات ، بعلم قديم أزلى أحاط بكل شيء من الواجب والجائز والمستحيل .

قوله تعالى : ﴿ قُلْ أَغَيْرَ اللّهِ أَتَّخِذُ وَلِيًّا فَاطِرِ السَّمَاوَاتِ و الارض وهو يطعم وَلاَ يُطْعَمُ قُلْ إِنِّى أُمِرْتُ أَنْ أَكُون أَوَّلَ مَنْ أَسْلَمَ وَلاَ تَكُونَنَّ مِنَ الْمُشْرِكَينَ ﴾(١٤)

هذه الآية الشريفة أمر من الله تعالى لنبيه محمد ﴿ ﷺ وآله﴾ أن يقول للعادلين بربهم الأوثان وغيرها ، والمنكرين نبوته وما جاء به من خالص التوحيد ومن مراضى الله ومحابه فى أمره ونهيه وغيرهما ﴿ قُلْ أَغَيْرَ اللّهِ أَتَّخِذُ وَلِيًّا ﴾ وكل الأغيار خلق مقهورون بقهره جل جلاله ، لا يجلبون لأنفسهم خيرا ، ولا يدفعون عنها شرا ، وهم أذل وأقل من أن يتفعوا انفسهم فكيف أتخذهم أولياء من دون الله ﴿ فَاطِرِ آلسَّموات وآلأَرضِ ﴾ أى : خالقهما وخالق كل ما فيهما وما بينهما ، والولى هو الذى ينفع بخيره وبره ، ويدفع بقدرته عمن تولاه . ﴿ وَهُوَ يُطْعِمِ ﴾ أى : وهو يرزق كل ما هو غيره ومن هو غيره ﴿ وَلاَ يُطْعَمُ ﴾ أى : ولا يحتاج إلى الطعام لأنه علىّ عظيم عن النقائص ، غنى بذاته عمن سواه وما سواه ، ومعنى : ﴿ يُطْعِمِ وَلاَ يُطْعَمُ ﴾ أى : يرزق الخلق ولا يُرزق ، ويَرزق خلقه بكل أنواع الرزق ، وهو غنى عن كل ذلك .

﴿ قُلْ إِنِّى أُمِرْتُ أَنْ أَكُون أَوَّلَ مَنْ أَسْلَمَ ﴾ أى : قل : إنى قيل لى أسلم فأسلمت لله رب العالمين قبل أن يسلم أحد من أمتى ، فكنت أول المسلمين إسلاما ﴿ وَلاَ تَكُونَنَّ مِنَ آلْمُشرِكِينَ ﴾ نهاه الله تعالى نهيا مؤكدا أن يكون من القوم

المشركين بعد أن أكرمه الله بالرسالة وعلمه ما لم يكن يعلم ، وهذا بيان لما يجب أن يكون عليه الرسل عليهم الصلاة والسلام ، ومعنى ﴿ أُمِرتُ ﴾ أى : قيل لى .

قوله تعالى : ﴿ قُل إِنِّى أَخَافُ إِن عَصَيتُ رَبِّى عَذَابَ يَومٍ عَظِيمٍ ﴾(١٥)

هذه الآية قصمت ظهور أهل الذين يزعمون أن الله تعالى لا يؤاخذهم بذنوبهم بسبب أنسابهم ، أو بسبب ما حصلوه من العلوم ، أو بسبب ما قاموا به من نفع عام من الوقوع فى معصية الله تعالى ، لأن سيد المحبوبين الذى أقامه الله مقاما لم يقم فيه أحد من رسله الكرام أخبرنا أن محبة الله تعالى يتفضل بها على من اتبعه صلوات الله وسلامه عليه ، ﴿ قُل إِنِّى أَخَافُ إِن عَصَيتُ رَبِّى عَذَابَ يَومٍ عَظِيمٍ ﴾ هذا خبر عن الصادق عليه الصلاة والسلام الذى لا ينطق عن الهوى ، وهو أمر من الله تعالى له أن يخبر به أهل الجحود والإنكار ، وخصوص السبب لا يقتضى خصوص الحكم ، فسبب هذا الخبر من الله هو الرد على أهل الكفر بالله بأن أخوف الناس من الله هم الرسل عليهم الصلاة والسلام ، وإذا كان الرسل صلوات الله عليهم يخافون عذاب الله يوم القيامة ـــ مع ما تفضل الله به عليهم ومع ما بشرهم به ـــ فكيف يكون حال أهل التمنى ممن جهلوا أنفسهم وغرروا بالخلق حتى بلغ بهم التمنى إلى أن وقعوا فى معاصى الله غير هيابين ولا وجلين ، زعما منهم أنهم بلغوا مقاما لا يؤاخَذون فيه على أعمالهم المخالفة ، وأمن هذا الجانب مروق من الدين ، لأن من أمن جانب الله كمن يئس من رحمته سبحانه ، أعاذنا الله تعالى من الفتن العمياء الصماء ، وتفضل علينا سبحانه بحسن الاتباع لحبيبه محمد ﴿ ﷺ وآله﴾ .

﴿ عَذَابَ يَومٍ عَظِيمٍ ﴾ وصف اليوم بأنه عظيم لما ينال أهل الكفر وأهل النفاق فيه من الأهوال والشدائد والآلام الفادحة .

قوله تعالى : ﴿ مَّن يُصرَف عَنْهُ يَوْمَئِذٍ فَقَد رَحِمَهُ وَذَلِكَ ٱلفَوزُ ٱلْمُبِينُ ﴾ (١١٦)

﴿ مَّن يُصرَف عَنْهُ يَوْمَئِذٍ ﴾ أى : يصرفه الله عنه بتوفيقه له فى الدنيا لاتباع رسوله محمد ﴿ ﷺ وآله﴾ أو بالتفضل عليه بالعفو والمغفرة وقبول التوبة ، أو بالإحسان إليه بتبديل سيئاته بحسنات ، كما قال تعالى : ﴿ فَأُولَئِكَ يُبَدِّلُ ٱللهُ سَيِّئَاتِهِم حَسَنَاتٍ ﴾[1] ، والأمر يوم القيامة موكول إلى الله تعالى ، والفوز هو النجاة من الأهوال والظفر بالمقاصد ، ونيل الطلبة هو الفوز العظيم .

ومعنى قوله : ﴿ فَقَد رَحِمَهُ ﴾ أى : حفظه من العقوبة وتفضل عليه بخير يوم القيامة ﴿ وَذَلِكَ ٱلفَوزُ ٱلْمُبِينُ ﴾ الإشارة عائدة إلى الرحمة بأنواعها ، ومن يرحمه الله تعالى فقد فاز فوزا عظيما ، والمعنى : وذلك الفضل الذى يعطيه الله العبد من الرحمة هو الفوز المبين الذى يفوز به من رحمة الله تعالى .

قوله تعالى : ﴿ وَإِن يَمسَسْكَ ٱللهُ بِضُرٍّ فَلاَ كَاشِفَ لَهُ إِلاَّ هُوَ وَإِن يَمسَسكَ بِخَيرٍ فَهُوَ عَلَى كُلِّ شَىءٍ قَدِيرٌ﴾ (١١٧)

لما كان أعداء الله من المشركين العادلين بالله المستهزئين برسله ، ومن أهل الكتاب المكذبين لرسول الله ﴿ ﷺ وآله﴾ المنكرين رسالته ، بعد أن بين الله فى التوراة والإنجيل رسالته وأنه خاتم الرسل ﴿ ﷺ وآله﴾ ، وأمره سبحانه وتعالى أن يقول لهم : ﴿ أَغَيرَ ٱللهِ أَتَّخِذُ وَلِيّاً ﴾ أقام الله تعالى الحجة بهذه الآية أنه لا ولى إلا الله ، ومعنى الآية الشريفة أن الله تعالى هو الملك المقدر لكل شىء ، وأنه هو الضار النافع .

١- سورة الفرقان آية ٧٠ .

﴿ وَإِن يَمسَسُكَ آللَّهُ بِضُرّ ﴾ أى : وإن يُصبك بنوع من أنـــواع الضـــر كالفقر والسقم والبلايا المؤلمة ﴿ فَلاَ كَاشِفَ لَهُ إِلاَّ هُوَ ﴾ جـــل جلالـــه ﴿ وَإِن يَمسَسكَ بِخَيرٍ فَهُوَ عَلَى كُلِّ شَىءٍ قَدِيرُ ﴾ أى : وإن يمنحك نوعا من أنواع الخير فى الدنيا ـــ كالعافية والغنى عن شرار الخلق ، والأمن ونفوذ الكلمة والنصرة على الأعداء ـــ فهو سبحانه وتعالى على كل شىء قدير ، أى : يتفضل بنعمه على من يشاء من عباده ، وكونه قديراً ، أى : قويا ينفذ ما يشاء من غير مانع يمنعه .

وفى هذه الآية بيان لإنفراده جل جلاله بالضر والنفع ، وفيها طمأنينة لقلب رسول الله﴿ ﷺ وآله﴾ بعصمة الله تعالى له ، ولكل من وفقهم الله لحسن اتباعـــه ﴿ ﷺ وآله﴾ .

قوله تعالى : ﴿ وَهُوَ آلقَاهِرُ فَوقَ عِبادِهِ وَهُوَ آلحَكِيمُ آلخَبِيرُ ﴾(١٨)

معلوم أن كل صفة تكون مذمومة من الخلق تكون مدحا لله تعالى ، فالعبد يذم عنه أن يكون قاهرا لأن القاهر من العبيد يظلم غيره بقهره إياه لمساواة الخلق فى الحقيقة ونفس الأمر ، والقهر من الله جل جلاله مدح وثناء ، لأنه سبحانه وتعالى يتصرف فى ملكه وفى خلقه الذين ابتدعهم وأوجدهم من العدم ، وهو جل جلاله أعلم بما يصلحهم ، فقهره جل جلاله عليهم لكمال عزتـــه وعظمتـــه وقداســـته ونزاهته وعلوه جل جلاله ، ولكماله الذاتى ، فله سبحانه القوة المطلقة ، فهو فوق الفوق وفوق التحت وفوق كل شىء عظمة وكبرياء ، سبحانه ، ليس كمثله شىء فى كل شىء ، ومعنى ﴿ وَهُوَ آلقَاهِرُ فَوقَ عِبادِهِ ﴾ أنه جل جلاله ينفذ ما قـــدره وشاءه أزلا بقدرته وقوة وحكمة ، وقد عجزت العقول والنفوس الكاملة عـــن أن تحوم حول حقيقة سر قدره جل جلاله ، فهو جل جلاله يحمد ويمدح ويشكر على انتقامه وقهره وجبروته وبطشه ، ولا يحمد على السراء والضراء إلا هو ســـبحانه

لعظمته وعلوه ، لاتدركه الأبصار وهو يدرك الأبصار وهو اللطيف الخبير ، بل ولا تدرك العقول سر قدره ، فكيف تدرك ذاته وأسمائه وصفاته ، فالرب رب ولو تترل ، والعبد عبد ولو رفع إلى قاب قوسين أو أدنى ، وهو سبحانه كما أخبر عن نفسه بنفسه هو القاهر فوق عباده ، وأن كل من فى السموات والأرض ، بل وما فـــوق ذلك من حملة العرش ، وما فوق ذلك عبيد مقهورون وعباد مربوبون ، لا يسبقونه بالقول وهم بأمره يعملون ، تتره وتعالى عن الظلم والتظالم .

﴿وَهُوَ ٱلحَكِيمُ ٱلخَبِيرُ ﴾ أى : وهو الحكيم الذى قدر الأقدار بحكمتـــه ، وأوجد الخلق بحكمته ، وأمد من شاء بما شاء بحكمته ، وٱلحَكمَةُ هى وضع الشىء فى موضعه ، والخَبِيرُ هو المحيط خبرا بما أبرزته قدرته بعد أن خصصت إرادته مـــن حضرة علمه ما شاء إيجاده ، فهو سبحانه خبير بكل شيء من جزئى وكلى ، قال تعالى : ﴿ وَٱللَّهُ مِن وَرَآئِهِم مُّحِيطٌ ﴾[1] .

قوله تعالى : قُل أَىُّ شَىءٍ أَكبَرُ شَهَدَةً قُلِ ٱللَّهُ شَهِيد بَينِى وَبَينَكُم وَأُوحِـــىَ إِلَى هَذَا ٱلقرءَانُ لِأُنذِرَكُم بِهِ وَمَن بَلَغَ أَئِنَّكُم لَتَشهَدُونَ أَنَّ مَعَ ٱللَّهِ ءَالِهَةً أُخرَى قُل لَّآ أَشهَدُ قُل إِنَّمَا هُوَ إِلَهٌ وَاحِدٌ وَإِنَّنِى بَرِىٓءٌ مِّمَّا تُشرِكُونَ (١٩)

سبب نزول هذه الآية الشريفة ، أن قريشا كانوا يظنون أن الله تعـــالى لا يبعث رسولا إلا إذا كان غنيا ذا عصبة وقوة ، جهلا منهم بأن الله سبحانه وتعالى هو أعلم حيث يجعل رسالته ، ولما كان رسول الله ﴿ ﷺ وآله﴾ من أشرف بيوت العرب لأنه من خيرة بنى هاشم ، ولكن قدر الله تعالى أن يكون حبيبه ومصـــطفاه يتيما بين قومه ليس له ناصر منهم ، ليرفع به العالم ، لتقوم الحجة أنــه ســـبحانه

١- سورة البروج آية ٢٠ .

الفاعل المختار ، وأنه يعز من يشاء بعنايته وقدرته ، وقالت قريش لرسول الله ﴿ ﷺ وآله﴾ : أما وجد ربك من يرسله غيرك ؟ وإنا سألنا اليهود والنصارى فأخبروا أنه ليس لك ذكر فى النبوة ، وليس لك شاهد على أنك نبى ، فقصم الله ظهورهم بإنزال هذه الآية .

﴿ قُل أَىُّ شَىءٍ أَكبَرُ شَهَدَةً قُل آللَّهُ شَهِيد بَينِى وَبَينَكُم ﴾ ومعنى هذه الآية الشريفة : قل يا محمد لهؤلاء الكفار بالله تعالى ﴿ أَىُّ شَىءٍ أَكبَرُ شَهَدَةً ﴾ الجواب محذوف للعلم به ، وذلك المعلوم هو الله تعالى ، أى أن شهادة الله تعالى هى الشهادة التى تقيم الحجة على صدق نبوته ، وفى قوله تعالى : ﴿ قُل آللَّهُ شَهِيد بَينِى وَبَينَكُم ﴾ يعنى أن الله الذى شهادته فوق كل شهادة ، هو الذى يشهد لى بصدق نبوتى .

﴿ وَأُوحِىَ إِلَى هَذَا آلقرءَانُ لِأُنذِرَكُم بِهِ وَمَن بَلَغَ ﴾ والمعنى أن هذا القرآن المعجز الذى عجزتم عن الإتيان بأقصر سورة منه ــ وأنتم فحول البيان وأبطال البلاغة ــ وهو مترل من عند الله ، فوحيه إلىَّ هذا القرآن حجة على أنه شهد لى بصدق نبوتى ، وفى قوله : ﴿ لِأُنذِرَكُم بِهِ ﴾ أى : لأخوفكم به عاقبة إنكاركم وتكذيبكم ، ﴿ وَمَن بَلَغَ ﴾ أى : وأنذر من بلغه هذا القرآن ممن يأتون بعد ، فإن من بلغه القرآن وسمعه كأنه رأى رسول الله ﴿ ﷺ وآله﴾ ، وتقوم الحجة عليه كما تقوم على من سمع القرآن منه ﴿ ﷺ وآله﴾ .

وجائز أن يكون قوله تعالى : ﴿ قُل أَىُّ شَىءٍ أَكبَرُ شَهَدَةً ﴾ على توحيده جل جلاله ، وتفرده بالإيجاد والإمداد ، والآية وإن كان سببها خاصا ؛ فهى حجة وبيان لحقائق كثيرة من السمعيات وغيرها .

﴿ أَئِنَّكُم لَتَشهَدُونَ أَنَّ مَعَ آللَّهِ ءَالِهَةً أُخرَى قُل لاَّ أَشهَدُ ﴾ معنى هذه الآية أن الله يأمر رسوله ﴿ ﷺ وآله﴾ أن يقول للمشركين : أَئِنَّكُم لَتَشهدون أَن مَعَ آللَّهِ ءَالِهَةً أُخرَى ، والاستفهام هنا للاستنكار ، ينكر على أهل الكفر اتخاذهم آلهة من دون الله تعالى ، وأتى بصفة الآلهة مؤنثة لأنها جمع تكسير وجموع الكسرة توصف بالمؤنث كقوله تعالى : ﴿ وَلِلَّهِ الأَسمَاءُ آلحُسنَى ﴾[1] وفى الآية تشنيع على أهل الجاهلية الأولى الذين عميت أبصارهم عن النظر على دلائل التوحيد وحججه ، وسلموا لأهل المذاهب المضلة والآراء المفسدة فاتخذوا من دون الله آلهة ، وبعد أن ينكر عليهم كل ذلك أردف هذا الإنكار بالتبرئة مما هو عليه من الشرك بالله ، بقوله تعالى : (قل) يا محمد لهؤلاء الذين يشهدون أن مع الله آلهة أخرى (لا أشهد) بشهادتكم لبطلانها .

﴿ قُل إِنَّمَا هُوَ إِلَهُ وَاحِدُ ﴾ أى : قل لهم إنما هو إله واحد و ﴿ إِنَّمَا ﴾ هنا للقصر ، أى : إنما الله إله واحد لا شريك له ، وقد قامت الحجة العقلية والنقلية عن الصادق سبحانه وتعالى الذى بلغ عباده على ألسنة رسله المؤيدين بالمعجزة ، ومن أظهر تلك الحجج وأدلها على الحقيقة هذه الآية وهو قوله : ﴿ قُل إِنَّمَا هُوَ إِلَهٌ وَاحِدُ ﴾ ﴿ وَإِنَّنِى بَرِىءٌ مِّمَّا تُشرِكُونَ ﴾ أى : وقل لهم إننى أيضا برىء مما تشركون ، لأن هذا الشرك مستحيل ولأنه ضلال وباطل ، وهذه الآية يتبين منها أن من هداه الله للإسلام عليه أن ينطق بالشهادتين ويبرأ من كل دين يخالف دين الإسلام بدليل قوله تعالى خبرا عن حبيبه محمد ﴿ ﷺ وآله﴾ : ﴿ وَإِنَّنِى بَرِىءٌ مِّمَّا تُشرِكُونَ ﴾ وقد أكد التوحيد باسمية الجملة وبكونها أفادت القصر ، وأكد براءته ﴿ ﷺ وآله﴾ بإن التوكيدية وباسمية الجملة .

١- سورة الأعراف آية ١٨٠ .

قوله تعالى : ﴿ ٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ يَعْرِفُونَهُۥ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَآءَهُمُ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓاْ أَنفُسَهُمْ فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴾ (٢٠)

يعنى سبحانه وتعالى أن الذين آتاهم التوراة والذين آتاهم الإنجيل ووفقهم للسمع والطاعة له سبحانه وتعالى يعرفونه ﴿ ﷺ وآله﴾ بما بينه الله عنه فى التوراة والإنجيل كما يعرف الوالد الرحيم العطوف ولده الوحيد ، من حيث المسارعة إلى السمع منه والطاعة له ، والحرص على المسارعة إلى تنفيذ أوامره والعناية بنيل رضاه ، فإن محبة الآباء للأبناء فوق محبة الأبناء للأباء من حيث الحرص على دوام العناية به ، وجلب الخير له ، ودفع الضر عنه .

وقد سأل عمر بن الخطاب رضى الله عنه عبد الله بن سلام عن هذه الآية فقال : إنى أعرف رسول الله ﴿ ﷺ وآله﴾ أكثر من معرفتى لابنى ، لأنى أعتقد أنه على الحق ، ولا أعلم ما يفعل النساء ، وهذه الآية الشريفة تدل على أن من أتى من اليهود والنصارى لرسول الله سيدنا محمد ﴿ ﷺ وآله﴾ دعاه إلى اعتناق الإسلام مما علمه فى التوراة والإنجيل من الآيات التى أنبأ الله بها رسله ببعثة رسوله ﴿ ﷺ وآله﴾ إلى الناس كافة بشيرا وداعيا إلى الله بإذنه وسراجا منيرا ، وأن الذين كذبوه ﴿ ﷺ وآله﴾ وأنكروا عليه من أهل الكتاب دعاهم إلى ذلك الحسد والعناد ، وما سجله الله تعالى عليهم من الكفر به سبحانه .

﴿ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓاْ أَنفُسَهُمْ فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴾ معنى هذه الآية أن الذين أهلكوا أنفسهم بتكذيب رسول الله ـــ مُحَمَّد بن عبد الله﴿ ﷺ وآله﴾ ـــ من أهل الكتاب ، الذين يعلمون حق العلم صدقه ﴿ ﷺ وآله﴾ ، وأنه رسول الله وخاتم النبيين ، وهو الرسول الأمى الذى يجدونه عندهم مكتوبا فى التوراة والإنجيل ، وكانت معرفتهم به ﴿ ﷺ وآله﴾ كمعرفة الواحد منهم لأبنائه ، ولكن قاتل الله

الحسد والعناد الذى أوقعهم فى الكفر برسول الله﴿ ﷺ وآله﴾ ، وبموسى عليه السلام ، لأنهم بتكذيب رسول الله مُحَمَّدٍ ﴿ ﷺ وآله﴾ كذبوا التوراة والإنجيل وموسى وعيسى عليهما السلام . .

ومعنى قوله تعالى : ﴿ فَهُم لاَ يُؤمِنُونَ ﴾ أن الله تعالى أحبط إيمانهم بموسى وعيسى ، ولعنهم لعنة جعلتهم أعداء للإيمان يحاربون الله تعالى ورسوله فلا يؤمنون أبدا ، وبعد خبر الله تعالى عنهم بهذه الآية لا يقبل الله منهم إيمانا لو فرضنا وقوع الإيمان منهم ، لأن نفى الإيمان عنهم جائز أن يكون نفيا للقبول أو نفيا للوقوع أو نفيا لهما ، وقد ورد أن كل إنسان له موضع فى الجنة وموضع فى النار ، فإذا كفر أهل الكتاب بخاتم الأنبياء عليه الصلاة والسلام وآمن بعضهم يخسر الكافر منهم موضعه فى الجنة ويضاعف عليه العذاب بأن يضاف له الموضع الذى كان فى جهنم لمن آمن فحوله الله إلى الجنة وزاده فضلا بأن أعطاه موضع من كفر برسول الله ﴿ ﷺ وآله﴾ فحرم منه ، فالمؤمن يزداد نعيما وفضلا ، والكافر يزداد عذابا وحزنا على ما خسره مما كان له فى الجنة ، وخسارتهم أنفسهم إهلاكها ، وحرمانها ما كان لها فى الجنة بسبب كفرهم .

قوله تعالى : وَمَن أَظلَمُ مِمَّنِ آفتَرَى عَلَى آللَّهِ كَذِباً أَو كَذَّبَ بِئَايَتِهِ إِنَّهُ لاَ يُفلِحُ آلظَّلِمُونَ (٢١)

﴿ وَمَن أَظلَمُ مِمَّنِ آفتَرَى عَلَى آللَّهِ كَذِباً ﴾ معنى هذه الآية الشريفة أن الله تعالى يخبرنا أنه لا أحد أشد طغيانا وأكبر عنادا وأقبح جرأة من الذين خسروا أنفسهم من أهل الكتاب الذين عرفوه ﴿ ﷺ وآله﴾ بما ورد عنه فى التوراة والإنجيل ، والذين افتروا على الله كذبا فاختلقوا عليه سبحانه أن له شريكا وندا وضدا من

الأصنام ، بعد أن قامت الحجج الفعلية والبراهين العملية على بطلان ما اختلقـــوه على الله كذبا .

﴿ أَو كَذَّبَ بِئَايَتِهِ ﴾ هذه الآية رد على الذين أوتوا الكتاب من اليهـــود والذين كفروا كالنصارى الذين ادعوا أن له ولدا ، بعد أن قامت الحجج المعجـــزة وقام الدليل بما ورد فى التوراة بصدق رسول الله ﴿ ﷺ وآله﴾ ، كذبوا بدلائل الله تعالى وما أقامه من البراهين الساطعة التى لا ينكرها عاقل ، وكان عملهم هذا حجة على كمال ظلمهم وعنادهم وحسدهم .

﴿ إِنَّهُ لاَ يُفلِحُ ٱلظَّلِمُونَ ﴾ نفى الله عنهم الإفلاح ، وهو فى اللغة : الفوز بكل المقاصد ، وبنفيه عنهم ثبت حرمانهم من الخير فى الدنيا والآخرة ، والظالمون هم الذين ظلموا أنفسهم بجحدهم آيات الله التى ثبتت لهم وكانوا مؤمنين بها مـــن قبل بعثته ﴿ ﷺ وآله﴾ ، وهذا الظلم واقع منهم على أنفسهم لأن الله ســـبحانه لم يظلمهم ، وكيف ينسب الظلم إلى الله سبحانه بعد أن بين لهم الحقائق جلية ، ولا يقع الظلم منهم على الله لأن الله تنزه وتعالى عن أن يظلمه عبد مقهـــور بقهـــره سبحانه أحدثه بقدرته ، وشر الخلق على الإطلاق من أنكر الحق بعد ثبوته لديـــه وبعد تصديقه به ، وقبح الله النفوس العنادية لأنها تقع فى هاوية العذاب الأليم وهى عليمة به ، وهنا كلام محذوف معلوم من سياق الآية وهو : إنه لا يفلح الظـــالمون فى هذه الدار الدنيا لأن الله تعالى أذلهم وأخزاهم وشتتهم فى البلدان .

قوله تعالى : وَيَومَ نَحشُرُهُم جَمِيعاً ثُمَّ نَقُولُ لِلَّذِينَ أَشرَكُواْ أَينَ شُرَكَآؤُكُمُ ٱلَّذِينَ كُنتُم تَزعُمُونَ (٢٢)

﴿ وَيَومَ نَحشُرُهُم جَمِيعاً ﴾ هذه الآية الشريفة مرتبطـــة بـــالتى قبلـــها ، ومعناها أنه لا يفلح الظالمون فى الدنيا ولا يفلحون يوم نحشرهم جميعا ﴿ ثُمَّ نَقُولُ

لِلَّذِينَ أَشرَكُواْ ﴾ فإنهم عند حشرهم يسألهم الله تعالى فيقول جلت ذاته : ﴿ أَيــنَ شُرَكَآؤُكُمُ ٱلَّذِينَ كُنتُم تَزعُمُونَ ﴾ فيحصل لهم من الذعر والحزن على ما فرطوا فى هذا الجانب ، وعلى نسيانهم هذا اليوم ، وعلى كفرهم بمن عرفوه كما يعرفــون أبناءهم ، حتى يتمنوا أن يكونوا ترابا أو يذهب بهم إلى النار مما ألم بهم من الحسرة والندامة ، حتى ينسيهم هذا الموقف ـــ مع اليقين الذى حصل لهــم بانكشـــاف الحقائق ـــ ما كانوا عليه من الشرك ، أو يدعوهم الفزع الأكبر إلى ارتكاب جريمة الكذب فيقولون ما أخبرنا الله به عنهم بقوله تعالى : ﴿ وَٱللَّهِ رَبِّنَا مَا كُنَّا مُشرِكِينَ ﴾(1) فيقسمون بالله أنهم لم يكونوا مشركين ، إما تخلصا من هول الموقف ، وإمــا على ظنهم أنهم كانوا مؤمنين ، لأنهم اعتادوا أن يقسموا لرسول الله ﴿ ﷺ وآله﴾ ولأصحابه بالكذب أنهم معهم تخلصا من خشية العقوبة العاجلــة ، أو مكـــرا أو خديعة لرسول الله ﴿ ﷺ وآله﴾ .

وما تأوله بعض العلماء فى هذه الآية الشريفة فتأويل بعيد ، لأن الإنســـان الذى كان يعرف الحق وينكره فى الدنيا لهوى وحظ وبىء ، وهو الإنسان الـــذى يبعثه الله يوم القيامة بحقيقتة ومبناه ، لم يزد عليه شىء إلا كمال اليقين بتصـــديق الرسل عليهم الصلاة والسلام فيما جاءوا به مما كان ينكره فى الدنيا لخبث طبعـــه وعناد نفسه ، حيث كان الغيب الذى يخبر عنه الرسل لا تشهده النفوس اللقسة ، ولكنه يوم القيامة انكشف عيانا ، وكانوا فى الدنيا يسمعونه بيانا ، فمن سبقت له الحسنى من الله آمن مصدقا بالحقائق التى بلغته من غير أن تنكشف له ، وهم الذين آمنوا بالغيب .

قوله تعالى : ثُمَّ لَم تَكُن فِتنَتُهم إِلاَّ أن قَالُواْ واللهِ رَبِّنا مَا كُنَّا مُشرِكِينَ(٢٣)

١- سورة الأنعام ٢٣ .

وأما أهل الكفر والنفاق وهم الذين أنكروا وجحدوا وهم بأعينهم الـــذين قالوا والله ربنا ما كنا مشركين ، ورويت الآية ﴿ وَاللهِ رَبَّنَـا ﴾ بفـتح البـاء ، وتأويلها والله يا ربنا ، وتأويل قوله تعالى :﴿ ثُمَّ لَم تَكُن فِتنَتَهُم إِلاَّ أَن قَالُواْ ﴾ أى :وبعد أن فعلوا ما بينه الله لنا فى الآيات السابقة من الإنكار والجحود ، ومحاربـة رسل الله صلوات الله وسلامه عليهم ، وجحدهم مابينه الله فى آلتوراة والإنجيل عن حبيبه محمد صلوات الله عليه عنادا وطغيانا ، وبعد اختبارهم وامتحانهم ،لم تكـن فتنتهم إلا قولهم بعد ذلك ﴿ واللهِ رَبِّنا مَا كُنَّا مُشرِكِينَ ﴾ على أن :فتنة ،اسم تكن ، وأن وما دخلت عليه خبرها ، وعلى رواية ﴿ لَم تَكُن فِتنَتَهُم ﴾ بجعل فتنة خـبر تكون أن وما دخلت عليه فى تأويل مصدر اسم تكن ، وقد وردت بالياء التحتية .

قوله تعالى :انظُر كَيفَ كَذبوُاْ عَلَى أَنفُسِهِم وَضَـلَّ عَنـهمُ مَّـا كَـانُوا يَفتَروُنَ(٢٤)

﴿ انظُر كَيفَ كَذبوُاْ عَلَى أَنفُسِهِم﴾ النظر قد يكون بعيون الرؤوس ، وقد يكون بعيون الإيمان ، أو بعيون الإحسان ،أو بعيون الإيقان ، والأمر هنا لرسـول الله ﴿ ﷺ وآله﴾ أن ينظر بعين اليقين الحق التى ترى غيب الأقدار عيانا بخـبر الله تعالى ، فما تراه عيون الإيمان بيان وتصديق بمجرد الإيمان بالغيب ، ومعنى الآيـة : انظر يا خاتم الرسل تعلم أهم كذبوا على أنفسهم ، لأن نفوسهم عناديه ،وطباعهم خبيثة لا تقبل عن الله تعالى صرفا ولا عدلا ،ولما انكشفت لهم الحقـائق أخـذت منهم الحيرة كل مأخذ فرجعوا إلى ما جبلوا عليه من الكذب الذى كانوا يرتكبونه لنجاة أنفسهم من المصائب فى الدنيا ، ولكنهم جهلوا أن كذبهم هذا كذب علـى أنفسهم ،لأن الله تعالى علىّ عظيم يعلم السر وأخفى ،فكان كذبهم هذا بلاء عليهم وخسرانا عظيما ، لأنه أكبر من كفرهم بالله وبرسله فى الدنيا .

وفى قوله تعالى : ﴿ كَذبوُاْ عَلَى أَنفُسِهِمِ ﴾ أى : يكذبون ، فإنــه جـــاء بصيغة الماضى لتحقق وقوعه يوم القيامه ، والأمر المتحقق الوقوع يـــأتى بصـــيغة الماضى – وإن كان مستقبلا – مثل قوله تعالى ﴿أَتَى أمر اللهِ فَلاَ تَستَعجِلُوهُ﴾[١] .

﴿ وَضَلَّ عَنهمُ مَّا كَانُوا يَفتَرُونَ﴾ أى أن هؤلاء القوم يفترون على الله أن له ولد وأن له شريكا وأندادا يشفعون لهم يوم القيامة وينفعوهم ، فلما انكشـــفت الحقائق ضل عنهم ما كانوا يفترون ، أى : فارقهم وهلك فى الحقيقة وبقى عليهم العذاب الأليم بكفرهم بالله ، وبتكذيبهم رسوله محمد ﴿ ﷺ وآله﴾ .

قوله تعالى : وَمِنهُم مَّن يَستَمِعُ إِلَيكَ وَجَعَلنَا عَلَى قُلُوبِهِم أَكِنَّةً أَن يَفقَهُوهُ وَفِيءَ اذَانِهِم وَقراً وَإِن يَرَو اْكُلَّ ءايَةٍ لاَّ يُؤمِنُواْ بِهَا حَتَّى إِذَا جَاءُوكَ يُجَدِلُونَكَ يَقُولُ آلَّذِينَ كَفَرُواْ إِن هَذَآ إِلآَّ أَسطِيرُ آلأَوَّلِينَ (٢٥)

تأويل هذه الآية الشريفة أن الله يثبت نبيه محمدا ﴿ ﷺ وآله﴾ ويبين لـــه سبحانه أن إنكار قومه عليه لحكمة اقتضاها مزيد إكرامه ﴿ ﷺ وآله﴾ ورفعة شأنه ، حتى يظهر للعالم أجمع أنه عبد الله المؤيد من الله ، ورسول الله الذى ليس له ناصر إلا الله ، ولو قدّر الله تعالى إجماع قومه عليه لظن أهل العناد أنهم قوم يطلبون ملكا وجعلوا دعوى الدين سبيلا إلى الظفر بالملك .

فقوله تعالى : ﴿ وَمِنهُم ﴾ أى : من قومك العادلين بعبـــادة الله عبـــادة الأوثان ﴿ مَّن يَستَمِعُ إِلَيكَ ﴾ قراءة القرآن ودعوتك إلى الحق بالحكمة والموعظـــة الحسنة ، فتسمع آذاهم وتفهم قلوبهم الألفاظ والآيات ، ولكن القضـــاء ســـجل عليهم ـــ لحكمة إلهية ـــ أن يكون فى آذاهم وقر ـــ لا من حيث الـــتمكين مـــن

١- سورة النحل آية ١.

السماع ولكن من حيث الفقه والفهم ـــ وَٱلوَقْرُ وهو الثقل فى السـمع ، أى فى القوة التى تفقه المعنى فتوصلة إلى النفس ، كما يفقد اللسان الحكم على الطعوم فى مرضه فيكون الحلو عليه مرا ، فكذلك آذانهم ، وحكمة أن الله سـبحانه وتعـالى جعل من كفار قريش من يستمعون إلى رسول الله ﴿ ﷺ وآله﴾ وهو يقرأ القرآن ويبين قواعد الإسلام وجعل فى آذانهم وقراً مع سماعهم العبارة ، ليمنعهم عن قبول ما يدعوهم إليه ﴿ ﷺ وآله﴾ ، لتظهر مكانة رسول الله ﴿ ﷺ وآلـه﴾ عنـد الله تعالى أن الله هو الذى أيده ونصره بقدرته وقوته ، حيث لم يكن له ناصر من قومه ، بل كانوا أعداء له وحربا عليه صلوات الله وسلامه عليه ، وهذه الآيـة تثبيـت لفؤاده ﴿ ﷺ وآله﴾ ، وفيها الحجة القاصمة لظهور من يدعى أنه قام بين قومـه ليؤسس لهم ملكا ، فانتفت تلك الدعوة بمحاربتهم له ، وظهر الحق مؤيـدا بـالله تعالى .

﴿ وَجَعَلنَا عَلَى قُلُوبِهِم أَكِنَّةً أَن يَفقَهُوهُ وَفِى ءَاذَانِهِم وَقراً ﴾ الجعل كالخلق ، إلا أن الجعل يكون لموجود من قبل ، والخلق قد يكون من العدم ، وتأويل هذه الآية : ﴿ وَجَعَلنَا عَلَى قُلُوبِهِم أَكِنَّةً ﴾ والأكنة جمع لكنان على وزن سِنَانٍ وَعَنَانٍ ، وهو الغطاء الذى يمنع وصول ما هو خارج إلى الداخل ، وتأويل هذه الآيـة أن الله سبحانه كن قلوبهم فى غطاء سميك يحجب القلوب عن أن تقبل عن الله شيئا ـــ تأتى به رسله صلوات الله وسلامه عليهم ـــ لرداءة جوهر نفوسهم ، وما تقول فى جوهر نفس خلق من طينة الخبال ؟ ﴿ أَن يَفقَهُوهُ ﴾ أى أن تلك الأكنة لا تمنـع القلب عن قبول السماع ، ولكنها تمنعه عن التلقى عن الله تعالى والتدبير فى آياته ، والفقه بالنسبة لما هو محدود محدث هو الإدراك ، وبالنسبة لما هو أزلى قـديم هـو العلم الذى هو تصور رسوم المعلوم ، وقلب لا يفقه عن الله شيئا خبث كله .

﴿ وَفِيۤ اذَانِهِم وَقراً ﴾ وقد شرح الله صدر رسوله ﴿ ﷺ وآله﴾ بهـذه الآية لأنه كان يحزنه ﴿ ﷺ وآله﴾ الذى يقوله كفار قريش ، وكانت نفسه تكـاد تزهق عليهم حسرات ، قال الله تعالى : ﴿ فَلَعَلَّكَ بَاخِعٌ نَّفسَكَ عَلَى ءَاثَارِهِم إِن لَّم يُؤمِنُوا بِهَذَا آلحَدِيثِ أَسَفاً ﴾[1] فثبتت تلك الآية فؤاد رسول الله ﴿ ﷺ وآله﴾ .

وسبب نزول هذه الآية ابتداء من قوله : ﴿ وَمِنهُم مَّن يَستَمِعُ إِلَيكَ ﴾ هو أنه حضر عند رسول الله ﴿ ﷺ وآله﴾ أبناء ربيعة وأمية والوليد بن المغيرة وغيرهم ، واستمعوا إلى حديث الرسول ﴿ ﷺ وآله﴾ فقالوا للنضر : ما يقول محمد ؟ فقال : لا أدرك ما يقول ، لكنى أراه يحرك شفتيه ويتكلم بأساطير الأولين كالذى كنت أحدثكم به عن أخبار القرون الأولى ، وقال أبو سفيان : إنى أرى بعض ما يقـول حقا ، فقال أبو جهل : كلا لم أسمع شيئا ، فأنزل الله تعالى : ﴿ وَمِنهُم مَّن يَستَمِعُ إِلَيكَ ﴾ الآية .

﴿وَإِن يَرَوا كُلَّ ءَايَةٍ لاَّ يُؤمِنُواْ بِهَا حَتَّى إِذَا جَاءُوكَ يُجَدِلُونَكَ يَقُولُ آلَّذِينَ كَفَرُواْ إِن هَذَآ إِلاَّ أَسَطِيرُ آلأَوَّلِينَ ﴾ تأويل هذه الآية الشريفة هـو أن الله تعـالى يخبرنا أن قريشا حرموا سماع القبول ورؤية التسليم ، وكانوا كلما قامت علـيهم الحجة ورأوا علامات ودلائل نبوة محمد ﴿ ﷺ وآله﴾ من كلام الله تعالى المعجـز للخلق أجمعين ، ومن المعجزات الباهرات بكل أنواعها ، لا يصدقون نبوتـه ﴿ ﷺ وآله﴾ ، لأن التصديق محله القلب وقلوبهم فى أكنة ، وجمع الله تعالى عليهم بـين عمى البصر عن شهود الآيات المنبئات بصدق رسالته ﴿ ﷺ وآله﴾ وعمى البصيرة عن التدبر فيما بينه الله تعالى من الحجج والآيات والعلامات المنبئات المؤيدة لرسالته ﴿ ﷺ وآله﴾ ، وكان تكذيبهم فى فاتحة الإسلام وإنكارهم عليـه ﴿ ﷺ وآلـه﴾

١- سورة الكهف آية ٦ .

حجة قائمة على أنه رسول الله حقا ، وأنه ﴿ ﷺ وآله﴾ المؤيد بروح الله تعـالى ، الذى بعثه الله بالحق بشيرا ونذيرا وداعيا إلى الله بإذنه وسراجا منيرا ، وأنـه ﴿ ﷺ وآله﴾ رحمة للعالمين ، ولولا ذلك لأهلك الله قومه كما فعل بأقوام الرسل من قبله ﴿ ﷺ وآله﴾ ، فإن الله أهلك قوم نوح لما حاربوه ، وأهلك قوم صـالح وهـود ولوط وأعداء الخليل والكليم وعيسى بن مريم عليهم الصلاة والسلام ، ورحم أمته ﴿ ﷺ وآله﴾ مع شدة بأسهم عليه ﴿ ﷺ وآله﴾ وأذيتهم له ﴿ ﷺ وآله﴾ ، ومع ما قاموا به من البلاء كان يقول : ﴿ آللَّهُمَّ آغفِر لِقَومِى فَإِنَّهُم لاَ يَعلَمُونَ ﴾ فصَلِّ اللهم عليه صلاة ننال بها الرضوان الأكبر والفضل العظيم فى الدنيا والآخرة .

وهذه الآيات من أولها تجعل المتدبر يعجب كل العجب من صنع قـريش برسول الله ﴿ ﷺ وآله﴾ !! ومن رحمته عليه الصلاة والسلام بهم !!! وصـدق الله العظيم إذ وصفه بقوله تعالى : ﴿ حَرِيصٌ عَلَيكم بِـآلمؤُمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِـيمٌ ﴾[1] وقوله تعالى : ﴿ وَإِنَّكَ لَعَلَى خُلُقٍ عَظِيمٍ ﴾[2] وقوله تعالى : ﴿ وَمَا أَرسَـلنَاكَ إِلاَّ رَحمَةً لِّلعَالَمِينَ ﴾[3] .

قوله تعالى : وَهُم يَنهَونَ عَنهُ وَيَنئَونَ عَنهُ وَإِن يُهلِكُونَ إِلاَّ أَنفُسَهُم وَمَـا يَشعُرُونَ (٢٦)

﴿ وَهُم يَنهَونَ عَنهُ وَيَنئَونَ عَنهُ ﴾ هذه الآية الشريفة أسـجدت عقـول فحول البلغاء لما تضمنته من امتزاج الحروف وتقاربها ، واتحاد المعانى وتشـاكلها ،

١- سورة التوبة آية ١٢٨ .

٢- سورة القلم آية ٤ .

٣- سورة الأنبياء آية ١٠٧ .

فانظر إلى كلمتى : ينهون ، وينأون ، وإلى خفة حروفها على اللسان فى مخارجها ، ولطف نظمها ، وبديع تجانسها ، لتعلم أنه كلام الله القويم الذى قرب معانيها فى : ينهون ، وينأون ، فجمع عليهم من أنواع الذم والتشنيع أنهم ينهون عن اتباعه ﴿ ﷺ وآله﴾ ، وعن قبول ما جاء به من عند الله لهم ، ومع هذا النهى يتباعدون عنه بأجسامهم وعقولهم ، ولم يكن النهى عن ذات رسول الله ﴿ ﷺ وآله﴾ ، بل كان النهى عن قبول ما جاء به من عند الله تعالى ، ﴿ وَيَنئَونَ عَنهُ ﴾ أى : يتباعدون عنه ليحزنوه ـــ على ظنهم بسبب هجرتم له وبما يقولونه فيه ـــ وساء ظنهم فإن الله تعالى آنسه وسره بقوله تعالى : ﴿ يأَيُّهَا آلرَّسُولُ لاَ يَحزُنكَ آلَّذِينَ يُسَارِعُونَ فِى آلكُفرِ ﴾[1] وبقوله تعالى فى مقام : ﴿ يَنهَونَ ﴾ : ﴿ يأَيُّهَا آلنَّبِىُّ حَسبُكَ آللَّهُ وَمَنِ آتَّبَعَكَ مِنَ آلمؤمِنِينَ ﴾[2] .

ومعنى الآية أن الله يخبرنا عن كفار قريش الذين عدلوا بالله الأنداد ، وعن اليهود والنصارى الذين حرفوا كلام الله واتخذوا لله ولدا أنهم ينهون عن اتباع رسول الله ويبعدون عنه ﴿ ﷺ وآله﴾ ﴿ وَإِن يُهلِكُونَ إِلاَّ أَنفُسَهُم ﴾ دلت هذه الآية الشريفة على أن نهيهم عن النبى ﴿ ﷺ وآله﴾ ونأيهم عنه ـــ على ما يظنون ـــ سبب فى إهلاكه وإهلاك دينه ، فرد الله تعالى عليهم بما أخزاهم وأذلهم وأهلكهم بقوله : ﴿ وَإِن يُهلِكُونَ ﴾ أى : وما يهلكون بقولهم وعملهم هذا ﴿ إِلاَّ أَنفُسَهُم ﴾ لأنهم بنهيهم عنه ﴿ ﷺ وآله﴾ ونأيهم حرموا قبول محاب الله ومراضيه سبحانه ، فباءوا بالخسران العظيم فى الدنيا بالأسر والرق وضرب الجزية عليهم والقتل ، وفى الآخرة بالخلود فى نار جهنم ، أعاذنا الله وإخوتنا المؤمنين .

١- سورة المائدة آية ٤١ .

٢- سورة الأنفال آية ٦٤ .

﴿ وَمَا يَشعُرُونَ ﴾ أى أن عنادهم ومسارعتهم إلى الحظ والهوى والطمع أوقعهم فى حسد رسول الله ﴿ ﷺ وآله﴾ فأعماهم عن التدبر فى كلام الله ، والنظر بعقول فى دلائل آياته سبحانه ، وصاروا لا يشعرون بما وقعوا فيه من الهلكة والضلال والقطيعة عن الله ، ولا ينفعهم ذلك يوم لا ينفع مال ولا بنون .

قوله تعالى : وَلَو تَرَى إِذ وُقِفُواْ عَلَى ٱلنَّارِ فَقَالُواْ يَلَيتَنَا نُرَدُّ وَلاَ نُكَذِّبَ بِئَايَتِ رَبِّنَا وَنَكُونَ مِنَ ٱلْمُؤمِنِينَ (٢٧)

تأويل هذه الآية أن الله تعالى يخبر حبيبه محمدا ﴿ ﷺ وآله﴾ بقوله : ﴿ وَلَو تَرَى إِذ وُقِفُواْ عَلَى ٱلنَّارِ ﴾ يعنى لو ترى يوم القيامة إذا حبسوا فى النار ، فإن معنى وقف البيت والأرض أى : حبسها على كذا ، فَوُقِفُوا هنا أى : حبسوا ، و ﴿ عَلَى ٱلنَّارِ ﴾ أى أنهم حبسوا عليها لا يتجاوزونها إلى غيرها ، وجائز أن تكون ﴿ عَلَى ﴾ بمعنى : فى ، وتكون ﴿ إِذ ﴾ هنا بمعناها لتحقق الوقوع ، لأن الأمر المتحقق الوقوع يعتبر واقعا لا مناص كما تقدم ، فإذ هنا هى التى تكون للماضى والموضع للمستقبل ، فحسن أن تحل إذ موضع إذَا ، والعرب تضعها موضع إذا فى الأمر الذى يكون متحقق الوقوع حتى كأنه لتحقق وقوعه وقع بالفعل ، وهؤلاء العادلون بربهم الأوثان والأنداد إذا حبسوا على النار طاشت أحلامهم وسقط فى أيديهم فتمنوا الأمانى ، قال العربى : إِنَّ آلأَمَانِى وَالأَحلاَمَ تَضلِيلٌ ، ﴿ فقالوا ﴾ عند حبسهم على النار كما أخبر الله عنهم ﴿ يَلَيتَنَا نُرَدُّ ﴾ أى : تمنوا الرجعة إلى الدنيا ، فمعنى (نرد) أى : نرجع إلى الدنيا التى كفرنا فيها بالله ، وحاربنا رسله ، وآل أمرنا إلى حبسنا فى النار ، بينما نحن نرى من آمنوا بمحمد ﴿ ﷺ وآله﴾ فى روضات الجنان يحبرون ، وشتان بين ما آل إليه أمرنا وما آل إليه أمر المؤمنين .

ومعلوم أن التمنى ترويح البائس واليائس المتحقق عدم وقوع مـــا يتمنـــاه لتعذره على نفسه .

﴿وَلاَ نُكَذِّبَ ﴾ أى : يا ليتنا نرد إلى الدنيا ونؤمن بما آمن به من فازوا ، ولا نكذب محمد ﴿ ﷺ وآله﴾ فيما جاءنا به من عند الله تعالى ، والمعنى : يا ليتنا نرد ﴿وَلاَ نُكَذِّبَ ﴾ أى :تحصل لنا الردة ولا يحصل منـــا تكـــذيب ، ويكـــون ﴿نُكَذب﴾ مرفوعا لأنه معطوف على (نُرَدُّ) وجائز أن يكون منصوبا فى جواب التمنى ﴿ بِأَيت رَبِّنَا ﴾ أى : بدلائله وعلاماته وحججه ﴿وَنَكُونَ مِنَ المــؤمِنِينَ ﴾ أى من المصدقين الذين قبلوا من الرسل صلوات الله عليهم ما جاءوا به من عند الله تعالى .

وفى هذه الآيه تهديد وتشنيع على أهل النفوس العنادية الذين أنكروا علـــى رسول الله ﴿ ﷺ وآله﴾ وكذبوه ، وجحدوا بآيات الله ، كما أن فيهـــا يقظـــة لقلوب المترددين ، ويقينا لأهل الإيمان من الذين سبقت لهم مـــن الله الحســـنى ، وحجة دامغة على أهل العناد والجدال العقيم .

قوله تعالى : بَل بَدَا لَهُم مَّا كَانُواْ يُخفُون مِن قَبلُ وَلَو رُدُّواْ لَعَادُواْ لِمَا نُهُواْ عَنهُ وَإِنَّهُم لَكَذِبُونَ (٢٨)

﴿ بَل بَدَا لَهُم مَّا كَانُواْ يُخفُون مِن قَبلُ ﴾ معلوم أن الكفـــار - بحســـب أنواعهم–لما وقفوا على النار تمنوا الرجعة إلى الدنيا ، وما تمنوها حبـــا فى الإيمـــان ورغبة فيه ، وإنما كان هذا التمنى لما عراهم من الفزع الأكـــبر ، ومـــن الحـــيرة والدهشة مما شهدوا من هول الموقف ،وكيف لا ؟ وقد رأوا ما كذبوا به فى الدنيا قد أرداهم فى تلك الحيرة إلى أن أقسموا بالله أهم ما كانوا مشركين ، فأقـــام الله عليهم الحجة ، وأظهر بشهادة جوارحهم ما كانوا عليه من الكفر والنفاق والكبائر

،فبدا لهم هذا يوم القيامة ، إثباتا لكذبهم ، وهو الذى كانوا يخفون من قبل – أى :من قبل أن يظهر لهم — ولما كان غيرهم ممن ابتدعوا المفاسد والضـلالات مـن الرؤساء المتبوعين كانوا يخفون عن العامة أحكام الله وشرائعه ويبدلونها بما يوافـق أهواءهم ، وكانوا يخفون أخبار الله تعالى التى بين بها نبوة محمد ﴿ ﷺ وآله﴾ ،وما كان عليه المنافقون من إظهار الإيمان بالباطل وإخفاء الكفر ، كل تلك الأنواع من أهل الغرة بالله جائز أن يكون المراد من الآية ظهور ما كانوا عليه ، وبدا لكل نوع من هؤلاء ما أخفاه فى الدنيا أو يوم القيامة.

وفى هذه الآية من التخويف والتهديد ما يلين لوقعه الحديد ، ولكن قلوب أهل الكفر بالله فى أكنه — أعاذنا الله من سوء العاقبة — فثبت أن تمنيهم الرجعة إلى الدنيا فرار من عذاب النار ، لا رغبة فى أن يتجملوا بجمـال العبوديـة لله تعـالى والتصديق بالغيب ، كما فاز أهل الإيمان فى الدنيا .

﴿ وَلَو رُدُّواْ لَعَادُواْ لِمَا نُهُواْ عَنهُ﴾ أى : ولو ردوا بعد تكشف الحجـاب وإظهار الحقائق جلية ، ووقوع ما توعد الله به أهل الكفر ، وما أعده من الفـوز العظيم لأهل الإيمان ، لتناسوا كل ذلك كما وقع منهم نسيان يـوم: ﴿أَلسـتُ بِرَبكُم﴾ ونسيان معاهدة الله تعالى للأرواح ، وقوله سبحانه خبرا عنهم : ﴿ إِنَّـا كُنَّا عَن هَذَا غَافِلِينَ ﴾[1] لأن هؤلاء الكفار بالله وأهل النفاق ينظـرون بعيـون رؤوسهم فيشغلهم الكون المحسوس الملموس بما فيه من الخصوصيات والملاذ عـن تدبر آيات الله وبيانه ، وهذا الكون ـــ الذى هو الحجاب القاطع عن الله ـــ هـو البراق الموصل إلى الله تعالى ، وإن كل ما فيه من الأنواع المسخرة للإنسان دلائـل قائمة على تفرد الله تعالى بالألوهة دون غيره ، وعلى وحدانيته جل جلاله ، وعلى

١- سورة الأعراف ١٧٢ .

أن العبد محدث مقهور مكلف شاكر من أبدعه وأعانه ووالاه ، ومع تلك الحجج البالغة فإنهم لم ينظروا إليها بعيون الإيمان ،ولكنهم نظروا إليها بعيون البهائم السائمة ، فكانوا أضل منها ، فصدق الله العظيم فى قوله تعالى : ﴿ وَلَو رُدُّواْ ﴾ أى : ولو رجعوا إلى الدنيا وفارقوا تلك الحقائق التى أزعجتهم وأهالتهم لحجبهم حسهم عن تدبر ما فى هذا الكون من على الآيات وجلى البينات ، وعما يترله الله عليهم من محابه ومراضيه ﴿لَعَادُواْ لِمَا نُهُواْ عَنهُ ﴾ أى: لما نهاهم عنه ، من الكفر بالله وتكذيب رسله صلوات الله وسلامه عليهم ، ومن ارتكاب ما حرمه الله ﴿ وَإِنَّهُم لَكَٰذِبُونَ ﴾أى : إنهم كاذبون فى أمانيهم التى يتمنونها .

قوله تعالى : وَقَالُواْ إِنْ هِىَ إِلاَّ حَيَاتُنَا الدُّنْيَا وَمَا نَحْنُ بِمَبْعُوثِينَ (٢٩)

الوَاوُ هنا للعطف وجملة : قالوا ، معطوفة على قوله تعالى ﴿ لَعَادُواْ ﴾ وهذا خبر من الله تعالى عن خبث طباع هؤلاء القوم ، والمعنى ﴿لَعَادُواْ لِمَا نُهُواْ عَنهُ ﴾ وقد تبين قوله تعالى ﴿ وَإِنَّهُم لَكَٰذِبُونَ ﴾ جمله معترضة مثبتة كذبهم فى أمانيهم لأنهم لم يتمنوا أن يؤمنوا حقا ﴿ وَقَالُواْ إِنْ هِىَ إِلاَّ حَيَاتُنَا الدُّنْيَا ﴾ هذا هو قولهم لو قدر رجوعهم إلى الدنيا ، وهى الكلمة التى كانوا يقولونها للرسل إنكارا للبعث قبل أن يروا ما رأوا ، ولن تنفعهم رؤيتهم لنار جهنم التى أفزعتهم إذا رجعوا ، فإنهم سرعان ما يقولون تلك الكلمة لأن الله تعالى لم يقدر فى أزله لهم خيرا حقيقيا ، والخير الحقيقى هو الله ومن والاه وما والاه ، وما سواه فشر كله ، قال ﴿ ﷺ وآله﴾ : ﴿ آلدُّنيَا مَلعُونة ومَلعُون مَا فِيهَا إِلاَّ ذِكر آللهِ وَمَا وَالاَهُ ﴾[1].

١- رواه الترمذى : زهد ١٤ ، وابن ماجه : زهد ٣.

قوله تعالى خبرا عنهم : ﴿ وَمَا نَحْنُ بِمَبْعُوثِينَ﴾ أنكروا البعث الذى أخبرهم به الرسل عليهم السلام عن الله تعالى ، وإنكار البعث يغضب الله تعالى ، ولا ترى إنسانا يرتكب محارم الله تعالى وهو يؤمن بيوم الحساب ، قال الله تعالى : ﴿ الْيَوْمَ نَنسَاكُمْ كَمَا نَسِيتُمْ لِقَاءِ يَوْمِكُمْ هَذَا ﴾[1] ، وقال تعالى : ﴿ بِمَا نَسُوا يَوْمَ الْحِسَابِ ﴾[2].

فالإيمان بيوم القيامة يجعل الإنسان مراقبا لله فى كل قول وعمل وحال ، ومن آمن ببعض الكتاب وكفر ببعضه فهو كافر ، والمؤمن هو الذى لم ينس يوم الحساب ولا معية الله له ، ولا علم الله به ، ومتى كملت تلك الحقائق للعبد كان مع الله وكان الله معه ، ومن كان مع الله لا تعلم نفس ما أخفى له من قرة أعين ، قال ﴿ ﷺ وآله﴾ : ﴿ كُن مَعَ اللهِ تَرَ اللهَ مَعَكَ ﴾ .

قوله تعالى : وَلَوْ تَرَى إِذْ وُقِفُواْ عَلَى رَبِّهِمْ قَالَ أَلَيْسَ هَذَا بِالْحَقِّ قَالُواْ بَلَى وَرَبِّنَا قَالَ فَذُوقُواْ العَذَابَ بِمَا كُنتُمْ تَكْفُرُونَ (٣٠)

هذه الآية خبر من الله تعالى يخبر به خاتم الأنبياء ، ومعناها : ﴿ ولو ترى﴾ يا محمد إذ وُقفوا ، و ﴿ إذ ﴾ هنا بمعنى إذا كما تقدم ﴿ وُقِفُواْ عَلَى رَبِّهِمْ ﴾ أى : حبسوا على قضائه وحكمه سبحانه وتعالى ، ولديها ﴿ قال ﴾ سبحانه لهم : ﴿ أَلَيْسَ هَذَا بِالْحَقِّ ﴾ أى : أليس يوم القيامة الذى ترونه الآن حقا بعد أن كنتم تكذبون به وتجحدونه ﴿ قَالُواْ بَلَى وَرَبِّنَا ﴾ معناها أنه حق ، فثبت تصديقهم به ، بل بلغوا مقام اليقين الحق .

١- سورة الجاثية آية ٣٤ .

٢- سورة ص آية ٢٦ .

﴿ قَالَ فَذُوقُواْ العَذَابَ بِمَا كُنتُمْ تَكْفُرُونَ ﴾ معنى هذه الآية أن الله تعالى أقام عليهم الحجة بأنهم كذبوا فى الدنيا بالحق وأنكروه حتى وقعوا فيه ، فلم ينفعهم إيمانهم به يوم القيامة بعد كفرهم به فى الدنيا ، وفى قوله تعالى : ﴿ فَذُوقُواْ العَذَابَ﴾ إشارة إلى تنفيذ ما توعدهم به فى الدنيا ، مما كانوا يهزأون به ، يؤذون الرسل صلوات الله وسلامه عليهم لأجله ، وفى قوله : ﴿ بِمَا كُنتُمْ تَكْفُرُونَ ﴾ بيان إلى أن إنكار يوم القيامة والغفلة عن العمل له كفر بالله تعالى .

هنا ظهر أنّ الإيمان بالغيب هو الإيمان المقبول عند الله ، لأنه يدل على أن نفس المؤمن صيغت من جمال الله تعالى فقبلت عن الله ما يحبه ويرضاه ، وإنكار يوم القيامة ونسيان العمل له برهان على كفر المرء ، وأن نفسه صيغت من سجين ، والواجب على أهل الإيمان أن يقولوا آمنا به كُلٌّ من عند ربنا ، ولا نفتح أبواب الفتن بأن نقيس القرآن بالعقل ، فنقول إن الله قدر عليهم الكفر فلِمَ يعذبهم ، فإن ذلك سوء أدب مع الله تعالى ، والمتكلم فى هذا بعيد عن الحق ، محروم من التسليم لله تعالى ، والقرآن هو الحجة البالغة ، والعقل مخلوق مربوب مقهور ، يتلقى عن الله ما ينال به السعادة فى الدنيا والآخرة .

قوله تعالى : قَدْ خَسِرَ الَّذِينَ كَذَّبُواْ بِلِقَاء اللّهِ حَتَّى إِذَا جَاءتْهُمُ السَّاعَةُ بَغْتَةً قَالُواْ يَا حَسْرَتَنَا عَلَى مَا فَرَّطْنَا فِيهَا وَهُمْ يَحْمِلُونَ أَوْزَارَهُمْ عَلَى ظُهُورِهِمْ أَلاَ سَاء مَا يَزِرُونَ (٣١)

﴿ قَدْ خَسِرَ ﴾ معلوم أن الخسران لا يكون إلا فى البيع والشراء ، ولما كان المكذبون بيوم القيامة العادلون بربهم قد باعوا الجنة والإيمان بالله والعمل ليوم القيامة ؛ فكفروا وكذبوا وأنكروا ؛ فكأنهم باعوا الإيمان والجنة بالكفر والنار ، فلما قامت القيامة ورأوا النار وأنهم مواقعوها تحققوا أنهم خسروا بكفرهم بالله

وتكذيبهم محمدا ﴿ ﷺ وآله﴾ وإنكارهم يوم البعث ، وأى خسارة أكبر من هذه الخسارة ؟ فإنهم ــ والعياذ بالله ــ حرموا الفوز بالنعيم المقيم ، وبــاءوا بخســران مبين .

﴿ الَّذِينَ كَذَّبُواْ بِلِقَاءِ اللّهِ ﴾ أى : كذبوا بقيام الساعة الــتى لا ينســاها المؤمن ولو جلس على عرش ملك الأرض ، وكيف ينسى المؤمن يوم القيامة وهو يرى الموتى يحملون إلى القبور فى كل يوم ، ويرى الدنيا فانية زائلة ، ويرى نعيمها مشوبابالمنغصات والمكدرات فلا يصفو له يوم واحد ، وكيف ينسى يوم القيامــة وقد بين الله يوم القيامة ، وما أعده فيه لأهل الإيمان من العفو والمغفرة ومن النعيم المقيم ومن الإحسان بجوار الأخيار من رسل الله ومن كمل أتباعهم ، ومن الفــوز بالرضوان الأكبر فى مقعد صدق عند مليك مقتدر ، وسمع من الصادق الأمــين فى الدنيا ما توعد به أهل الكفر بالله ، وأهل الغفلة عن العمل ليوم القيامة المنعمين فى حظوظهم فى الدنيا ، ثم الشقاء والعذاب بعد الموت ، وكشف الحقــائق فى القــبر حتى يكونوا فى آلام وهموم وأحزان ، ومن العذاب والخلود فى نار جهــنم يــوم القيامة ، ومع هذا كله فإنهم ينسون يوم القيامة ، وتشغلهم شهواتهم وحظــوظهم فيقعون فى معصية الله ، حتى إذا وقفوا على النار ، أى : وقفوا على حكم ربهــم وقضائه ، ندموا على ما فرطوا فى جنب الله تعالى .

﴿ حَتَّى إِذَا جَاءتْهُمُ السَّاعَةُ بَغْتَةً ﴾ أى : قامت القيامة فجأة مــن غــير استعداد لها أو علم بمجيئها ، ففاجأتهم مفاجأة أذهلــت عقــولهم ، وأدهشــت أحلامهم ، وأوقعتهم فى الحيرة التى جعلت كل واحد منهم يتمنى أن يكون ترابا ، حيث لا ينفع يومئذ ندم .

﴿ قَالُواْ ﴾ عندما باغتتهم القيامة بأهوالها التى أنذرهم رســول الله ﴿ ﷺ وآله﴾ ، ضاق عليهم الموقف بما رحب فقالوا : ﴿ يَا حَسْرَتَنَا ﴾ أى : يا نــدامتنا ويا خيبتنا ﴿ عَلَى مَا فَرَّطْنَا فِيهَا ﴾ أى : على ما أهملنا وغفلنا عن العمل لهذا اليوم الرهيب .

هذه الآية إذا تذكرها المؤمن بالله ذاب قلبه من خوف العاقبة وخشى على إيمانه أن يسلب فيقع فيما وقع فيه هؤلاء ، أعاذنا الله بوجهه الجميل .

﴿ وَهُمْ يَحْمِلُونَ أَوْزَارَهُمْ عَلَى ظُهُورِهِمْ ﴾ هذا خبر من الله تعالى عمــن أقسموا له سبحانه يوم القيامة أهم ما كانوا مشركين ــ مع ما كانوا عليه فى الدنيا من الشرك ــ وبعد أن أظهر الله لهم يوم القيامة خفايا أنفســهم إلى أن قــالوا : ﴿ يَا حَسْرَتَنَا عَلَى مَا فَرَّطْنَا فِيهَا ﴾ والحال أهم يحملون أوزاهم علــى ظهــورهم والوزرُ : هو الثقل لغة ، ومعنى الأوزار هنا هى الآثام والخطايــا ، ولمــا كانــت الأحمال توضع على الظهور ذكر هنا الأحمال والظهور ، وتأويل هذه الآيــة أن الله جمع على هؤلاء الكافرين – من قريش وغيرهم – عذاب النار لظــاهرهم ، وآلام الحسرة والندامة لباطنهم ،ومعنى﴿ يَحْمِلُونَ أَوْزَارَهُمْ ﴾ أن حســرهم وندامتــهم وآلامهم قائمة بقلوهم لا تفارقهم أبدا ، مع ما هم فيه من أليم العذاب وشــديد العقاب .

﴿أَلاَ سَآءَ مَا يَزِرُونَ ﴾ أى : آثامهم التى ارتكبوها فى حياهم الدنيا مــن الكفر والعناد وتكذيب رسول الله ﴿ ﷺ وآله﴾ والغفلة عن يوم الحساب ، ولــو تدبر الإنسان أن الذى خلقه وأمده بما لا بد له منه وأكمل ، هو الذى كلفه وأمره وهاه ، وإلى محابه ومراضيه دعاه ، لسمع وأطاع وأسرع ملبيا ، ولو صــدَّق اللهَ تعالى فيما أخبره سبحانه فى وعد ووعيد لعلم أن الدار الدنيا دار بلاء وعناء ، ودار

رحيل وفناء ، فاز فيها أهل التقوى ، وخسر فيها أهل النفاق ، أعاذنا الله من سوء القضاء وقضاء السوء ، إنه نعم القريب المجيب .

قوله تعالى : وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلاَّ لَعِبٌ وَلَهْوٌ وَلَلدَّارُ الآخِرَةُ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ يَتَّقُونَ أَفَلاَ تَعْقِلُونَ(٣٣)

﴿ وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلاَّ لَعِبٌ وَلَهْوٌ﴾ هذه الآية الشريفة قصمت ظهور أهل الكفر المنكرين ليوم القيامة ، القائلين : إن هى إلا حياتنا الدنيا ، وبذلك حرصوا على الدنيا وطمعوا فيها وغفلوا بالكلية عن الآخرة و لم يعملوا لها ، مع وضوح زوال الدنيا ودناءتها ، والحياة الدنيئة هى كحياة البائهم السائمة التى تحرص على المأكل والمشرب والمنكح ، أو تحرص على جمع الطعام كما يفعل النمل والجرذان والنحل ، ومعنى هذه الآية : وما الحياة الدنيا وما فيها من الملاذ والشهوات والرياسات ونفوذ الكلمة وعلو الجاه بغير الحق إلا حياة اللاعب الذى ينفق أنفاسه وصحته وأمواله فيما يضره ولا ينفعه ثم بعد ذلك يندم ، أو كحياة اللاهى الذى لا يعلم شيئا ، ولا يدرك شيئا ، وقد يلهو بما يضره عاجلا أو آجلا ، فإذا انتهى وقت اللعب واللهو وقع فى الحزن والأسى ، وكفى بهذا تعذيبا لأهل الكفر بالله تعالى .

﴿ وَلَلدَّارُ الآخِرَةُ﴾ اللام هنا للقسم ، والدار الآخرة أى : دار الإقامة فى النعيم المقيم أو العذاب الأليم ، وَالآخِرَةُ أى : المتأخرة بعد الأولى ﴿ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ يَتَّقُونَ ﴾ أى : هى الدار التى يفوز فيها من عملوا لها مما هو خير فى الحقيقة ونفس الأمر ، وهو نيل رضوان الله الأكبر بعد الفوز بالنعيم المقيم بدليل قوله تعالى ﴿ لِّلَّذِينَ يَتَّقُونَ ﴾ أى : الذين يخشون ربهم فيتقون الوقوع فيما يغضبه ، وأما الذين غفلوا عن العمل لتلك الدار ؛ ورضوا بالحياة الدنيا واطمأنوا بها ؛ وعاشوا فى الدنيا فى لهو ولعب ؛ فأولئك الذين ضروا أنفسهم ﴿ أَفَلاَ تَعقِلُونَ ﴾ أفلا يتدبر

هؤلاء الكفار بالله بعقولهم آيات الله التى أنزلها على رسله عليهم الصلاة والسلام ، ودلائله التى أودعها فى مكوناته وآلائه التى تفضل بها عليهم ؟ وفى هذا الاستفهام من التوبيخ والتشنيع عليهم ما فيه .

قوله تعالى : قَدْ نَعْلَمُ إِنَّهُ لَيَحْزُنُكَ الَّذِى يَقُولُونَ فَإِنَّهُمْ لاَ يُكَذِّبُونَكَ وَلَكِنَّ الظَّالِمِينَ بِآيَاتِ اللّهِ يَجْحَدُونَ(٣٣)

﴿ قَدْ نَعْلَمُ إِنَّهُ لَيَحْزُنُكَ الَّذِى يَقُولُونَ ﴾ هذه الآية الشريفة تثبيت من الله تعالى لفؤاد رسوله ﴿ ﷺ وآله﴾ ، فساق الخبر جل جلاله مؤكداً باللاَّمِ وَبِقَد ، وأتى سبحانه بنَعلَم ليقوى يقين رسول الله ﴿ ﷺ وآله﴾ ، لأن علم الله أزلى لا افتتاح لأوليته .

﴿ إِنَّهُ لَيَحْزُنُكَ ﴾ أكد الخبر بحرف توكيد ، وأتى بضمير الغيبة هنا للدلالة على نباهة الخبر ، وأنه معلوم لله تعالى ، لأن رسول الله ﴿ ﷺ وآله﴾ كان يدعو لله تعالى بالحكمة والموعظة الحسنة دعوة يلين لها الحجر لما جمله الله به من الحرص على الخلق أجمعين ، ومن الرحمة والرأفة بجميع المؤمنين ، فهو ﴿ ﷺ وآله﴾ رحمة الله العامة لجميع خلقه من العوالم كلها ، فما من مخلوق خلقه الله من أعلى عليين على أسفل سافلين إلا وناله قسط من رحمته ﴿ ﷺ وآله﴾ ، ولو لم يكن لهم إلا تأخير العذاب عنهم ببركته ﴿ ﷺ وآله﴾ بدليل قوله سبحانه : ﴿ وَمَا كَانَ اللّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنتَ فِيهِمْ ﴾[1] ورسول الله ﴿ ﷺ وآله﴾ لا يزال فيهم إلى يوم القيامة فى حياته

١- سورة الأنفال آية ٣٣.

الكونية وبعد رفعه إلى الرفيق الأعلى بدليل قوله تعالى : ﴿ وَاعْلَمُوا أَنَّ فِيكُمْ رَسُولَ اللَّهِ ﴾(1) لأن هذا كلام قديم أزلى لا يتعلق بالصحابة فحسب .

فرسول الله ﴿ ﷺ وآله﴾ حى حياة كونية بما ورَّثه من العلم والأسرار لورثته ، ولو أنه فقد منهم لقامت القيامة (2) ، وورثة رسول الله ﴿ ﷺ وآله﴾ فينا بالصورة المحمدية ، لكل وارث منهم قسط من معانى كمالاته ، فمنهم حفاظ شريعته ، ومنهم حملة أماناته ، ومنهم المبينون لأسراره ، ومنهم المتجملون بأحواله ﴿ ﷺ وآله﴾ ، وعلمه كله فى العالم كله ، ولو اجتمعت الأمة بعلمائها لكانوا جميعا صورة كاملة له ﴿ ﷺ وآله﴾ .

وقد كان بعض الصحابة رضوان الله عنهم يسمعون من التابعين ، كما حصل لأنس بن مالك مع الحسن البصرى ، لما كان أنس رضى الله عنه فى البصرة وزاره الحس البصرى وهو مولى وتابعى ، وسأله قائلاً : يَا خَادِمَ رَسُولِ اللهِ ﴿ ﷺ وآله﴾ أسمِعنَا كَلاَمَ رَسُولِ اللهِ ، فأسمعه ثلاثة عشر حديثا ، فقال له الحسن : بيّن لنا أسرار هذه الأحاديث ، فقال أنس : إِنَّمَا أَنَا خزَانَةُ عِلمٍ يَا بُنَى ، فقال : تَأمُرُنِى أن أتكَلَّمَ بِمَا فَهِمتُ ؟ قال : تَكَلَّم يَا بُنَىّ ، فروى الحسن الأحاديث كلها التى سمعها من أنس ثم بدأ يشرح حديثا حديثا ، فنزل أنس عن الوسادة وقال : اجلس هنا يا بنى ، ونظر إلى أهل البصرة وقال : يا أَهل آلبَصرَةِ أَيَكُونُ بَينَ ظَهرَانيكُم هذَا آلبَحرُ وَتَردُونَ عَلَىَّ ؟! والمقصود كله الفقه ، لا تحصيل العلم ولو كان كأمثال الجبال ، وكما حصل لأحمد بن حنبل غفر الله له ولنا مع محمد بن إدريس الشافعى

1- سورة الحجرات آية ٧.

2- راجع ((الطهور المدار على قلوب الأبرار)) صفحة ٨ ، يطلب من دار الكتاب الصوفى لنشر تراث الإمام المجدد السيد محمد ماضى أبى العزائم قدس سره ، ١١٤ ش مجلس الشعب ــ القاهرة .

عندما أركبه ركوبته ووضع يده على ظهر الركوبة ، وكان محمد ابــن إدريــس غريبا فى بغداد ، فلقى أحمد بن جنبل عالم من علماء بغداد فقال : يَا أَحمَدُ ، تَتَرُكُ سَمَاعَ حَدِيثِ رَسُولِ اللهِ ﴿ ﷺ وآله﴾ بآلسَّنَد الأَعلَى وَتَسمعُهُ بآلسَّنَدِ الأدنَــى ؟ فالتفت إليه أحمد وقال : يَا أخِى إِن فَاتَنِى سَمَاعُ كَلاَمِ رسُولِ آللهِ بآلسَّنَد آلأَعلَى لَم يَفتنِى سَمَاعُهُ بِآلسَّنَدِ آلأَدنَى ، وَلَكِن إِن فَاتَنِى فِقهُ هَذَا آلرَّجُلِ فَاتَنِى كُلُّ خَيرٍ . ظهر من هذا أن المراد هو الفقه الذى يعطاه العبد فى دين الله تعالى .

وكان حزن رسول الله ﴿ ﷺ وآله﴾ ــ بعد ما بيناه من الدعوة بالحكمــة والموعظة الحسنة ، ومما جمله الله به من الحرص على هداية الخلق ، ومــن الرحمــة والرأفة ، مع جحود قومه وإنكارهم عليه ، وتكذيبهم له ، وأذيته ﴿ ﷺ وآلــه﴾ وأذية من يؤمن به ، فكانت هذه الأحداث تحزنه ﴿ ﷺ وآله﴾ ــ لكمال خشيته من الله تعالى ، ويقينه صلوات الله وسلامه عليه أنه ربما قصر فى الدعوة أو أتى بمــا ينفر ، والله تعالى أرحم بحبيبه محمد﴿ ﷺ وآله﴾ وأشفق ، فثبَّت فؤاده بإعلامــه صلوات الله وسلامه عليه أن تكذيب الكفار لك وجحدهم بى بعد عدو لهــم إلى الأوثان والأنداد وبعد اتخاذهم لى ولدا ، كل تلك الضلالات والكفر بى ليســت موجهة إليك لأنك رسولى ، وقد قامت المعجزة على صدق رسالتك فلا تحــزن ، فإنى أقمتك مقامى ، وجملتك بما لم أجمل به رسولا من قبلك ، فإن الرســل مــن قبلك كان الرسول منهم إذا أنكر عليه قومه أو آذوه دعا عليهم فاســتجبت لــه فأهلكت قومه ، كما فعلتُ بقوم نوح وهود وصالح ولوط وموســى وعيســى ، ولكنك رحمة للعالمين ، وقد قمت بالبلاغ المبين ، وهم قوم لا يعقلون .

﴿ فَإِنَّهُمْ لاَ يُكَذِّبُونَكَ وَلَكِنَّ الظَّالِمِينَ بِآيَاتِ اللَّهِ يَجْحَدُونَ ﴾ هذه الآيــة الشريفة اختلف فيها العلماء ، فمنه من أثبت أن القوم كانوا يعتقدون صدق رسول الله ﴿ ﷺ وآله﴾ وصحة دعوته ، ولكنهم كانوا ينكرون ما جاء به مــن الحــق

لبغضهم الحق ، وقد ورد ـــ كما تقدم ـــ أن كثيرا من كفار قريش جلسوا مع رسول الله ﴿ ﷺ وآله﴾ ثم اختلفوا فتكلموا ، فمنهم من قال : إنى ما سمعت شيئا ولكنى رأيت لحيته تتحرك بكلام ، وقال أبو سفيان : إن كلامه لعلى من الخلق ، وقال أبو جهل : إنه لصادق ما كذب أبدا ، ولكن أنكر أن تكون السدانة والسياقة والنبوة فى بنى قصى ، فظهر أنهم لم يكذبوا رسول الله ﴿ ﷺ وآله﴾ ، و لم يثبتوا عليه كذبا من طفولته ، ولكنهم جحدوا آيات الله تعالى ، وهى حججه وعلاماته وأدلة توحيده التى أنزلها فى القرآن المجيد ، والتى أظهرها فى الكون المحسوس الملموس ، وما أظهره جل جلاله من المعجزات الباهرات المؤيدة لرسول الله ﴿ ﷺ وآله﴾ التى هى فى قوة صدق عبده ، فاقبلوا منه مما لا يقدر على إيجاده إلا الله تعالى ، والمعجزات كثيرة جدا صحت بالتواتر ، وأعظمها وأجلها كتاب الله الذى أعجز فطاحل العرب الذين كان بلغاء العرب يسجدون لكلامهم المعلق على الكعبة . وبعضهم قال : فإنهم لا يكذبون أى أن بعضهم لا يكذب ، وبعضهم رأى أن الكلام يشير إلى أن رسول الله ﴿ ﷺ وآله﴾ لم ينطق عن الهوى ، وأن المتكلم حقيقة هو الله على لسان نبيه ، فلم يكن التكذيب لمحمد ﴿ ﷺ وآله﴾ ولكنه جحود بالله وكفر به ، أعاذنا الله وإخوتنا المؤمنين من اتباع الحظ والهوى .

قوله تعالى : وَلَقَدْ كُذِّبَتْ رُسُلٌ مِّن قَبْلِكَ فَصَبَرُواْ عَلَى مَا كُذِّبُواْ وَأُوذُواْ حَتَّى أَتَاهُمْ نَصْرُنَا وَلاَ مُبَدِّلَ لِكَلِمَاتِ اللّهِ وَلَقدْ جَاءكَ مِن نَّبَإِ الْمُرْسَلِينَ(٣٤)

﴿ وَلَقَدْ كُذِّبَتْ رُسُلٌ مِّن قَبْلِكَ ﴾ هذه الآية الشريفة تسلية وتعزية وتثبيت لفؤاده ﴿ ﷺ وآله﴾ ، ومعناها أن الله تعالى أرسل الرسل عليهم الصلاة والسلام ليكونوا شهداء لمن آمن بهم ، لأنهم سمعوا وأطاعوا ، وسارعوا إلى محاب الله ومراضيه ، وصدقوهم فيما جاءوا به من عند الله تعالى ، وحجة على أهل النفاق والكفر بالله ، ليفوز أهل الإيمان بالنعيم المقيم يوم القيامة ، وليهلك من هلك من

المنافقين والكفار على بينة فيكونون كما قال تعالى : ﴿فَرِيقٌ فِي الْجَنَّةِ وَفَرِيقٌ فِي السَّعِيرِ ﴾[1]

كل هذه الآيات أدلة قائمة على أن رسول الله ﴿ ﷺ وآله﴾ كان كما أخبر الله عنه بقوله : ﴿ حَرِيصٌ عَلَيْكُم بِالْمُؤْمِنِينَ رَؤُوفٌ رَّحِيمٌ ﴾[2] فإن رحمته بالقوم وإشفاقه على أن يهديهم الله للإسلام كان يحزنه حزنا يكاد يذهب بنفسه صلوات الله وسلامه عليه ، و لم يكن كذلك الرسل من قبل ـــ كما بينا فيما سبق ـــ وقد أكد الخبر بِالّلامِ وَبقَد ، ليطمئن قلب رسول الله ﴿ ﷺ وآله﴾ ، وقوله : ﴿ مِّن قَبْلِكَ ﴾ أى : من قبل بعثتك إلى الناس كافة .

﴿ فَصَبَرُواْ عَلَى مَا كُذِّبُواْ وَأُوذُواْ ﴾ تأويل هذه الآية الشريفة أن الله تعالى أرسل رسلا قبل محمد ﴿ ﷺ وآله﴾ فصبروا على تكذيب أممهم وأذيتهم لهم ، لأن ﴿ مَا ﴾ هنا مصدرية ﴿ حَتَّى أَتَاهُمْ نَصْرُنَا ﴾ أى : كان صبرهم وتحملهم بتكذيب من كذبوهم وأذيتهم لهم حاصلا من الرسل إلى أن نصرهم الله بالانتقام ممن كذبهم وآذاهم ، فكانت نصرة الله تعالى لهم تأييدا وعزا للرسل عليهم الصلاة والسلام .

وفى هذه الآية الشريفة إشارة إلى أن اله سبحانه وتعالى ـــ بعد أن أخبر بما فيه تسلية وتعزية وتثبيت لفؤاد الرسول ﴿ ﷺ وآله﴾ ـــ نبهه إلى سر مكنون ، وهو أن الرسل الذين لم يبعثوا إلى الخلق كافة صبروا من غير أن يحصل لهم حزن على تكذيب القوم لهم ، ولا كادت تنبخع نفوسهم من الندم على إنكار القوم

١- سورة الشورى آية ٧.

٢- سورة التوبة آية ١٢٨ .

عليهم ، وتحملوا تلك الفظائع بالصبر حتى انتقم الله من أممهم ، فلا تدفعك الرحمة على قومك والرأفة بهم إلى الحزن ، بل اصبر كما صبر أولو العزم من الرسل ، فأنت حجتى على القوم ، وليست لك هداية الإحسان ، ولكن الذى عليك هداية البيان ، ومهما كانت رحمتك ورأفتك بالمؤمنين وحرصك على الكافرين فإن ذلك لا يغير ما قدرتُ ، فاصبر كما صبر أولو العزم من الرسل ، وفيها إشارة أخفى من ذلك ، وهى أن رحمة رسول الله ﴿ ﷺ وآله﴾ ــ التى تتأثر بما يراه أو يعلم وقوعه بأعداء الله من النقم العاجلة أو الآجلة ــ تقتضى أن يحزن ، ولكن رحمة الله العلى المتره عن التأثير والتأثر يستوى فى حضرتها النعيم المقيم والعذاب الأليم ، ولذلك فإن الله تعالى يعزى نبيه ﴿ ﷺ وآله﴾ ويسليه ، ويثبت فؤاده بالآيات البينات ﴿ ﷺ وآله﴾ ، وذلك لأن الله لم يجمل أحدا من رسله بما جمل به حبيبه ﴿ ﷺ وآله﴾ حيث يقول تعالى : ﴿ حَرِيصٌ عَلَيْكُم بِالْمُؤْمِنِينَ رَؤُوفٌ رَّحِيمٌ ﴾[1] ويقول تعالى : ﴿ وَإِنَّكَ لَعَلى خُلُقٍ عَظِيمٍ ﴾[2] بإضافة عظيم إلى خُلق ، أى : على خُلقِ الله تعالى .

﴿ وَلاَ مُبَدِّلَ لِكَلِمَاتِ اللّهِ ﴾ معنى هذه الآية الشريفة أن أقدار الله التى قدرها وأخبر بها لا مبدل لها ، أى : ليس لأحد سوى الله تعالى أن يغيرها ، وفيها مزيد من تسلية لرسول الله ﴿ ﷺ وآله﴾ وفرح لأهل الإيمان . .

﴿ وَلَقدْ جَاءكَ مِن نَّبَإِ الْمُرْسَلِينَ ﴾ يعنى جل جلاله أن الله تعالى أنبأ محمدا ﴿ ﷺ وآله﴾ نبأ من نبإ المرسلين الذين قصهم عليه فى القرآن ، مما يتسلى به عن عناد وكفر وتكذيب أعداء الله تعالى له .

١- سورة التوبة آية ١٢٨ .

٢- سورة القلم آية ٤ .

قوله تعالى : وَإِن كَانَ كَبُرَ عَلَيْكَ إِعْرَاضُهُمْ فَإِنِ اسْتَطَعْتَ أَن تَبْتَغِى نَفَقًا فِى الأَرْضِ أَوْ سُلَّمًا فِى السَّمَاء فَتَأْتِيَهُم بِآيَةٍ وَلَوْ شَاء اللَّهُ لَجَمَعَهُمْ عَلَى الْهُدَى فَلاَ تَكُونَنَّ مِنَ الْجَاهِلِين (35)

سبب نزول هذه الآية الشريفة أن بعض كفار قريش طلبوا من رسول الله ﴿ﷺ وآله﴾ أن تترل لهم آية تدل على صدق رسالته كما أنزل للرسل من قبله ، ومعلوم أن حكمة الله تعالى اقتضت أن يترل لأمة كل رسول آية تناسبهم ، فأنزل الله لموسى العصا وكانوا قد تفوقوا فى السحر ، وأنزل لعيسى آية إبـراء الأكمـة والأبرص وإحياء الموتى لأن القوم كانوا بارعين فى الطب ، وأنزل لخـاتم رسـله ﴿ﷺ وآله﴾ القرآن المجيد معجزا فى أقصر سورة منه بعد التحـدى ، والنفـوس القابلة للفيض المقدس يكفيها قليل الحكمة ، والذين خبثت طباعهم فلـم يقبلـوا القرآن ؛ دل ذلك على خبث نفوسهم وأنها نفوس عنادية ، فـأبى الله تعـالى أن يستجيب لهم فى طلبهم ، ولكن رسول الله ﴿ﷺ وآله﴾ ـــ الحريص على إيمـانهم الرءوف الرحيم بالمؤمنين ـــ يسره جدا أن يترل الله لهم آية تجعلـهم يؤمنـون ـــ حرصا على إيمانهم ـــ لأنه ﴿ﷺ وآله﴾ رحمة للعالمين ، ولما حصـل لـه ﴿ﷺ وآله﴾ الحزن على إعراضهم عنه وتكذيبهم له ؛ أدبه الله تعالى بإنزال هذه الآيـة الكريمة ، ولهذا قال عليه الصلاة والسلام : ﴿أَدَّبَنِى رَبِّى فَأَحسَنَ تَأْدِيبِى ﴾ .

﴿ وَإِن كَانَ كَبُرَ عَلَيْكَ إِعْرَاضُهُمْ ﴾ والمعنى : إن كان إعراضهم عنـك وتكذيبهم لك وجحدهم ألوهيتى كبر عليك ـــ لما جملتك به من الرحمة الواسعة ـــ فحصل لك الحزن ربما يبخع نفسك حرصا على إيمانهم ، وقد بينت لك أنـك إن جئتهم بكل آية ما تبعوا قبلتك وأنهم لا يكذبونك ﴿ فَإِنِ اسْتَطَعْتَ أَن تَبْتَغِى نَفَقًا فِى الأَرْضِ ﴾ أى : فإن كنت لا تطيق صبرا على إعراضهم عنـك وتكذيبـهم وجحدهم بربهم ، فإن استطعت أن تتخذ نفقا فى الأرض ـــ أى : سردابا وطريقا

فى الأرض ـــ كما تصنع اليربوع النافق لتنجو بنفسها ﴿ أَوْ سُلَّمًا فِى السَّـــمَاء ﴾ أى : مرقى ومصعدا ﴿ فَتَأْتِيَهُم بِآيَةٍ ﴾ من السماء ، أى : ما يتغونـــه منـــك ، وحذف جواب الشرط للعلم به ، ولأنه ملاحظ من سياق الآية وتقديره : فافعل .

وفى هذه الآية الشريفة من كمال التأديب لرسول الله ﴿ ﷺ وآله﴾ ما فيها ، وفيها أيضا إشارة إلى أن الله تعالى إذا أقام الحجة للقوم على قدر ما هم فى حاجة إليه من طريق الحجة ، و لم يقبلوا يحكم عليهم بالكفر ولا يستجيب لهم ، وهـــى حكمة الله الماضية ، وقد أنزل القرآن معجزة دائمة لا تنتهى عجائبه ، وهو غـــض رطب ، يؤنس الأرواح ، ويطمئن القلوب ، ويشرح الصدور ، وتسجد له العقول ، اللهم إلا من سجل عليهم القضاء القطيعة عن الله تعالى ، وكم أكرم الله رسوله محمد ﴿ ﷺ وآله﴾ بمعجزات باهرات تكفى من وهبهم الله القابل عنه ، أما الذين سألوا رسول الله ﴿ ﷺ وآله﴾ أن يترل لهم آية من عند الله فقد برهنوا على أنهم لم يقبلوا عن الله شيئا ، وفى هذه الآية الشريفة تأديب لأهل الإيمان بالله الذين يظنون أنهم بالتقوى وبالعمل الصالح يستحقون أن يعطيهم الله ما يحبون فى الدنيا ـــ وهو دليل على الشرك الخفى ـــ فإن الله قد كرم العبد بالتوفيق والإخلاص ويحرمه ممـــا يظنه خيرا فى الدنيا ، وتكون لله عليه المنة بإعطائه ما هو خير عنده سبحانه .

﴿ وَلَوْ شَاء اللّهُ لَجَمَعَهُمْ عَلَى الْهُدَى ﴾ تأويل هذه الآية الشريفة أن الله لم يشأ أن يجمعهم على الهدى فى أزله ، والأمر بين هداية وضـــلالة ، إذا شـــاء أن يجمعهم على الضلالة ومتى قدر الله تعالى ذلك وقامت لهم الحجج كلها لم يقبلـــوا عن الله تعالى شيئا ، وهذا لطمأنينة قلب رسول الله ﴿ ﷺ وآلـــه﴾ ، وتعزيتـــه ، ويتسلى صابرا على قضاء الله عليهم ، وفى الآية الشريفة طهور يدار علـــى أهـــل التوحيد الكامل ، ولا حجة لمن يقول : شاء الله أن يضلهم وهو المضل ســـبحانه فكيف يعذبهم ؟ والقائلون بهذا القول جهلوا أسرار الإيجاد والإمـــداد ، والحجـــة

البالغة لله تعالى ، لأن الله تعالى أخفى سر قدره عن خلقه وأقام لهم الحجج تلو الحجج ، مبينا سبل الحجة وطرق الوصول إلى نيل السعادتين ، بيانا أزال اللبس عن الحقائق ، وجعل العقول ــ مهما كانت ــ تعرف الحق ولا تنكره ، قال تعالى : ﴿ فَإِنَّهُمْ لاَ يُكَذِّبُونَكَ وَلَكِنَّ الظَّالِمِينَ بِآيَاتِ اللّهِ يَجْحَدُونَ ﴾[1] ، ومن اطلع على سر القدر يعلم ما قدره الله تعالى عليه من المعاصى ، فإنه قد يكون له بعض العذر إذا خالف الأمر الظاهر الذى بعث به محمد ﴿ ﷺ وآله﴾ ، وقد أطلع على سر القدر سيدنا الخضر عليه السلام فنفذ ما علمه ، فلم يؤاخذه الله تعالى على مخالفة كليم الله تعالى الذى كان يعارضه بما يعلمه من الشريعة .

وليس على من يرتكب المعاصى إلا أن يندم على نفسه التى أقامها الله فيما يكره ، ويعتقد أن المقدر هو الله تعالى ، ويتوب إلى الله فيقبل توبته ويبدل سيئاته إحسانا ، وليس عليه أن يعترض على الله والواجب فى مثل هذه الآيات الشريفة أن يقول العبد : ﴿ آمَنَّا بِهِ كُلٌّ مِّنْ عِندِ رَبِّنَا ﴾[2] ولك أن تقول : إن الله بعث رسله صلوات الله وسلامه عليهم لهداية من سبقت لهم الحسنى أزلا ، وإقامة الحجة على الذين سبقت لهم السوءى أزلا .

﴿فَلاَ تَكُونَنَّ مِنَ الْجَاهِلِين ﴾ وينهى الله تعالى خاتم أنبيائه ــ بعد أن علمه ما لم يكن يعلم ــ عن أن يكون من الجاهلين الذين لم يعلموا شيئا لخبث طبعهم ورداءة جواهر نفوسهم ، وجائز أن يكون النهى عن أن يكون ﴿ ﷺ وآله﴾ من هؤلاء القوم الجاهلين الذين يطلبون من الله إنزال آية لهم جهلا منهم بقدر أنفسهم فى جانب الله تعالى ، وكم فى القرآن من مثل هذه الآيات الشريفة التى تشيب

١- سورة الأنعام آية ٣٣ .

٢- سورة آل عمران آية ٧ .

المصطفين الأخيار كقوله تعالى ﴿: فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ اللّهِ لِنتَ لَهُمْ وَلَوْ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ الْقَلْبِ لاَ نفَضُّواْ مِنْ حَوْلِكَ فَاعْفُ عَنْهُمْ وَاسْتَغْفِرْ لَهُمْ ﴾ [1] وقوله سبحانه : ﴿ عَفَا اللّهُ عَنكَ لِمَ أَذِنتَ لَهُمْ حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَكَ الَّذِينَ صَدَقُواْ وَتَعْلَمَ الْكَاذِبِينَ ﴾ [2] وقوله سبحانه : ﴿وَلَوْ تَقَوَّلَ عَلَيْنَا بَعْضَ الْأَقَاوِيلِ ﴾ [3] ففيها من الآداب الفاضلة الكاملة التى جعلته ﴿ ﷺ وآله﴾أقرب الخلق إلى الله ، وأخوفهم من الله ، وأعلمهم بالله تعالى ، كما تجعل المصطفين الأخيار أقرب الناس إلى رسول الله أدبا من الله .

قوله تعالى : إِنَّمَا يَسْتَجِيبُ الَّذِينَ يَسْمَعُونَ وَالْمَوْتَى يَبْعَثُهُمُ اللّهُ ثُمَّ إِلَيْهِ يُرْجَعُونَ(٣٦)

عظم على رسول الله ﴿ ﷺ وآله﴾ إعراض الكفار عنه وتكذيبهم له ، وجحدهم بالله تعالى ، حتى بلغ الحزن منه مبلغا عظيما ، فأنزل الله هذه الآية الشريفة تسلية له ﴿ ﷺ وآله﴾ ، فقال تعالى : ﴿ إِنَّمَا يَسْتَجِيبُ ﴾ أى : يقبل عن الله تعالى ﴿ الَّذِينَ يَسْمَعُونَ ﴾ أى : يسمعون سماع قبول بآذان الإيمان ، وهم الذين جعل الله لهم حياة روحانية يعقلون بها عن الله تعالى .

﴿ وَالْمَوْتَى يَبْعَثُهُمُ اللّهُ ﴾ تأويل هذه الآية الشريفة أن الموتى الذين ماتوا موتة عزرائيل يبعثهم الله يوم القيامة ، وهؤلاء ـــ الذين لم يقبلوا و لم يستجيبوا لله تعالى ولرسوله ﴿ ﷺ وآله﴾ ـــ موتى لفقدهم الحياة الإيمانية ، فالله تعالى يبعثهم يوم القيامة ، ويشهدهم ما كذبوا به فى الدنيا حقا ، كما يشهد من مات موتة

١- سورة آل عمران آية ١٥٩ .

٢- سورة التوبة آية ٤٣ .

٣- سورة الحاقة آية ٤٤ .

عزرائيل الحقائق المؤمن بها ، وبذلك يكمل يقينهم ، ولا ينفع المكذبين يقين يومئذ لأنهم فارقوا الدنيا كفارا ، قال تعالى : ﴿ يَوْمَ يَأْتِي بَعْضُ آيَاتِ رَبِّكَ لاَ يَنفَعُ نَفْسًا إِيمَانُهَا لَمْ تَكُنْ آمَنَتْ مِن قَبْلُ أَوْ كَسَبَتْ فِي إِيمَانِهَا خَيْرًا ﴾[1] لأن الآخرة ليست دار تكليف ولا تعريف ، وأهل الكفر بالله تعالى فى الحقيقة موتى عند الله وعند رسول الله ﴿ ﷺ وآله﴾ ، وعند أهل العلم بالله ، والله تعالى يبعث الموتى جميعا لا فرق بين من فارق الحياة الجسمانية أو فارق الحياة المعنوية مع بقاء الحياة الجسمانية كالكفار بالله تعالى ، وبعث هؤلاء قد يكون تفضل الله عليهم بهداية الإحسان التى لا يقدر عليها إلا الله تعالى ، وقد يميتهم بعزرائيل ثم يبعثهم بعد الموت فتنكشف لهم الحقائق التى لم يؤمنوا بها كما تقدم ، ويكمل إيمانهم من حيث لا ينتفعون بالإيمان .

﴿ ثُمَّ إِلَيْهِ يُرْجَعُونَ ﴾ هذه الآية الشريفة حجة على قيام الساعة وعلى أنها آتية لا محال ، وأن منكرى البعث سوف يقفون مواقف يتمنون فيها أن يكونوا ترابا و لم يكونوا كذبوا الرسل عليهم السلام ، وفى قوله تعالى : ﴿ ثُمَّ إِلَيْهِ يُرْجَعُونَ ﴾ دليل على أن الناس يمكثون فى قبورهم دورا كاملا يتفاوت زمانه بحسب ما قدره الله تعالى ، والذى خلق وأمدهم به بقدرته العلية وإرادته وتقديره هو الذى يعيدهم ، وذلك أهون عليه من إيجادهم ، وإنما هى كلمة : كن ، وقد سبق فى علمه القديم تخصيص إيجادهم فإماتتهم ثم بعثهم .

قوله تعالى : وَقَالُواْ لَوْلاَ نُزِّلَ عَلَيْهِ آيَةٌ مِّن رَّبِّهِ قُلْ إِنَّ اللّهَ قَادِرٌ عَلَى أَن يُنَزِّلٍ آيَةً وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لاَ يَعْلَمُونَ(٣٧)

١- سورة الأنعام آية ١٥٨ .

﴿ وَقَالُواْ ﴾ وقال أعداء الله من الذين اتخذوا الأصنام والأنداد آلهة وجعلوا لله ولدا ، تنزه وتعالى ﴿ لَوْلاَ نُزِّلَ عَلَيْهِ آيَةٌ مِّن رَّبِّهِ ﴾ يعنى : هلا نزل عليه آية من ربه ، وقد بينوا كلامهم هذا بقولهم فيما أخبرنا الله عنهم ﴿ مَالِ هَـٰذَا الرَّسُولِ يَأْكُلُ الطَّعَامَ وَيَمْشِي فِي الْأَسْوَاقِ لَوْلَا أُنزِلَ إِلَيْهِ مَلَكٌ فَيَكُونَ مَعَهُ نَذِيرًا أَوْ يُلْقَى إِلَيْهِ كَنزٌ أَوْ تَكُونُ لَهُ جَنَّةٌ ﴾[1] الآية .. وقالوا غير هذا جهلا منهم بما أظهره الله على يده ﴿ ﷺ وآله﴾ من الآيات فى أن بعثه وهو يتيم لا ناصر له إلا الله ، بين جاهلية عمياء صماء ، يدعوهم إلى عبادة الله تعالى والاعتراف له بالألوهية ، ولأنفسنا بالذل والعبودية ، وكم من آية أنزلها الله فى القرآن أعجزت فحولهم ، وأظهرها الله تعالى أسجدت قلوب أهل القبول من الله وهم عنها عمون .

وجائز أن يكون مرادهم بالآية كفلق البحر بعصا موسى ونتق الجبل ، وكالمائدة التى أنزلت على عيس ، وهم يجهلون حكمة إظهار تلك الآيات فى أزمنة الرسل السابقين عليهم السلام ﴿ مِّن رَّبِّهِ ﴾ أى : من ربه الذى يدعو إلى عبادته وتوحيده ، القادر على إحداث العجائب الكبرى .

﴿ قُلْ إِنَّ اللّهَ قَادِرٌ عَلَى أَن يُنَزِّلٍ آيَةً وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لاَ يَعْلَمُونَ ﴾ أى : قل يا محمد إن الله قادر على أن ينزل آية فوق ما أنزل من قبل لرسله السابقين عليهم السلام ولكنهم يجهلون ، لأنك يا حبيبى خاتم الرسل ، وبعثت رحمة للعالمين ، والآية إذا نزلت وكذب بها القوم أهلكتهم كما أهلكت قوم هود وصالح ولوط وشعيب وقوم موسى وعيسى ، وأرسلت بعدهم الرسل تترى ، ولكنك يا خاتم الرسل بعثت لنجاة العالم أجمع إلى يوم القيامة ، فلم أشأ أن أنزل عليهم آية من آياتى المحسوسة الملموسة التى بإنكارها يهلكون جميعا ، فتضيع الحكمة من بعثتك

١- سورة الفرقان آية ٧ ـــ ٨ .

خاتما للرسل ، وأن تقديرى عدم إنزال الآية التى يريدونها رحمة بهـــم ، وســـابقة الحسنى لمن يأتى بعدهم من خيار أمتك الذين يتمنى الواحد منهم أن يكـــون رآك ببذل نفسه وماله وأهله .

ودليل ما فهمته فى هذه الآية قوله : ﴿ وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لاَ يَعْلَمُونَ ﴾ أى : يجهلون هذه الحكمة فى عدم إنزال الآية التى يطلبونها منك ، ولو علموا الحكمـــة لتمنوا أن لا تنزل الآية إشفاقا على أنفسهم من عاقبة إنكار بعضهم لها ، فإن الخير يخص والمصائب تعم ، قال تعالى : ﴿ وَلَولاَ رِجَالٌ مُّؤمِنُونَ وَنِسَاءٌ مُّؤمِنَـــاتٌ لَّـــم تَعلَمُوهُم ﴾ إلى قوله : ﴿ لَوْ تَزَيَّلُوا لَعَذَّبْنَا الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ عَذَابًا أَلِيمًـــا ﴾[1] ، يعنى أن الله أخر فتح مكة عن عمرة الحديبية لأن مكة رجـــالا مـــؤمنين ونســـاء مؤمنات يجهلهم الأنصار ، فرحمة بهم أخر الله الفتح حفظا لهم ، وهؤلاء رجال فى بلد واحد ، فكيف ينزل الله على قريش آية فينكرها بعضهم كما أنكروا غيرها مما يستوجب هلاكهم جميعا ؟ بإهلاكهم جميعا لا يعبد الله فى الأرض ، لأنه سبحانه بإهلاكهم يهلك مؤمنهم وكافرهم ، فأين نكون نحن إذن ؟ فلله الحمد حتى يرضى ، وله الشكر ملء السموات والأرض وملء ما شاء من شيء بعد .

قوله تعالى : وَمَا مِن دَآبَّةٍ فِى الأَرْضِ وَلاَ طَائِرٍ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْـــهِ إِلاَّ أُمَـــمٌ أَمْثَالُكُم مَّا فَرَّطْنَا فِى الكِتَابِ مِن شَيْءٍ ثُمَّ إِلَى رَبِّهِمْ يُحْشَرُونَ(٣٨)

﴿ وَمَا مِن دَآبَّةٍ فِى الأَرْضِ وَلاَ طَائِرٍ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ ﴾ هذه الآية الشـــريفة قاصمة لظهور منكرى البعث العادلين بربهم المكذبين لرســـول الله ﴿ ﷺ وآلـــه﴾ الذين يقولون : ﴿ لَوْلاَ نُزِّلَ عَلَيْهِ آيَةٌ مِّن رَّبِّهِ ﴾ ، فالله تعالى يشنع على أهل الكفر

١- سورة الفتح آية ٢٥ .

به سبحانه وتعالى ، يقيم الحجة عليهم بأن جميع بنى الإنسان أمة من الأمم ، بـــل وأقل عددا من الأمم الأخرى وأضعف جسوما وأشد اضطرارا إلى الإيمان بربهم ، لكثرة ضروراتهم ، ولعجز الواحد منهم عن أن يقوم لنفسه بأقل الضروريات ، مع جهلهم بأنفسهم وبما هو نافع لهم ، مع أنهم هم الذين يبعثون يوم القيامة لحياة طيبة فى النعيم المقيم ، أو لشقاء وعناء فى العذاب الأليم ، ولو أنهم نظروا إلى ما أحـــاط بهم لفازوا بالحسنيين ، فالله جل جلاله يبين لهم حقائق ما أحاط بهم فى هذه الآية ، ومعناها أن كل دابة فى الأرض ، وَٱلدَّآبَّةُ : هى كل ما تدب علـــى الأرض مـــن الحيوانات جميعها بأنواعها على ألأرض اليابسة أو فى الماء من البعوضة الصغيرة إلى ما فوقها من حيوانات البحر على كثرة أنواعها ، وحيوانات البر و تفاوت أشكالها وألوانها وصغر أجسامها أو كبرها ، بل ولا طائر يطير فى الأجواء والأرجاء بجناحيه مع اختلاف أجناسها وأنواعها وأشكالها ﴿ إِلاَّ أُمَمٌ أَمْثَالُكُم ﴾ بحسب رتبة كـــل نوع منها ، وتصرفها فيما سخرت له تصرف الخبير ودفع للمضار ، وتدبير لما ينفع للمجتمع، كالنمل والنحل والقردة ، كما يتصرف بنـــو الإنســـان فى شـــئونهم الشخصية التى تدعو إليها الضرورة ، وهذه الدواب بحسب اختلافها معلومـــة لله تعالى بأعمالها وحركاتها وسكناتها ، ومحفوظ عليها كل ما وقع منها ، وسيبعثها الله يوم القيامة كما يبعث البشر ، ويحشرها إليه كما يحشر البشر ، ثم يقول لها : كونى ترابا ، لديها يتمنى الكافر أن يكون مثلها ترابا .

ومن وسع علمه ما يعجز العقل عن حصر أنواعها ، ووســـعت قدرتـــه إيجادها وإمدادها سبحانه بما لابد لها ، وهو قادر سبحانه على أن يعيدها ، كيـــف يجحده بنو الإنسان ؟! مع أن كل تلكم الدواب تعرف الله تعالى وتلتجىء إليه عند الشدة ، ولها عقول على قدر مرتبتها ، وهذا الإنسان الذى جملـــه الله بالفضـــل والبيان وأقام له سبحانه وتعالى الحجج يجحد ربه ويكذب رسله !! .

وليس المراد أنها أمثالنا فى كل ما تفضل الله به علينا ، من أنه سبحانه خلقنا فى أحسن تقويم وسخر لنا ما فى السموات وما فى الأرض جميعا منه ، وأرسل لنا الرسل للهداية ، ولكنها أمثالنا فى أنه سبحانه هداها الهداية العامة التى بها تعيش وتقوم برسالتها ، ويسخر لنا كل ذلك بعلم أزلى وتقدير ربانى وحكمة علية ، فسبحان من لا يعزب عن علمه شىء ، العالم بكل شىء علما يفوق علوم مخلوقاته جميعها .

﴿ مَّا فَرَّطْنَا فِى الكِتَابِ مِن شَيْءٍ ﴾ أى : فى الكتاب الذى كتبناه أزلا وهو أم الكتاب ، فما عليه الوجود هو ما كتبه الله تعالى فى أم الكتاب أزلا من أول بدء الخلق إلى ما لا نهاية ، قال علىّ عليه السلام : (لَو ضَاعَ منىّ عِقَالُ بَعِيرٍ لَوَجَدتُهُ فِى كِتَابِ آللهِ تَعَالَى) .

﴿ ثُمَّ إِلَى رَبِّهِمْ يُحْشَرُونَ ﴾ حشر كل دابة — سوى الإنسان — إلى ربها بموتها ، فإن الموت حشر ومعنى حشرها أى : تنفيذ قضاء الله فيها ، وقهرها على الرجوع إليه ، ثم حشر بنى الإنسان جائز أن يكون بالموت فإن الموت حشر ، وجائز أن يكون بالبعث يوم القيامة وهو حشر أيضا ، وجائز أن يكون بظهور جهنم تسوق الناس إلى أرض المحشر وهى ترمى بشرر وهو حشر أيضا ، وذلك بعد قيام الناس من قبورهم حفاة عراة غرلا لا يدفع عنهم العذاب إلا الشفاعة العظمى التى وردت بصحيح الأحاديث الصحيحة ، ووردت فى القرآن بصريح الآية فى قوله تعالى : ﴿ عَسَى أَن يَبْعَثَكَ رَبُّكَ مَقَامًا مَّحْمُودًا ﴾[1] وذلك المقام هو الشفاعة العظمى التى يحمده ﴿ ﷺ وآله﴾ عليها كل من بعثهم الله من الجن والإنس والملائكة ، ولما كان الحشر حشر أهل الكفر والنفاق إلى جهنم ، قال

١- سورة الإسراء آية ٧٩ .

تعالى : ﴿ يَوْمَ نَحْشُرُ الْمُتَّقِينَ إِلَى الرَّحْمَنِ وَفْدًا وَنَسُوقُ الْمُجْرِمِينَ إِلَى جَهَنَّمَ وِرْدًا﴾[1] .

قوله تعالى : وَالَّذِينَ كَذَّبُواْ بِآيَاتِنَا صُمٌّ وَبُكْمٌ فِي الظُّلُمَاتِ مَن يَشَإِ اللّهُ يُضْلِلْهُ وَمَن يَشَأْ يَجْعَلْهُ عَلَى صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ(٣٩)

﴿ وَالَّذِينَ كَذَّبُواْ بِآيَاتِنَا ﴾ بعد أن أثبت الله تعالى أن الاستجابة له سبحانه لا تكون إلا لمن منحهم حياة الإيمان ، والذين لا يستجيبون حكم عليهم بأنهم موتى ، وفى هذه الآية الشريفة يبين لنا أن الذين كذبوا بمحمد ﴿ ﷺ وآله﴾ وبما جاء به من عند الله أو كذبوا بكل آيات الله تعالى ﴿ صُمٌّ ﴾ لا يسمعون عن الله سماع قبول ﴿ وَبُكْمٌ ﴾ لا يتكلمون بالحق الذى تقوم به الحجة على صدقهم ، وإن سمعوا غير ذلك وتكلموا بغير ذلك ﴿ فِي الظُّلُمَاتِ ﴾ أى : فى ظلمة الهوى والحظ ، فهم أضل من الأنعام ، كالبهائم السائمة التى قلدت والديها بغير بصيرة نافذة ، وفى هذه الآية برهان على كمال قدرة الله تعالى وإرادته ، وسابق علمه فى خلقه .

﴿ مَن يَشَإِ اللّهُ يُضْلِلْهُ وَمَن يَشَأْ يَجْعَلْهُ عَلَى صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴾ وأوجب الله علينا السمع والطاعة له سبحانه ، وأهل العلم به يقولون آمنا به كل من عند ربنا ، والواجب علينا أن لا نؤوِّل صريح القرآن إلى غير ما يدل عليه لفظه ما دام صريح العبارة لا يخالف الآيات الشريفة .

ومعنى هذه الآية أن الله تعالى له المشيئة المطلقة ، لأنه سبحانه خلق الأكوان من عدم بعلم سابق ، وإرادة خصصت ما شاء أن يخلقه جل جلاله ، وقدرة وحكمة أبرزت ما شاء إيجاده ، فمن شاء أن يضله من خلقه أقامه فيما يغضبه

١- سورة مريم آية ٨٥ ــ ٨٦ .

سبحانه ، ومن شاء أن يهديه أقامه فى محابه ومراضيه ، لأنه جل شأنه يعلم أين يضع كل مخلوق من خلقه ، قال ﴿ ﷺ وآله﴾ : (آعمَلُوا فَكُلٌّ مَيَسَّرٌ لِمَا خُلِقَ لَهُ) [1] وتأويل أمثال هذه الآيات بغير صريح لفظها إنما يكون من الخائفين على الله تعالى ، وتنزه الله سبحانه من الخوف عليه ، أما الخائفون من الله تعالى فقد أسلموا له سبحانه وأنابوا إليه جل جلاله ، لأنه سبحانه يتعبدنا لما تتحمله العبارة من المعانى اللائقة بجلاله ، وقد وردت آيات كثيرة صريحة فى هذا المعنى ، قال تعالى : ﴿ مَن يَهْدِ اللَّهُ فَهُوَ الْمُهْتَدِى وَمَن يُضْلِلْ فَلَن تَجِدَ لَهُ وَلِيًّا مُّرْشِدًا ﴾[2] .

﴿ وَمَن يَشَأْ يَجْعَلْهُ عَلَى صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴾ أى : ومن يشأ الله تعالى أن يهديه ـــ أى : يبين له سبيل النجاة والوصول إليه جل جلاله ـــ (يجعله على صراط مستقيم) أى : يقمه فيما يحبه ويرضاه من العقيدة والعبادة والعمل الصالح ، ويغفر له ذنوبه .

قوله تعالى : قُلْ أَرَأَيْتُكُم إِنْ أَتَاكُمْ عَذَابُ اللّهِ أَوْ أَتَتْكُمُ السَّاعَةُ أَغَيْرَ اللّهِ تَدْعُونَ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ (٤٠)

يأمر الله تعالى محمد ﴿ﷺ وآله﴾ بقوله : ﴿ قُل ﴾ يا محمد لهؤلاء العادلين بعبادتى الأوثان والأنداد ، والمكذبين بآياتى المنكرين يوم الحساب ﴿ أَرَأَيْتُكُم ﴾ والكاف فيها حرف خطاب ، أى أخبرونى أيها الجاحدون الكافرون بالله تعالى

١- رواه البخارى فى كتاب القدر الباب الرابع وكتاب تفسير القرآن الكريم تفسير سورة الليل الباب ٣ ، ٤ ، ٥ ، ٧ وكتاب التوحيد الباب ٥٤ ومسلم فى كتاب القدر الحديث ٦ ، ٧ ، ٨ والترمذى فى كتاب القدر الباب ٣ وباب تفسير سورة الليل وأحمد الجزء الرابع صفحة ٦٧ .

٢- سورة الكهف آية ١٧ .

العادلون به الأنداد والأوثان والكواكب آلهة من دون الله والجاعلون لله ولدا ﴿ إِنْ أَتَاكُمْ عَذَابُ اللَّهِ أَوْ أَتَتْكُمُ السَّاعَةُ ﴾ أتجدون لكم نصيرا من آلهتكم الباطلة التى ابتدعتموها ؟ أو قلدتم فى عبادتها أهل الجهالة من آبائكم الضالين ؟ أو يحصل لكم اليأس والحيرة لأنها أحجار لا تنفع ولا تضر مخلوقة لله مقهورة بقهره جل جلاله ، وسوف تلجئكم الضرورة ـــ رغم أنوفكم ـــ إلى الالتجاء على الله تعالى ، والاستعانة به سبحانه ، والاستغاثة برحمته .

وفى قوله سبحانه : ﴿ أَغَيْرَ اللَّهِ تَدْعُونَ ﴾ تهديد وتبكيت وتشنيع لهم ،وحجة على أنهم كذبوا فى كفرهم ، والجملة من متعلقات ﴿ أَرَأَيْتَكُم ﴾ وجملة (أرءَيتكم) جواب الشرط مقدم ، والمعنى أن الله تعالى يأمر نبيه ﴿ ﷺ وآله﴾ أن يقول للكافرين : ﴿ إِنْ أَتَاكُمْ عَذَابُ اللَّهِ أَوْ أَتَتْكُمُ السَّاعَةُ ﴾ أخبرونى ﴿ أَغَيْرَ اللَّهِ تَدْعُونَ ﴾ أى : تسألونه وتتضرعون إليه بعد يأسكم من آلهتكم التى اتخذتموها ، وبعد قيام الحجة على أن تلك الآلهة أذل وأحقر من أن تنفع نفسها ، فضلا عن أن تنفعكم .

﴿ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ ﴾ أى : صادقين فيما تدعونه من الإيمان بتلك الآلهة الباطلة التى تشيدون لها المعابد ، وتبذلون لها الأموال ، وتقدمون لها العبادة — مع أنها صنعت ونصبت بأيديكم — وهى فى تلك الدار الدنيا ولا تنفعكم ، وإذا نزلت بكم المصائب دعتكم الضرورة إلى الالتجاء إلى الإله الحق جل جلاله ، فيتفضل سبحانه ويرحم من التجأ إليه فى تلك الدار الدنيا إن شاء سبحانه وتعالى ، ولكنه يوم القيامة أعد لهم العذاب الأليم لمن مات على الكفر ، بل والخلود فى نار جهنم مع الآلهة التى عبدوها يوم لا ينفع نفسا إيمانها لم تكن آمنت من قبل ، وهل بعد هذه الحجج الناصعة والبينات التى تذيب قلوب أهل العقول ؛ يأبى من سجل القضاء عليهم الكفر أن يقبلوا عن الله تعالى ؟ .

قوله تعالى : بَلْ إِيَّاهُ تَدْعُونَ فَيَكْشِفُ مَا تَدْعُونَ إِلَيْهِ إِنْ شَاء وَتَنسَوْنَ مَا تُشْرِكُونَ(٤١)

﴿ بَلْ إِيَّاهُ تَدْعُونَ فَيَكْشِفُ مَا تَدْعُونَ إِلَيْه ﴾معنى هذه الآية أن الكافرين إذا أحاطت بهم المصائب أو قامت الساعة ويئسوا من نصرة آلهتهم ، أو ساءهم ما نزل بهم ؛ خصوا الله تعالى بالدعاء لكشف ما نزل بهم دون غيره من آلهتهم ، فيكشف جل جلاله عنهم ما هم فيه حال حياتهم الدنيا ﴿ إِنْ شَاء ﴾ أى إن كان قدر ذلك أزلا ، ولا يكشفه عنهم يوم القيامة بل يحيط بهم ، لأنه لم يشأ جل جلاله أن يقبل من الكافرين به إيمانا يوم القيامة ، بل ولو بلغوا من اليقين أكمله .

﴿ وَتَنسَوْنَ مَا تُشْرِكُونَ ﴾ أى : وتشركون ما أشركتم به ، ترك نسيان لا ترك هجر وسلوان ، ولا يترك ترك نسيان إلا الذى ناله شر البلاء و لم يغثه من كان يعتمد عليه ، أما من ناله خير مما كان فيه يتركه تركا لا رجعه فيه ،ولا يرجع عن الحق إلى الباطل الذى ظهر باطله إلا من سفه نفسه وخف عقله .

قوله تعالى : وَلَقَدْ أَرْسَلنَآ إِلَى أُمَمٍ مِّن قَبْلِكَ فَأَخَذْنَاهُمْ بِالْبَأْسَاء وَالضَّرَّاء لَعَلَّهُمْ يَتَضَرَّعُونَ(٤٣)

﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلنَآ إِلَى أُمَمٍ مِّن قَبْلِكَ فَأَخَذْنَاهُمْ ﴾ أى : أرسلنا رسلا إلى أمم وجدوا قبل وجودك ووجود أمتك فكذبوا بالرسل وبما نزل عليهم من الآيات ، وما أظهرنا على أيديهم من المعجزات ، فاستحقوا عاجل النقمة ، فأمهلناهم وأخذناهم فى مهلتنا لهم ﴿بِالْبَأْسَاء ﴾ أى : ما يعتريهم من الفقر والزلازل ، وحبس الأمطار ، وتوليه الظلمة ، وتفريق الكلمة ، والخروج على بعضهم بعضا ، وبلاء سوء الأخلاق حتى تعم الشحناء والبغضاء والحسد ، وشر الباساء توليه العدو الغاضب المفارق للدين ، فإنه يسومهم الخسف ، ويفسد عليهم أحوال الدين

والدنيا ﴿ وَالضَّرَّاءِ ﴾ هى ما يصيب الأبدان من الأسقام والعقم وفساد الذرية وفقد الملائم ، والحرمان من المشتهيات الضرورية للإنسان ، وهذا الابتلاء كان سببه تكذيبهم لآيات الله تعالى . ﴿ لَعَلَّهُمْ يَتَضَرَّعُونَ ﴾ معنى التضرع :التخشع ، وهو الإنقياد وترك التمرد ، وأصله من الضراعة وهى الذلة ، والمقصود تسلية رسول الله ﴿ ﷺ وآله﴾ ، ولعلَّ هنا بمعنى اللام.

وفى هذه الآية الشريفة تخويف لمن كذبوا رسول الله ﴿ ﷺ وآله﴾ أن يصيبهم ما أصاب من سبقهم ممن عملوا كأعمالهم ، بل ما عمله كفار قريش مع رسول الله ﴿ ﷺ وآله﴾ من أذيته والأنكار عليه وتكذيبه وأذية أصحابه أكثر مما عملته الأمم السابقة مع أنبيائهم ، فتكون نقمة الله إذا نزلت بهم أشد وأنكى ، ولكن محمد ﴿ ﷺ وآله﴾ بكونه رحمه الله العامة والرءوف الرحيم بالمؤمنين والحريص على العالمين ، كان سببا فى إكرام الله تعالى لأعدائه–مع ما فعلوه من العناد والشقاق – فهدى الله أكثرهم إلى الإيمان ، ثم جمعهم بعد رفعه ﴿ ﷺ وآله﴾ إلى الرفيق الأعلى على الإيمان كما كان صلوات الله وسلامه عليه ، فكم كان يقول : (اللَّهمَّ اهدِ قومِى فَإنَّهُم لاَ يَعلَمُونَ) . .

قوله تعالى : فَلَوْلا إِذْ جَاءهُمْ بَأْسُنَا تَضَرَّعُواْ وَلَكِن قَسَتْ قُلُوبُهُمْ وَزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ مَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ(٤٣)

(فَلَوْلا) معلوم أن لَولاَ إذا دخلت على فعل كانت بمعنى : هَــلاَّ ، وإذا دخلت على أسم كانت بمعنى : امتِنَاعِ لِوُجَودٍ ، كما تقول : لولا زيد لهلك عمر ، أى : امتنع هلاك عمر لوجود زيد ، وهى هنا داخلة على فعل فتكون بمعنى : هَلاَّ والمعنى : هَلاَّ ﴿ جَاءهُمْ بَأْسُنَا تَضَرَّعُواْ ﴾ ويكون الجواب أنهم لم يتضرعوا ﴿ وَلَكِن قَسَتْ قُلُوبُهُمْ ﴾ أى : غلظت وجمدت لسلطان الشهوة عليها ، فإن الإنسان

إذا تسلطت عليه القوة الشهوانية استباح لنفسه ما تشتهيه فأكل كما تأكل الأنعام ، فغلظ القلب لفساد الدم فيه ، ومتى فسد الدم أفسد لطائف القلب فصار كالصخرة الصماء لاتصل إلى سويدائه الحكمة ، فتكون الحكمة حول القلب لا تجد لها منفذا ، أو تكون دواعى الشهوة والحرص على الحياة الدنيا والطمع فيها يفنى منها ساكنا فى السويداء ، وقسوة القلب نتيجة المعاصى ، والمعاصى نتيجة التوسعة فيما يكره الله تعالى ، حتى يقع فيما حرمه الله تعالى ، قال تعالى : ﴿ وَيَأْكُلُونَ كَمَا تَأْكُلُ الْأَنْعَامُ وَالنَّارُ مَثْوًى لَّهُمْ ﴾[1] أما متوسط أهل الإيمان فى طعامهم فإنه يجعل دماءهم رقيقة ، ومتى رق الدم قويت لطائف القلب فلان للحكمة وهش لها وبش ، وصار كالجمرة المسعرة بالنسبة لوسوسة الشيطان فلا يكون له أى سلطان عليهم ، قال تعالى : ﴿ اللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ الْحَدِيثِ كِتَابًا مُّتَشَابِهًا مَّثَانِيَ تَقْشَعِرُّ مِنْهُ جُلُودُ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَى ذِكْرِ اللَّهِ ﴾[2] .

وقال أبو الطيب المتنبى :

عَزَلَ العَوَازِلُ حَولَ قَلبِ التَّائِهِ ... وَهَوى الأحِبَّةِ مِنهُ فِى سَودَائِهِ

وكما تكون القسوة فى القلب عن قبول الإيمان فقد تكون عن قبول الباطل أيضا ، كما قال أبو بكر رضى الله عنه لبعض الصحابة – وقد غلبهم الوجد لسماع القرآن – : كَذَلِكَ كُنَّا حَتَّى قَسَت قُلُوبُنَا ، أى كذلك كان فهم المعانى

١- سورة محمد آية ١٢.

٢- سورة الزمر آية ٢٣.

تقشعر منه جلودهم وتلين له قلوبهم ،حتى مَنَّ الله عليهم باليقين الحق بدلائله وعلاماته فقست قلوبهم فلا تلين إلا بالمشاهدة العيانية ، لا بمعانى الألفاظ البيانية .

﴿ وَزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ مَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ ﴾ معلوم أن الشيطان حقيقة من الحقائق التى لا تعرف إلا بآثارها ، فإنك ترى أكثر الناس يلعنون الشيطان وينسبون إليه ما يقع منهم من المعاصى والكبائر ، ولو سألتهم : ما هو الشيطان ؟ لجهلوا حقيقته ، والحقائق التى تعرف بآثارها كثيرة كالعقل والروح والنفس والجن والكهرباء وغيرها .

ولما كانت حقيقة الشيطان مخلوقة من النار ، لزم أن يكون فى جسم الإنسان شىء من النار محلا لاتصال الشيطان بالإنسان ، ولذلك فالشريعة المطهرة أمرتنا أن نجاهد شهواتنا التى تدعو إليها تلك القوة النارية الموجودة فى أجسامنا ، لأنها تدعو إلى الشهوة والغضب ، فقوله تعالى : ﴿ وَزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ مَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ ﴾ يعنى أن النفوس تميل إلى ما يقبح شرعا وما يمدح شرعا ، فالشيطان يزين ويحسن ما يقبح شرعا للإنسان ، والنفس الملكية تحسن لما يمدح من محاب الله ومراضيه ، والشيطان فى الإنسان هو سبب البلاء ، وهو الذى أمرنا الله تعالى أن نجاهده فادح المجاهدة ، لأن إبليس الرجيم إذا وسوس فى صدور الناس ولم يجد ما يتصل به من دواعى الشهوة والغضب خنس وخسىء ، وشر وصلة بإبليس فى الإنسان هى الأمانى ، قال تعالى : ﴿ وَمَا أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ وَلَا نَبِى إِلَّا إِذَا تَمَنَّى أَلْقَى الشَّيْطَانُ فِى أُمْنِيَّتِهِ ﴾ [1] .

١- سورة الحج آية ٥٢ .

وكلمة : لَو – التى هى أساس الأمانى – باب من أبواب الشيطان ، فـــإذا كانت الرسل صلوات الله وسلامه عليهم إذا حصل من أحدهم تمن ألقى الشيطان فى أمنيته فكيف الواحد منا ؟ ولا يكون التمنى إلا فيما تدعو إليه النفس الغضبية و الشهوانية فى الإنسان إذا تجاوز الحد الأوسط ، فإن قوتى الغضب والشهوة تجـــدان منفسا لهما فى التمنى ، أما إذا توسطا أعانا الإنسان على محـــاب الله ومراضـــيه ، ولكن كثيرا ما تكون الأمانى مرتعا خصبا لوسواس الشيطان ، وتجعل لـــه علـــى صاحبها سلطانا فيلقى به فى مهاوى الضلالات ، أعاذنا الله تعالى من شره .

﴿ وَزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ مَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ ﴾ أى : زين لهم أعمالهم الـــتى دعاهم إليها الحظ والهوى والشهوة والطمع ، وحسَّن لهم صنيع كل ما يتفق مـــع تمنياهم المعبرة عن رغبات نفوسهم ، قال تعالى مخاطبا رسوله ﴿ ﷺ وآله﴾ : ﴿ قُلْ هَلْ نُنَبِّئُكُمْ بِالْأَخْسَرِينَ أَعْمَالًا الَّذِينَ ضَلَّ سَعْيُهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ يَحْسَـــبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا ﴾ [(١)] .

قوله تعالى : فَلَمَّا نَسُواْ مَا ذُكِّرُواْ بِهِ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ أَبْوَابَ كُلِّ شَيْءٍ حَتَّـــى إِذَا فَرِحُواْ بِمَا أُوتُواْ أَخَذْنَاهُم بَغْتَةً فَإِذَا هُم مُّبْلِسُونَ(٤٢)

بعد أن أخبرنا الله تعالى عن إرساله رسلا إلى أمم سبقت وأخذهم بالبأساء والضراء ليتضرعوا ، ولكنهم لم يتضرعوا بسبب قسوة قلوبهم وتزيين الشيطان لهم أعمالهم ، قال سبحانه : ﴿ فَلَمَّا نَسُواْ مَا ذُكِّرُواْ بِهِ ﴾ أى : تركوا العمـــل بمـــا جاءهم به رسلهم ، وانغمسوا فى عمل ما تدعوهم إليه نفوســـهم ويتفـــق مـــع حظوظهم وأهوائهم ﴿ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ أَبْوَابَ كُلِّ شَيْءٍ ﴾ أى : أغدق الله عليهم من

١- سورة الكهف آية ١٠٣ – ١٠٤

الأشياء المادية ما يلائم رغباتهم وتمنياتهم ليقيم عليهم الحجة ، حتى إذا أخذهم كان أخذه أخذ عزيز مقتدر ، بعد أن مكن لهم فى الأرض ، فأنزل عليهم غيث السماء مدرارا ، وأجراه فى الأرض أنهارا ، وأمدهم بالأموال والبنين ، وكل ما تشتهيه أنفسهم وتلذ له أجسامهم ، فكانت كل تلك النعم موجبة إلى طغيانهم بالباطل ، وداعية على مغاضب الله ومعاصيه ، والكفر به جل جلاله ، وهم فى طغيانهم يعمهون ، فلم يزدادوا بتلك النعم المفاضة عليهم إلا علوا فى الأرض بالباطل ، وغلوا فى ارتكاب المنكرات ، واستهزاء بكل داع إلى الله تعالى ، وهم يجهلون ما يراد بهم .

وأمثال هؤلاء كثير ، فإنك ترى الظالم الطاغى إذا رأى وفرة أمواله و شدة شكيمته ونفوذ كلمته فرح بما أوتى ونسى المنعم المتفضل عليه الآمر الناهى ، بل ونسى يوم القيامة ، حتى يتمنى أهل الجهالة مكانه من اليسار والنعمة ، فلا يلبث إلا ريثما تباغته النقمة فيصبح كأن لم يكن له ذكر يذكر ويصير عبرة للمعتدين ، ولا أبعد بك ، فإن دول أوربا وأمريكا واليابان غرتهم مهلة الله لهم بما آتاهم من زينة وأموال وصناعات وفنون ، وقد ساعدهم على ذلك تثاقل المسلمين ونومتهم نومة الغفلة ورقدة الجهالة ، فعثا أهل هذه الدول فى الأرض فسادا ، وأهلكوا عباد الله ، وسلبوا مرافق حياتهم واستعبدوهم ، فاستحقوا أن تجرى عليهم سنة الله فى خلقه الواضحة فى قوله تعالى : ﴿ حَتَّىَ إِذَا أَخَذَتِ الأَرْضُ زُخْرُفَهَا وَازَّيَّنَتْ وَظَنَّ أَهْلُهَا أَنَّهُمْ قَادِرُونَ عَلَيْهَآ أَتَاهَا أَمْرُنَا لَيْلاً أَوْ نَهَارًا فَجَعَلْنَاهَا حَصِيدًا كَأَن لَّمْ تَغْنَ بِالأَمْسِ ﴾(١) .

١- سورة يونس آية ٢٤ .

ومن قرأ هذه الآية الشريفة وغره ما فيه بنو الأصفر من الزبـــرج والزينـــة فليبك على نفسه ، فإن جبار السموات والأرض لم يرض من نفسه الظلم ، فكيف يرضاه من غيره وهو الحكيم العدل ؟ وإنما هو استدراج وفتنة عظمى يمحص الله بها عباده المؤمنين ﴿ لِّيَهْلِكَ مَنْ هَلَكَ عَن بَيِّنَةٍ وَيَحْيَى مَنْ حَى عَن بَيِّنَةٍ ﴾[1] .

﴿ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ أَبْوَابَ كُلِّ شَيْءٍ ﴾ فيه بيان أن المفتوح عليهم هو كـــل باب يلائم طباعهم ، فلا يفتح لهم أبواب الرحمة ولا الهداية ولا العناية ولا التوفيق ، ولكنها كانت أبواب وفرة الأموال ، وكثرة الأولاد ، ونفوذ الكلمة وغيرها ممـــا يطغى النفوس ويغويها .

﴿ حَتَّى إِذَا فَرِحُواْ بِمَا أُوتُواْ ﴾ والفرح هو سكون النفس إلى محبوب لها ، أى : فلما سكنت أنفسهم إلى ما آتاهم الله استدرجا لهم حتى نسوا يوم الحســـاب ﴿ أَخَذْنَاهُم بَغْتَةً ﴾ أى : فاجأناهم بالنقمة من غير إنذار ــــ لكثرة مـــا أنـــذروا وحذروا ، فلم يقبلوا عن الله ما جاءهم به رسله عليهم الصلاة والسلام ، فلم يبق إلا مفاجأة النقمة ــــ أعاذنا الله وإخوتنا المسلمين .

﴿ فَإِذَا هُم مُّبْلِسُونَ ﴾ أى : فإذا هم يائسون فى هم وغم وندامة وحزن ، وقد أبلس إبليس ، أى : يئس وقنط فى هم وغم وندامة وحزن ، حسدا لآدم عليه السلام .

قوله تعالى : فَقُطِعَ دَابِرُ الْقَوْمِ الَّذِينَ ظَلَمُواْ وَالْحَمْدُ لِلّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ۞

١- سورة الأنفال آية ٤٢ .

﴿ فَقُطِعَ دَابِرُ الْقَوْمِ الَّذِينَ ظَلَمُواْ ﴾ معنى هذه الآيـة أن الله تعـالى محـا واستأصل هؤلاء القوم لقطعه دابرهم أى : مؤخرهم ، ومتى قطع دابر القوم كـان من باب أولى قطع مقدمهم ووسطهم ، لأنهم ظلموا عباد الله تعالى ﴿ وَالْحَمْدُ لِلّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴾ أى : والشكر والثناء الحسن لله الذى نصر أنبياءه وأولياءه وأهـل الإيمان به، وأهلك أعداءه بقطع دابرهم ، ومكن لأهل الإيمان به فى الأرض كمـا مكن لأهل محبته فى الأرض من قبل ، وفى قوله : ﴿ وَالْحَمْدُ ﴾ بيان لأن إهـلاك الظلمة والكفرة ومحو المفسدين فى الأرض من أجلّ نعم الله على أهل الإيمان ، يجب عليهم أن يشكروا الله ويحمدوه ويثنوا عليه بما أولاهم من نعمة النصر والظفر .

قوله تعالى : قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَخَذَ اللّهُ سَمْعَكُمْ وَأَبْصَارَكُمْ وَخَتَمَ عَلَى قُلُوبِكُم مَّنْ إِلَـهٌ غَيْرُ اللّهِ يَأْتِيكُم بِهِ انظُرْ كَيْفَ نُصَرِّفُ الآيَاتِ ثُمَّ هُمْ يَصْدِفُونَ(٤٦)

أثبت الله تعالى عجائب قدرته بما بينه فى الآيات السابقة من قوله تعـالى : ﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلنَآ إِلَى أُمَمٍ مِّن قَبْلِكَ فَأَخَذْنَاهُمْ بِالْبَأْسَـاءِ وَالضَّـرَّاءِ ﴾[١] فكـذبوا فأخذناهم بالمصائب الخاصة ، وفى هذه الآية أظهر إطلاق القدرة بقولـه تعـالى : ﴿ قُلْ ... ﴾ ، إلى آخر الآية ، والمعنى : قل لهم يا خاتم الرسل يا من لا رسـول بعدك ﴿ أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَخَذَ اللّهُ سَمْعَكُمْ وَأَبْصَارَكُمْ وَخَتَمَ عَلَى قُلُوبِكُم ﴾ بعدو لكم عنه وتكذيبكم بآياته وبما جئتكم به ﴿ إِنْ أَخَذَ اللّهُ سَمْعَكُمْ ﴾ أى : جعلكم صما لا تسمعون الحق ، أو تسمعونه فـلا تقبلـون أن تعملـوا بـه عنـادا وكفـرا ﴿ وَأَبْصَارَكُمْ﴾ فجعلكم عميا لا تبصرون أبدا ، أو جعلكم تبصرون ولكن بغـير إدراك ولا قبول ﴿ وَخَتَمَ عَلَى قُلُوبِكُم ﴾ أى : سلب منها القابل للفكر فى آيات الله تعالى المنبلجة فى الأكوان وفى آياته التى أنزلها على رسله ، لأنه سبحانه بقدرته

١- سورة الأنعام آية ٤٢ .

خلق لكم السمع والبصر والأفئدة وتفضل فأمدكم بها ، وجعلها وسيلة لتحصيل العلم به جل جلاله ، فتكون نعمة بها تنعمون فى الدنيا ، ومنة من الله تعالى تنالون بها معرفته سبحانه ، قال جل جلاله : ﴿ وَاللّهُ أَخْرَجَكُم مِّن بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ لاَ تَعْلَمُونَ شَيْئًا وَجَعَلَ لَكُمُ الْسَّمْعَ وَالأَبْصَارَ وَالأَفْئِدَةَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴾[1] .

فإذا أنتم غفلتم عن نعم الله تعالى وكفرتم باستعمالها فى غير ما خلقت له ــ وهو القادر الذى وهبها لكم بالفضل لتفوزوا بالسعادتين ــ فإن القادر الذى أعطى قادر على أن يسلب السمع والبصر والقلوب إذا حل بالعادلين بالله تعالى المكذبين لرسوله ﴿ ﷺ وآله﴾ ما توعدهم الله به .

﴿ مَّنْ إِلَهٌ غَيْرُ اللّهِ يَأْتِيكُم بِهِ ﴾ لديها تقهرهم الضرورة إلى الالتجاء إلى من أعطى بفضله ، فيلجأون إليه مستغيثين به جل جلاله ، لأن آلهتهم التى اتخذوها من دون الله وعبدوها واثقين أنها تنفع تنكشف لهم حقائقها التى هى عليها ، وهى العجز والذل والخزى ، فيضطرون إلى الاستغاثة بالله ليكشف عنهم ما نزل بهم ، وهذا تهديد من الله تعالى ووعيد لأعدائه ، وهو الحق الصراح الذى لا ينكره كافر ولا جاحد ، وكم تحداهم الله بمثل هذه الآيات والعجز يخرس ألسنتهم ، مع ما هم عليه من الشحناء والبغضاء والعداوة لرسول الله ﴿ ﷺ وآله﴾ .

وفى قوله : ﴿ بِهِ ﴾ مع أن المأخوذ منهم جمع يناسب أن يقول : بِهَا ، فتفريد الضمير هنا إشارة إلى ما أخذ منهم ، والمأخوذ منهم هو السمع والبصر والقلب فعاد الضمير عليه بالإفراد .

١- سورة النحل آية ٧٨ .

﴿ انظُرْ ﴾ يا محمد ﴿ كَيْفَ نُصَرِّفُ الآيَاتِ ﴾ أى : تتوالى عليهم الآيات وتتجدد فى كل وقت فتظهر ظهور يعجز العقول ويجذب القلوب ﴿ ثُمَّ هُمْ يَصْدِفُونَ ﴾ أى : يعدلون فيتحولون وينقلبون ويعرضون عن الحق .

وفى هذه الآية دليل على أن الله وهب لهم السمع والبصر والقلب ليفوزوا بسماع آياته ، وبالنظر والعبرة فى مكوناته ، وبالبحث والنظر بقلوبهم فيما أحاط بهم من بدائع إبداع صنعته جل جلاله ، ومن آثار رحمته وعجائب قدرته ، ومع ذلك لم يزدادوا إلا إعراضا ونأيا ، فقامت الحجة أن الله تعالى سجل عليهم الشقاء فى الدنيا والآخرة ، قال تعالى : ﴿ كَذَلِكَ يُضِلُّ اللَّهُ مَن يَشَاءُ وَيَهْدِى مَن يَشَاءُ﴾[1] ولا حجة لهم يوم القيامة لأنه جل جلاله أعطاهم الآلات القابلة ، بيَّن لهم محابه ومراضيه على ألسنة رسله ، وحجب عنهم سر القدر ، فكان هو المنعم عليهم بالسمع والطاعة ، وما ارتكبوا ما ارتكبوا إلا عنادا وعلوا فى الأرض بغير الحق ، وتكذيبا لرسله صلوات الله وسلامه عليهم .

قوله تعالي : ﴿ قُلْ أَرَأَيْتَكُمْ إِنْ أَتَاكُمْ عَذَابُ ٱللَّهِ بَغْتَةً أَوْ جَهْرَةً هَلْ يُهْلَكُ إِلاَّ ٱلْقَوْمُ ٱلظَّالِمُونَ ﴾(٤٧)

لما كان رسول الله ﴿ ﷺ وآله﴾ خاتم الرسل فلا نبى بعده ، أكمل الله لنا به دينه ، فأنزل الآيات البينات التى قصمت ظهور أعدائه سبحانه ، فإنه جل جلاله كان يُنزِل على كل نبى بقدر أحداث زمانه ، وأنزل على محمد ﴿ ﷺ وآله﴾ بيان جميع الأحداث إلى يوم القيامة ، فلم تبق حجة لمنافق أو جاحد أو منكر ، ومعنى هذه الآية ﴿ قُلْ أَرَأَيْتَكُمْ ﴾ أمر من الله لرسوله ﴿ ﷺ وآله﴾ بأن يقول لهم أخبرونى ﴿ إِنْ أَتَاكُمْ عَذَابُ اللّهِ ﴾ أى : سريع نقمة فى الدنيا قبل الآخرة ﴾

١- سورة المدثر آية ٣١ .

بَغْتَةً﴾ أى : فجأة من غير علم منكم ولا نظر إلى أسبابه ، كما نزل بمن عدلوا بالله تعالى الأوثان وكذبوا رسله وأنكروا آياته من قوم عاد وثمود وقوم موسى وغيرهم وما ذلك منكم ببعيد ﴿ أَوْ جَهْرَةً ﴾ أى : بعد نظركم إلى أسبابه وظهور علاماته ،فإذا جاءكم هذا العذاب لوقوعكم فيما وقعتم فيه وتكذيبكم حبيبى محمد ﴿ ﷺ وآله﴾ ﴿ هَلْ يُهْلَكُ ﴾ ممن جاءهم العذاب ﴿ إِلاَّ الْقَوْمُ الظَّالِمُونَ ﴾ أى : إلا الذين عدلوا بالله تعالى وكذبوا رسوله محمد ﴿ ﷺ وآله﴾ وظلموا أنفسهم بمخالفتهم الحق الذى لا ينكره إلا حسود معاند . .

فإنها المصيبة تعم ، ومع أنها تعم فإن أهل الإيمان من المسلمين ــ الذين إذا عجل الله عقوبته بأهل الكفر به ينجيهم الله يوم القيامة ــ وإن أصابهم من هذا العذاب ما أصاب الكفار إلا أنهم ينعمون يوم القيامة والله جل جلاله أكرم حبيبه محمداً ﴿ ﷺ وآله﴾ فلم يقدّر عذابا على أهل الكفر به رحمة بمن أسلموا وأنابوا إلى ربهم ، قال تعالى : ﴿ وَمَا كَانَ اللّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنتَ فِيهِمْ ﴾(1) وقد جعل الله عذاب أهل الكفر به انتقاما منهم لأهل

قوله تعالى : وَمَا نُرْسِلُ الْمُرْسَلِينَ إِلاَّ مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ فَمَنْ آمَنَ وَأَصْلَحَ ...... [٤٨] الأنعام

الإيمان ، فكانت المصائب خاصة بأهل الكفر بالله ، ولا يزال ولن يزال أهل الإيمان بالله محفوظين من هذا العذاب الذى يستأصل أهل الكفر وأهل الإيمان معهم ، فلم نسمع فى التاريخ أن الله انتقم من أهل الكفر به فعمت النقمة أهل الإيمان أبدا كما كان يحصل فى الأمم السابقة ، فكم خسف الله الأرض بأقوام

١- سورة ألأنفال آية ٣٣.

كذبوا رسلهم فعمت المصيبة المؤمن والكافر إلا أمة محمد ﴿ﷺ وآله﴾ ، فـإن الله شاء أن يجعل النقمة التى ينزلها على أعدائنا تكون بسيوفنا وبأن يجعلهم أرقاء تحت أيدينا ومن أهل ذمتنا ، أما ما نحن فيه الآن من تسليط أعداء الله علينا ، فإنما ذلك لأنا خالفنا شريعة ربنا ، وتساهلنا فى الواجب علينا له سبحانه ، ولو أنا رجعنا إلى ما كان عليه سلفنا الصالح لمكن الله لنا فى الأرض كما مكن لهم ، وجعلنا أعـزة على الكافرين أذلة على المؤمنين .

قوله تعالى : وَمَا نُرْسِلُ الْمُرْسَلِينَ إِلاَّ مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ فَمَنْ آمَنَ وَأَصْلَحَ فَلاَ خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلاَ هُمْ يَحْزَنُونَ(٤٨)

﴿ وَمَا نُرْسِلُ الْمُرْسَلِينَ إِلاَّ مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ ﴾ هذه ألآية الشريفة تثبيت لفؤاد رسول الله ﴿ﷺ وآله﴾ الذى كان يحزنه جدا عناد الكافرين وخبث المنافقين ، وكان ﴿ﷺ وآله﴾ يحب أن يهدى الله بدعوته جميع الخلق ، ولكـن الله جـل جلاله هو الذى يهدى ، فبين فى هذه الآية أن الرسل عليهم أن يبشروا أهل الإيمان الذين يقبلون عنهم ما جاءوا به من عند الله ، وأن ينذروا أهل الجحود المكـذبين لآيات الله تعالى ، وليس عليهم صلوات الله وسلامه عليهم أن تكون دعوهم جاذبة لقلوب الخلق ، فإن ذلك فعل الله تعالى وتقديره أزلا ، قال سبحانه : ﴿ مَن يَهْدِ اللَّهُ فَهُوَ الْمُهْتَدِى وَمَن يُضْلِلْ فَلَن تَجِدَ لَهُ وَلِيًّا مُّرْشِدًا ﴾[1] وما على الرسل وعلى ورثتهم من بعدهم إلا هداية البيان وأن يدعوا الناس إلى الحق ، وليس عليـهم أن يقبل الناس منهم ، فإن قبول الناس بهداية الله تعالى خلقه هداية الإحسان .

١- سورة الكهف آية ١٧ .

فمعنى الآية أن الله تعالى يخبرنا أن وظيفة الرسل عليهم السلام محصورة فى أن يبشروا من قبل وسمع وأطاع بما وعدهم الله به ، بأن ينذروا أى : يخوفوا من لم يقبل منهم وأبى وأنكر ، وبذلك فإنهم قاموا بما أوجبه الله عليهم .

﴿ فَمَنْ آمَنَ وَأَصْلَحَ ﴾ معنى هذه الآية أن الله يخبرنا أن الذين أنذرهم الرسل إذا قبلوا وصدقوا الله ورسوله وأصلحوا قلوبهم وأعمالهم وأقوالهم وأحوالهم كما أمر الله تعالى ﴿ فَلاَ خَوْفٌ عَلَيْهِمْ ﴾ أى أنهم لا خوف عليهم فى الدنيا ولا عند الموت ولا فى البرزخ ولا يوم القيامة ﴿ وَلاَ هُمْ يَحْزَنُونَ ﴾ فى تلك المواقف كلها ، أما فى الدنيا ﴿ فَلاَ خَوْفٌ عَلَيْهِمْ ﴾ لأن أهل الإيمان بالله فى حياتهم جملهم الله بجمال التوحيد الخالص ، فأسلموا إليه سبحانه ، وأنابوا إليه جل جلاله ، وتوكلوا عليه فى كل شىء ، فوضوا إليه أمورهم فى كل شىء ، فطمأن قلوبهم فى حال الرخاء بتوفيقهم للذكر والشكر والطاعة ، وفى حال الشدة بشرح صدورهم للتضرع والابتهال والاستغاثة بالله والالتجاء إليه ، فلا يخافون من دسيسة نفوسهم ولا من وسوسة شيطانهم ولا من تسليط عدو ظالم ، ولا هم يحزنون من شىء ولو انزوت عنهم الدنيا ، لأنه إذا أقبلت عليهم الدنيا أعانهم الله بها على طاعته ، وإن انزوت عنهم الدنيا كان انزواؤها فراغا لقلوبهم عن الاشتغال بها وعن العمل بغير ما يحب الله ويرضاه ، كما قال ﴿ ﷺ وآله ﴾ : (آللَّهُم آتِنِى مِمَّا أُحِبُّ وَآجعَلهُ مُعِيناً لِى عَلَى مَا تُحِبُّ ، وَمَا زَوَيتَ عَنِّى مِمَّا أُحِبُّ آجعَلهُ فَرَاغاً لِقَلبِى فِيمَا تُحِبُّ).

أما كونهم لا خوف عليهم ولا هم يحزنون عند الموت ، فإن المسلم عند الموت تصول عليه صولة الموت من لقاء الله والهم والحزن على أولاده وأقاربه ، فيشتغل عن الاستعداد للقاء الله ، فيرسل الله له ملكا يقول له : أَى عَبدَ آللهِ مَا أَخَافَكَ ؟ فيقول : ذُنُوبِى ، فيقول : أُبَشِّرُكَ أَنَّ آللهَ غَفَرَ لَكَ ذُنُوبَكَ وَأَعَدَّ لَكَ

آلنَّعِيمَ . فيذهب خوفه ويبدل بأمن وطمأنينة ، ثم يقول له : مَا يُحزِنُكَ يَا عَبدَ آللهِ ؟ فيقول : مَن وَرَائِى مِن أَولاَدِى وَأهلِى وَأقَارِبِى ، فيقول له : أُبَشّرُكَ أَنَّ آللهَ أقَامَ نَفسَهُ وَكِيلاً عَنكَ عَلَيهِم . فيزول حزنه ، وتتوالى عليه البشائر والمسرات والأفراح.

وأما فى البرزخ فإن الملكين إذا سألاه ــ وجاء إبليس يوسوس إليه ليفتنه ــ أيده الله وثبته وأنطق لسانه بالتوحيد الخالص وهى فاتحة البشرى فى الآخرة ، وما فى يوم القيامة حيث يكون المحشر والهول الأكبر فإن الله يتفضل على أهل الإيمان به بنجائب من النور تلقاهم عند قيامهم من القبور ، فتحملهم إلى الفردوس الأعلى ، وهى بشرى من الله يوم القيامة لأوليائه ، وتكون البشرى العظمى يوم لقاء الله تعالى حيث ينادى أولياءه فيزيدهم بأن يمنحهم رضوانه الأكبر الذى لا سخط بعده ، وصدق الله العظيم ، وهذا معنى قوله تعالى : ﴿ فَلاَ خَوفٌ عَلَيْهِمْ وَلاَ هُمْ يَحْزَنُونَ ﴾ ومعنى ما ورد فى موضع آخر : ﴿ لَهُمُ الْبُشْرَى فِى الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِى الآخِرَةِ ﴾[1] .

قوله تعالى : وَالَّذِينَ كَذَّبُواْ بِآيَاتِنَا يَمَسُّهُمُ الْعَذَابُ بِمَا كَانُواْ يَفْسُقُونَ(٤٩)

﴿ وَالَّذِينَ كَذَّبُواْ بِآيَاتِنَا يَمَسُّهُمُ الْعَذَابُ ﴾ تأويل هذه الآية الشريفة أن الذين كذبوا بآيات الله تعالى ــ التى أنزلها على رسله ليبلغوها عباده ــ يمسهم العذاب حتى يعلوهم فيعمهم ، ومس العذاب لهم لم يكن ظلما من الله ــ تنزه وتعالى ــ بل هو عدل ، لأنه جزاء وفاق ، كما قال الله تعالى : ﴿ بِمَا كَانُواْ يَفْسُقُونَ ﴾ أى : بما كانوا يكذبون ، وكل ما ورد فى القرآن من لفظ الفسق فهو الكذب والخروج عن الطاعة .

١- سورة يونس آية ٦٤ .

قوله تعالى : قُل لاَّ أَقُولُ لَكُمْ عِندِى خَزَآئِنُ اللّهِ وَلا أَعْلَمُ الْغَيْبَ وَلا أَقُولُ لَكُمْ إِنِّى مَلَكٌ إِنْ أَتَّبِعُ إِلاَّ مَا يُوحَى إِلَى قُلْ هَلْ يَسْتَوِى الأَعْمَى وَالْبَصِيرُ أَفَلاَ تَتَفَكَّرُونَ(٥٠)

تأويل هذه الآية الشريفة أن الله تعالى يقيم الحجة على المنكرين نبوة حبيبه محمد ﴿ﷺ وآله﴾ ، ويعلمنا كمال التوحيد وحقيقة تتريهه سبحانه وتعالى من أن يكون له شريك أو شبيه ، فيأمر حبيبه ورسوله محمدا ﴿ﷺ وآله﴾ بقوله : ﴿ قُل لاَّ أَقُولُ لَكُمْ عِندِى خَزَآئِنُ اللّهِ ﴾ والمعنى أنه يقول ﴿ﷺ وآله﴾ لأعدائه : إنى لست إلها أملك خزائن كل شىء ، وأفعل ما أريد فأقدر على هدايتكم هداية الإحسان ، أو أعطى من أشاء وأمنع من أشاء ، فإن ذلك فعل الله الواحد الأحد .

﴿ وَلا أَعْلَمُ الْغَيْبَ ﴾ أى :لا أعلم الغيب المصون بذاتى ، لأن العالم بذاته هو الله تعالى ، وأنا إن علمت فإنما أعلم بتعليم الله تعالى ، وما كان لى أن أقول ما ليس لى به علم : ﴿ وَلا أَقُولُ لَكُمْ إِنِّى مَلَكٌ ﴾ لأن المَلك إذا ظهر للناس على صورته الحقيقية أصعقهم ولا يطيقون النظر إليه ، فإنى إن قلت لكم ذلك كان من الواجب عليكم الإنكار علىّ وترك قبول ما أدعوكم إليه ﴿ إِنْ أَتَّبِعُ إِلاَّ مَا يُوحَى إِلَى ﴾ و ﴿ إِنْ ﴾ بمعنى ما النافية ، والمعنى : إنى ما أتبع بدعوتى إياكم إلى الحق إلا ما أوحاه الله إلىّ ، والوحى معلوم وأنواعه عشرة : أربعة خاصة بالرسل عليهم الصلاة والسلام ، وستة عامة للرسل وغيرهم كالرؤيا الصالحة ، والفراسة ، والإلهام ، والإفتاء فى دين الله ، والفعل الحسن ، والأخذ بالمشورة .

﴿ قُلْ هَلْ يَسْتَوِى الأَعْمَى وَالْبَصِيرُ أَفَلاَ تَتَفَكَّرُونَ ﴾ هذه الآية الشريفة مثل ضربة الله تعالى للمنكرين نبوة حبيبه ﴿ﷺ وآله﴾ ، وَالْعَمَى هو فقد حاسة البصر التى تدرك الألوان والأشكال والأبعاد ، والأعمى هنا هو الكافر الذى لم

يجعل الله تعالى له قابلا يقبل عن رسله عليهم السلام ، ولا عقلا يعقل به عن الله تعالى وهو هنا الكافر ﴿ وَالْبَصِيرُ ﴾ هو المؤمن الذى ينظر بعين الإيمان فيرى الحجة البالغة على كمال صدق رسول الله ﴿ ﷺ وآله﴾ وأنه بعثه الله بالحق بشيرا ونذيرا وداعيا إلى الله بإذنه وسراجا منيرا .

قوله تعالى : وَأَنذِرْ بِهِ الَّذِينَ يَخَافُونَ أَن يُحْشَرُواْ إِلَى رَبِّهِمْ لَيْسَ لَهُم مِّن دُونِهِ وَلِى وَلاَ شَفِيعٌ لَّعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ(٥٢)

هذه الآية أمر من الله لنبيه محمد ﴿ ﷺ وآله﴾ أن يخوف بالقرآن من علموا حقيقة الإسلام ، فإن الخوف نتيجة العلم ، فقوله تعالى : ﴿ وَأَنذِرْ بِهِ الَّذِينَ يَخَافُونَ أَن يُحْشَرُواْ ﴾ أى : يعلمون علم اليقين قيام الساعة وما يقع فيها مما وعد الله به أولياءه وما توعد به أعداءه ﴿ إِلَى رَبِّهِمْ ﴾ أى : إلى أمر الله وقضائه جل جلاله حيث يكون الملك هناك لله جل جلاله ﴿ لَيْسَ لَهُم مِّن دُونِهِ ﴾ أى : ليس لأحد ممن يدعون لأنفسهم فى هذه الدار الدنيا أن لهم ملكا وسلطانا زورا وبهتانا وجهلا ، لأنهم لو رجعوا على عقولهم وعلموا نشأتهم الأولى لآمنوا بالله ورسله ، فثبت أن الذين ينذرون بالقرآن هم الذين هداهم الله فصدقوا وعلموا حقيقة ما أنزله على نبيه عليه الصلاة والسلام ، وقوله : ﴿ وَلِى وَلاَ شَفِيعٌ ﴾ أى : ليس لهم من دون الله ولى ينجيهم من هول يوم القيامة ويتولاهم بعنايته ورحمته ومغفرته ، ولا شفيع من دونه تعالى يتقرب إلى الله فيشفع لهم لرفع هول ذلك اليوم ، والذين لهم ولى وشفيع هم أهل الإيمان الكامل الذين يقبلون إنذار الرسل عليهم السلام لهم ﴿ لَّعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ ﴾ أى : ليتقوا ما يغضب الله تعالى عليهم ، فيسارعوا على محاب الله ومراضيه جل جلاله . .

وهذه الآية الشريفة ليست دليلا على أن الله ليس له أولياء ولا شفعاء يشفعون فى خلقه يوم القيامة ، لأن الله أثبت بالقرآن أن له أولياءه ، وأنه يكرم أولياءه فينفع بهم ذريتهم ومن والاهم فى الدنيا والآخرة ، قال تعالى .

﴿ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَاتَّبَعَتْهُمْ ذُرِّيَّتُهُم بِإِيمَانٍ أَلْحَقْنَا بِهِمْ ذُرِّيَّتَهُم ﴾(١) وقال : ﴿ وَكَانَ أَبُوهُمَا صَالِحًا ﴾(٢) وقال : ﴿ كُلَّمَا دَخَلَ عَلَيْهَا زَكَرِيَّا الْمِحْرَابَ وَجَدَ عِندَهَا رِزْقاً ﴾(٣) إكراما لأمها التى كانت صالحة ، وقال سبحانه مخبرا عن فضله على أوليائه : ﴿ لَهُم مَّا يَشَاءونَ عِندَ رَبِّهِم ﴾(٤) .

قوله تعالى : وَلاَ تَطْرُدِ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِي يُرِيدُونَ وَجْهَهُ مَا عَلَيْكَ مِنْ حِسَابِهِم مِّن شَيْءٍ وَمَا مِنْ حِسَابِكَ عَلَيْهِم مِّن شَيْءٍ فَتَطْرُدَهُمْ فَتَكُونَ مِنَ الظَّالِمِينَ(53)

﴿ وَلاَ تَطْرُدِ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِي ﴾ أمر من الله تعالى لرسوله بعدم طرد الذين يدعون ربهم بالغداة والعشى ، وذلك لأن المشركين من قريش اقترحوا على سيدنا رسول الله ﴿ ﷺ وآله﴾ أن يطرد عن نفسه الضعفاء من المؤمنين ، فنهاه الله عن ذلك ، وقد أخرج ابن جرير وابن المنذر عن عكرمة قال : مشى عتبة بن ربيعة وشيبة بن ربيعة وقرظة بن عبد عمر بن نوفل والحارث بن عامر بن نوفل ومطعم بن عدى بن خيار بن نوفل فى أشراف الكفار من عبد مناف

١- سورة الطور آية ٢١ .

٢- سورة الكهف آية ٨٢ .

٣- سورة آل عمران آية ٣٧ .

٤- سورة الزمر آية ٣٤ .

إلى أبى طالب فقالوا : لَو أنَّ ابن أَخيكَ طَرَدَ عَنَّا هَؤلاءِ الأعبــد لأنهـــم عبيـــدنا وَعُسفَاؤُنا كَان أَعظَمَ لَه فِى صدورِنا وَاطوعَ لَنا عِندنا وأَدنى لاِتِّبَاعِنَا إيَّاه وَتَصدِيقِه . فذكر ذلك أبو طالب للنبى ﴿ ﷺ وآله﴾ فقال عمر رضى الله عنه : لو فعلت يا رسول الله حتى نظر ما يريدون بقولهم ومَا يسيرون إليه من أمـــره ، فَـــأنزل الله : ﴿ وَأَنذِرْ بِهِ الَّذِينَ يَخَافُونَ أَن يُحْشَرُواْ إِلَى رَبِّهِمْ ﴾ ... إلى قوله تعالى : ﴿ أَلَيسَ اللهُ بِأعلَمَ بِالشَّاكِرِينَ ﴾ .

قال : كانوا بلالا وعمار بن ياسر وسالما مولى أبى حذيفة وصبحا مـــولى أسيد ، ومن الحلفاء ابن مسعود والمقداد بن عمرو وواقد بن عبد الله الحنظلى وعمر بن عبد عمر ذو الشمالين ومرثد بن أبى مرثد وأشباههم ونزلت فى أئمة الكفر من قريش والموالى والحلفاء : ﴿ وَكَذَلِكَ فَتَنَّا بَعضَهُم ببَعض لِيَقُولُوا ﴾ فلما نزلت أقبل عمر فاعتذر من مقالته فأنزل الله : ﴿ وَإذَا جَاءَكَ الَّذِينَ يُؤمِنُونَ بِآيَاتِنَا ﴾ .

وفيه أخرج ابن أبى شيبة وابن ماجة وأبو يعلى وأبو نعيم فى الحلية وابـــن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم وأبو الشيخ وابن مردويه والبيهقى فى الدلائل عـــن خباب قال : جاء الأقرع بن حابس التميمى وعيينة بن حصن الفزارى فوجدا النبى ﴿ ﷺ وآله﴾ قاعدا مع بلال وصهيب وعمار وخباب فى أناس ضعفاء من المؤمنين ، فلما رأوهم حوله حقروهم فأتوه فخلوا به فقالوا : إنا نُحبُّ أَن تجعل لنا منـــك مجلسا تعرف لنا العرب به فضلنا فإن وفود العرب ستأتيك فنستحيى أن ترانا العرب قعودا مع هؤلاء الأعبد فإذا نحن جئناك فأقمهم عنا فإذا نحن فرغنا فلتقعد معهم إن شئت . فأنزل الله سبحانه وتعالى ﴿ وَلاَ تَطْرُدِ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم ... ﴾ إلى قومه ﴿ فَقُلْ سَلاَمٌ عَلَيْكُمْ كَتَبَ رَبُّكُمْ عَلَى نَفْسهِ الرَّحْمَةَ ﴾ وما إن نزلت هذه الآية إلا دعانا الرسول ﴿ ﷺ وآله﴾ فأتيناه وهو يقول : (سَلاَمٌ عَلَيْكُمْ كَتَبَ رَبُّكُمْ عَلَـــى نَفْسهِ الرَّحْمَةَ) فكنا نقعد معه ، فإذا أراد أن يقوم قام وتركنـــا فـــأنزل الله : ﴿

وَاصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ ﴾[1] قال : فكان رسول الله ﴿ ﷺ وآله﴾ يقعد معنا بعده فإذا بلغ الساعة التى يقوم فيها قمنا وتركناه حتى يقوم .

﴿ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم ﴾ والدعاء هو النداء ، قال تعالى حكاية عن سيدنا زكريا عليه السلام : ﴿ إِذْ نَادَى رَبَّهُ نِدَاء خَفِيًّا قَالَ رَبِّ إِنِّى وَهَنَ الْعَظْمُ مِنِّى وَاشْتَعَلَ الرَّأْسُ شَيْبًا وَلَمْ أَكُن بِدُعَائِكَ رَبِّ شَقِيًّا ﴾[2] والدعاء هو سؤال الله والتضرع والابتهال إليه لإتمام نعمة أو إزالة كربة أو تفريج غمة ، كما حكى القرآن عن سيدنا نوح عليه السلام : ﴿ كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ فَكَذَّبُوا عَبْدَنَا وَقَالُوا مَجْنُونٌ وَازْدُجِرَ فَدَعَا رَبَّهُ أَنِّى مَغْلُوبٌ فَانتَصِرْ فَفَتَحْنَا أَبْوَابَ السَّمَاء بِمَاء مُّنْهَمِرٍ ﴾[3] والدعاء توجه الفرد إلى الله يسأله من فضله أن يمهد له الأسباب ويزيل العقبات حتى يتحقق للفرد ما يتمناه إما خيرا يبتغيه أو دفعاً لشر يتقيه ، وقد حكى القرآن أن سيدنا إبراهيم كان يسأل الله الذرية الصالحة ، فلما رزقه الله إياها أكثر من الثناء على الله والحمد له ، ويقص القرآن ذلك على لسان سيدنا إبراهيم عليه السلام : (الْحَمْدُ لِلّهِ الَّذِى وَهَبَ لِى عَلَى الْكِبَرِ إِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَقَ إِنَّ رَبِّى لَسَمِيعُ الدُّعَاء رَبِّ اجْعَلْنِى مُقِيمَ الصَّلاَةِ وَمِن ذُرِّيَّتِى رَبَّنَا وَتَقَبَّلْ دُعَاء رَبَّنَا اغْفِرْ لِى وَلِوَالِدَى وَلِلْمُؤْمِنِينَ يَوْمَ يَقُومُ الْحِسَابُ)[4] والدعاء هو مخ العبادة ، وله مترلة عند الله سبحانه ، لأنه الحبل الذى يتعلق به الإنسان ليصله بِربه ، ويكون دليل

١- سورة الكهف آية ٢٨ .

٢- سورة مريم آية ٣ ــ ٤ .

٣- سورة القمر آية ٩ ــ ١١ .

٤- سورة إبراهيم آية ٣٩ ــ ٤١ .

القرب منه جل شأنه ، لذا يقول سيدنا رسول الله ﴿ ﷺ وآله﴾ فيما يرويه الحاكم : (ليس شيء أكرم على الله تعالى من الدعاء) وفيما رواه الترمذى : ﴿ مَن لَم يَسأَلِ آللهَ يَغضَب عَلَيهِ ﴾ ومنزلة الدعاء من العبادة كمنزلة الرأس من الجسد ، فهو دعامة أساسية فى العبادة ، وهى أكرم شيء على الله ، ويقول عمر رضى الله عنه : أنا لا أحمل هَمَّ آلإجابةِ إِنَّما أَحمل هم آلدعاء فإذا ألهمت آلدعاء كانت آلإجابة معه .

(بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِ) والغداة هى أول النهار ، والعشى هو آخره ﴿ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ ﴾ أى : يقصدون بدعائهم وعبادهم وذكرهم لربهم — من بداية النهار إلى نهايته — رؤية أنوار وجهه سبحانه ، فتطمئن قلوبهم بذكره ، ويزداد إيمانهم بدوام عبادته .

﴿ مَا عَلَيْكَ مِنْ حِسَابِهِم مِّن شَيْءٍ ﴾ أى : ليس عليك حساب ولا عتاب فى شأن من أقبلوا عليك ، ولا تكن فى حرج بسبب من أدبروا عنك نفورا من الصالحين الذين يبتغون المزيد من فضل ربهم بالتفقه فى دينهم ﴿ وَمَا مِنْ حِسَابِكَ عَلَيْهِم مِّن شَيْءٍ فَتَطْرُدَهُمْ فَتَكُونَ مِنَ الظَّالِمِينَ ﴾ أى : لا وزر عليك فى من أدبر عنك من المتكبرين الذين تحرص على هداهم فيأبون العقود مع عبادى الصالحين ، فأمر هؤلاء وهؤلاء موكول إلى ربهم وخالقهم يهدى من يشاء ويضل من يشاء ، واعلم أن طرد الفقراء من المؤمنين الضعفاء ظلم وعدوان ، وكل من يطلب طردهم فهم من الظالمين الذين يظلمون أنفسهم جهلا ، قبل أن يظلموا غيرهم بغيا .

قوله تعالى : وَكَذَلِكَ فَتَنَّا بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لِّيَقُولواْ أَهَؤُلاء مَنَّ اللّهُ عَلَيْهِم مِّن بَيْنِنَا أَلَيْسَ اللّهُ بِأَعْلَمَ بِالشَّاكِرِينَ(٥٣)

فى هذه الآية ارتباط ظاهر بالآية قبلها ، فهى بمثابة بيان أسـباب الحكـم بظلم كل من يطالب بطرد المؤمنين بالله الذين أقبلوا على مجلس رسـول الله ﴿ ﷺ وآله﴾ ه يدعون ربهم بالغداة والعشى ، ولا يبغون بدعائهم سوى رضاه سبحانه .

﴿ وَكَذَلِكَ فَتَنَّا بَعْضَهُم بِبَعْضٍ ﴾ بمعنى : كما ابتلينا السابقين وفتنا الأمم الماضية ، وكذلك نفتن قومك يا محمد فنختبر غنيهم بفقيرهـم والقـوى منـهم بالضعيف ، والحقير فيهم بالشريف ، والسيد الحر بالعبد الرقيق ، والعكس أيضـا صحيح ، لكى يظهر لك دخائل نفوسهم وما كمن فى قلوبهم ﴿ لِّيَقُولواْ أَهَؤُلاء مَنَّ اللّهُ عَلَيْهِم مِّن بَيْنِنَا ﴾ فيظهر لك مدى استكبارهم بغير الحق ، ومبلغ اسـتهزائهم واحتقارهم للمؤمنين الصادقين ، وهم غافلون عن أن قولهم هذا فيه استنكار على الله ، وعجب منهم من أن يمن على هؤلاء من دونهم ، ومنهم الضعيف الفقـير ، والعبد الحقير ، والعجمى الغريب ، فرد الله عليهم بحجة قاصمة لظهورهم فقـال جل من قائل : ﴿ أَلَيْسَ اللّهُ بِأَعْلَمَ بِالشَّاكِرِينَ ﴾ أى : أليس الله بأعلم بعبـاده ، يعلم كافرهم من شاكرهم ، وعظيمهم من حقيرهم ، فليست العظمـة عنـد الله بكثرة المال والأولاد ، ولا بالقوة وبسطة الجسم ، ولا بالجاه والحسب والنسـب الطين ، وإنما العظمة عند الله بالإيمان والقلب الرحمانى المحمل بحلل الصبر والرضـا والشكر ، والله وحده هو المطلع على دخائل نفوس عباده ، ويعلم حقيقة الشاكر من الجاحد ، والصابر من الجازع ، والراضى من الساخط ، فليس العظيم عند الله من كثر ماله وقوى بدنه وذاع صيته ، ولكن العظيم حقا هو من عمر بالإيمان قلبه ، وسكنت إلى الله نفسه ، ورضى فى السراء والضراء بقضاء ربه ، فشتان بين من كانت صفاته عوارض زائلة ، ومن كانت صفاته حقائق باقية ، وما قدرنا الفتنـة والاختبار إلا ليميز الخبيث من الطيب فيعرف الرسول ﴿ ﷺ وآله﴾ كيف يختـار أصحابه .

وفى هاتين الآيتين أسرار كثيرة نذكر منها ما بطن من سر الغنى فى صورة الفقر ، وسر الشرف فى صورة المهانة ، وخفى الحقارة والدناءة فى مظهر الأنفة والكبرياء ، ووجود حقائق العزة فى صورة المذلة ، والعكس صحيح أيضا ، ولذلك أمر الله نبيه ﴿ ﷺ وآله﴾ أن يبقى فى مجلسه أغنياء الأخلاق العظيمة الفاضلة ، ويعرض عن أغنياء الأموال الحقيرة الفانية .

وهناك سر آخر يرمز إليه قوله تعالى : ﴿ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ ﴾ فوجه الله تعالى غيب مصون وعلم مكنون ، لا تدركه الأفكار والعقول ، لأنه فوق إمكانيات البيان بالعبارات ، وأعلى من أن تومى إليه الإشارات ، ولكنا نخاطب ذوق كل ذى قلب حفظه الله من أدران الحظوظ والأهواء ، موضحين أن من رحمة الله تعالى بنا أن خاطبنا على قدر عقولنا ، ومدارك أفكارنا ، فأخبرنا بأنه سبحانه فى كل مكان بقوله : ﴿ وَهُوَ اللّهُ فِى السَّمَاوَاتِ وَفِى الأَرْض ﴾[1] وقال : إن له يدين ﴿ خَلَقْتُ بِيَدَى ﴾[2] ووصف نفسه بالسمع والبصر بقوله : ﴿ إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ ﴾[3] وكما قال سبحانه : ﴿ وَيُحَذِّرُكُمُ اللّهُ نَفْسَهُ ﴾[4]وعلى هذا النسق يقول سبحانه : ﴿ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ ﴾ وهذا عند العارفين يسمى علم التشبيه والمثال الذى بينه الله بقوله تعالى : ﴿ وَلِلّهِ الْمَثَلُ الأَعْلَى ﴾[5] .

١- سورة الأنعام آية ٣ .

٢- سورة ص آية ٧٥ .

٣- سورة الحج آية ٧٥ .

٤- سورة آل عمران آية ٢٨ .

٥- سورة النحل آية ٦٠ .

ولما كان الوجه هو أول ما يراه المخاطب ممن يخاطبه ، والطالب ممن يسعى إليه ويطلبه ، فكذلك وجه الله هو أول مشهد يشهده طالبه الساعى إليه على صراطه المستقيم ، فيشهد غيب البطون فى سر الظهور ، ويرى حقيقة الظاهر فى آيات المظاهر ، وذلك عندما يتحقق المريد من حقيقة الكائنات ، وما فيها من أنوار رب البريات ، بعد أن تفتت ذراتها أمام عيون قلبه ، وغاص فى معانيها بأنوار فكره ، فعرف حقيقتها الأولية ومادتها الأصلية قبل دخولها فى عالم التلوين ، وظهورها فى عالم التكوين ، عند ذلك تشرق أمام عينيه أنوار ربه ، ويشهده ظاهرا أينما وجه وجهه سر قول الله تعالى : ﴿ فَأَيْنَمَا تُوَلُّواْ فَثَمَّ وَجْهُ اللّه ﴾[1] أى : نور الله جل جلاله كما هو واضح جلى بصريح قوله سبحانه : ﴿ اللَّهُ نُورُ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ﴾[2] وهذا العلم لا يؤخذ من كتب وأوراق وغوص بين السطور ، ولكن يؤخذ من أفواه رجال رزقهم الله نورا فى قلوبهم ، نسأل الله تعالى أن يظهرهم ويجمع أهل القابل والصدق عليهم ، حتى تعود لنا أنوار سلفنا الصالح ومجدهم .

وتتضمن هذه الآية إشارة إلى سر الفِتنَةِ فى قوله تعالى : ﴿ وَكَذَلِكَ فَتَنَّا بَعْضَهُم بِبَعْضٍ ﴾ أى : اختبرنا بعضهم ببعض ، وأظهرنا دخائل نفوس الطرفين ، لأن تزاوج الأضداد فى الوجود من سنن الله فى خلقه . فالأسود يظهر الأبيض ، والفوق يشير إلى التحت ، والعلو يبين السفل ، والحسنات تدل على السيئات ، وهكذا اختلاف درجات النفوس البشرية مثلها كمثل النار تظهر خالص الذهب من كل شائبة تشوبه ، فالنفوس الشريرة المتكبرة الكافرة تظهرها النفوس الخيرة المتواضعة المؤمنة ، والأشياء المادية الظاهرة تشير إلى الشئون المعنوية الباطنة ، كما

١- سورة البقرة آية ١١٥ .

٢- سورة النور آية ٣٥ .

ترى من قطعتى الحجر بكثافتهما الظلمانية ، يبعثان بساطع النـــور إذا تلاقيـــا فى صدمة قوية ، كذلك فتن التصادم بين الناس فى كل زمان ومكان ، تبين أخــــلاق أهل السوء من أخلاق أهل الإحسان ، نسأل الله أن يحفظنا من الفتن ما ظهر منها وما بطن إنه هو الحفيظ القدير .

وتشير هذه الآية إلى صفة الشكر ومقام الشاكرين الذين وصفهم الله بالقلة عددا بقوله سبحانه : ﴿ وَقَلِيلٌ مِّنْ عِبَادِىَ الشَّكُورُ ﴾[1] وهو أعلم بهم لأنه جــل قدره اصطفاهم وجملهم بصفة من صفاته لقوله تعالى : ﴿ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ شَكُورٌ﴾[2] والله يحب من خَلقه من كان على خُلقه ، نسأله تعالى أن يغفر لنا ذنوبنا وأن يجعلنا من عباده الشاكرين .

قوله تعالى : وَإِذَا جَاءكَ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِآيَاتِنَا فَقُلْ سَلاَمٌ عَلَيْكُمْ كَتَبَ رَبُّكُمْ عَلَى نَفْسِهِ الرَّحْمَةَ أَنَّهُ مَن عَمِلَ مِنكُمْ سُوءًا بِجَهَالَةٍ ثُمَّ تَابَ مِن بَعْدِهِ وَأَصْلَحَ فَأَنَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ(٥٤) وَكَذَلِكَ نفَصِّلُ الآيَاتِ وَلِتَسْتَبِينَ سَبِيلُ الْمُجْرِمِينَ(٥٥)

بعد أن بين الله تعالى مقام المريدين لوجهه الكريم ، والطالبين لجنابه العظيم ، ناسب أن يذكر صفات بعض عباده الذين يحب لهم أن يلحقوا بهــم ويكونــوا معهم فقال وهو أصدق القائلين : ﴿ وَإِذَا جَاءكَ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِآيَاتِنَا ﴾ فقد روى بعض الصحابة أن نفرا من المؤمنين جاءوا رسول الله ﴿ ﷺ وآله﴾ وقالوا : لقــد فعلنا بعض الخطايا وأصبنا ذنوبا عظاما ، فلم يرد عليهم حتى أنزل الله قوله تعالى : ﴿ وَإِذَا جَاءكَ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِآيَاتِنَا ﴾ أى : إذا حضر عندك قوم من أهل الإيمـــان

١- سورة سبأ آية ١٣ .

٢- سورة الشورى آية ٢٣ .

الذين يصدقون بآياتنا وكتبنا ورسلنا ﴿ فَقُلْ سَلاَمٌ عَلَيْكُمْ ﴾ أى : أمان من الله لكم ، وعفو وغفران عن ذنوبكم فقد ﴿ كَتَبَ رَبُّكُمْ عَلَى نَفْسِهِ الرَّحْمَةَ ﴾ أى : تعهد على نفسه وكتب لكم الرحمة وغفر الذنوب والخطايا .

﴿ أَنَّهُ مَن عَمِلَ مِنكُمْ سُوءًا بِجَهَالَةٍ ﴾ أى : يا أيها المؤمنون بالله لا تقنطوا من رحمة الله ، إن من ارتكب منكم ذنوبا أو اقترب بعض السيئات وهو فى حالة من الجهالة أو النسيان أو الغفلة ﴿ ثُمَّ تَابَ مِن بَعْدِهِ وَأَصْلَحَ ﴾ أى : تدارك الأمر ورجع إلى الله نادما ذليلا منكسر القلب ، عازما على ألا يعود إلى ذنب أبدا ، فالله تعالى يقبل توبته ويغفر ذنوبه ﴿ فَأَنَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾ أى : يغفر الذنوب ويستر العيوب ويرحم التائبين المستغفرين ، بل وقد يتفضل عليهم فيبدل سيئاتهم حسنات وهو على ذلك قدير .

﴿ وَكَذَلِكَ نفَصِّلُ الآيَاتِ ﴾ أى : وكذلك نفضل المجمل ونبين ما هو أكمل ، فنشرح الآيات ، ونوضح ما خفى من مبهمات ، ليدلكم رسولنا ﴿ ﷺ وآله﴾ إلى ما فيه رضاؤنا ، فيعود إلى الصراط المستقيم كل المذنبين من أهل الإيمان الصادقين ﴿ وَلِتَسْتَبِينَ سَبِيلُ الْمُجْرِمِينَ ﴾ أى : لأجل أن يظهر طريق المجرمين المتكبرين الذين يرتكبون الكبائر عن عمد وهم عليها مصرون ، من طريق المؤمنين الصادقين الذين إذا وقعوا فى ذنب عادوا إلى الله تائبين نادمين .

وفى هاتين الآيتين بعض الإشارات نذكر منها نوعا من الناس تتألم نفوسهم من المعاصى ، وتتأذى من فعل السيئات ، وتلوم صاحبها على ما وقع فيه من الخطايا والذنوب ، وهذه النفس اللوامة تدفع صاحبها إلى البحث عن النجاة لأنها نفس مؤهلة للخير ، فإذا سمعت عن منقذ أو مرشد أو رجل صالح أسرعت إليه تطلب منه الإرشاد إلى طريق الرشاد ، وهى التى أشار إليها القرآن فى الآية الأولى .

وهناك إشارة أخرى إلى رحمة الله الكبرى ونعمته العظمى سـيدنا محمـد ﴿ ﷺ وآله﴾ الذى أرسله الله رحمة للعالمين ، وجمله بصفتى الرأفة والرحمة بالمؤمنين ، وهو المشار إليه بقول الرحمن الرحيم : ﴿ كَتَبَ رَبُّكُمْ عَلَى نَفْسِهِ الرَّحْمَةَ ﴾ .

وأخيراً إشارة ثالثة تشير إلى أن مهمة جميع الرسل والأنبياء ــ وكل من نهج نهجهم من الوارثين الصالحين الأولياء ــ هى بيان طريق أهـل الهدايـة من المؤمنين ، وذكر صفاتهم وأخلاقهم الدالة على عقيدة قلوبهم ، لكى يظهر طريق أهل الغواية من المجرمين الذين دلت أعمالهم وأحوالهم على خبث نفوسهم ، ويتم اتضاح الفرق بين الطريقين ، ولهذا سميت كتب وصحف الرسل بالفرقـان ، لأن جميعها تفرق بين عقيدة الكفر وعقيدة الإيمان ، نسأل الله النجاة فى الدنيا ويوم الدين .

قوله تعالى : قُلْ إِنِّى نُهِيتُ أَنْ أَعْبُدَ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ اللّهِ قُل لاَّ أَتَّبِعُ أَهْوَاءكُمْ قَدْ ضَلَلْتُ إِذاً وَمَا أَنَاْ مِنَ الْمُهْتَدِينَ (56)قُلْ إِنِّى عَلَى بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّى وَكَذَّبْتُم بِهِ مَا عِندِى مَا تَسْتَعْجِلُونَ بِهِ إِنِ الْحُكْمُ إِلاَّ لِلّهِ يَقُصُّ الْحَقَّ وَهُوَ خَيْرُ الْفَاصِلِينَ(٥٧) قُل لَّوْ أَنَّ عِندِى مَا تَسْتَعْجِلُونَ بِهِ لَقُضِىَ الأَمْرُ بَيْنِى وَبَيْنَكُمْ وَاللّهُ أَعْلَمُ بِالظَّالِمِينَ(٥٨)

بعد أن بين الله تعالى فى الآيات السابقة ما يجب على الـداعى إلى الله أن يعامل به المؤمنين الذين نور الله قلوبهم بقابل التلقى ، وشرع فى هذه الآيات الثلاث يبين ما يجب فى معاملة المشركين الكافرين فقال تعالى آمراً حبيبه ومصطفاه ﴿ ﷺ وآله﴾ : ﴿ قُلْ إِنِّى نُهِيتُ أَنْ أَعْبُدَ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِـن دُونِ اللّـهِ ﴾ أى : قـل للمشركين الذين يشركون بالله آلهة مخلوقة مثلهم : إن ربى عن اتباعكم فى عبـادة

أصنامكم التى صنعتموها بأيديكم ، أو التى عبدتموها من دونه وهى من مخلوقاته جل وعلا .

﴿ قُل لاَّ أَتَّبِعُ أَهْوَاءكُمْ ﴾ أى : وأمرنى أن أخبركم أنى لا أتبع أهواءكم وحظوظ أنفسكم التى تسول لكم عبادة ما لا ينفعكم ولا يضركم ﴿ قَدْ ضَلَلْتُ إِذًا وَمَا أَنَاْ مِنَ الْمُهْتَدِينَ ﴾ إذا اتبعتكم واقتديت بكم ، لأن من اقتدى بأهل الحظوظ والأهواء بعد أن جاءته بينة من مولاه يكون قد ضل طريقه وخسر نفسه وتاه عن الطريق المستقيم .

﴿ قُلْ إِنِّى عَلَى بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّى ﴾ أى : قل لهم إنى هدانى ربى وجعلنى على بينه من أمرى وهو الحق الواضح والبيان الساطع الذى لا مراء فيه ﴿ وَكَذَّبْتُم بِهِ ﴾ فكيف العمل معكم بعد أن كذبتم بالله ربكم وخالقكم ، وأنكرتم نور الحق المشرق ، واتبعتم ظلام الباطل المهلك .

﴿ مَا عِندِى مَا تَسْتَعْجِلُونَ بِهِ ﴾ سبب نزول هذه الآية الشريفة أن كبار المشركين وغلاة الكافرين كانوا إذا سمعوا آية من آيات الإنذار بالعذاب ، يبادرون إلى القول لرسول الله ﴿ ﷺ وآله﴾ : يا محمد ائتنا به عاجلا إن كنت صادقا حقا ، فكان الرد عليهم بما أخبرنا الله به من قوله : ﴿ إِنِ الْحُكْمُ إِلاَّ لِلّهِ ﴾ أى : ليس بيدى إمكانية إنزال العذاب ، ولا هو بأمرى وتحت حكمى وسلطانى ، وإنما الحكم والسلطان لله وحده لا شريك له ﴿ يَقُصُّ الْحَقَّ وَهُوَ خَيْرُ الْفَاصِلِينَ ﴾ ولهذه الآية معنيان ، والمعنى الأول : إن يقص الحق أى : يقول الحق ، والمعنى الثانى : إن حكم القصاص منهم ظلمهم وكفرهم بيد الله وحده .

ولهذه الآية قراءة أخرى : ﴿ يَقُصُّ الْحَقَّ وَهُوَ خَيْرُ الْفَاصِلِينَ ﴾ وكلا القرائتين بمعنى أن الله تعالى يقول الحق ، وينفذ الحق ، ويقضى الحق ، وهو سبحانه

الذى يفصل فى كل أمر خير فصل ، ويحكم خير حكم ، لأنه هو أعلم بخلقه ، وكل ما عداه مخلوقون لا يعلمون شيئا إلا ما علمهم الله وأمرهم به سبحانه . ﴿ قُل لَّوْ أَنَّ عِندِى مَا تَسْتَعْجِلُونَ بِهِ ﴾ أى : قل لهؤلاء الذين يستعجلون العذاب : لو كان فى يدى عذابكم الذى تطلبون سرعته وعجلته ﴿ لَقُضِىَ الأَمْرُ بَيْنِى وَبَيْنَكُمْ ﴾ أى : لقضيت لكم ما تستعجلونه واسترحت من إلحاحكم فى طلبه ، ولكن العذاب بيد الله والأمر موكول إليه ، وليس لى من الأمر شىء . ﴿ وَاللّهُ أَعْلَمُ بِالظَّالِمِينَ ﴾ أى : وهو العليم بأهل الشرك والظلم الذين يستحقون العذاب ، وهو الأعلم بمتى يحل بهم ، وبالوقت الذى فيه يعاقبهم ، فالله يمهل ولا يهمل .

وفى هذه الآيات القرآنية كثير من الإشارات الذوقية التى يجب على كل داع إلى الله تعالى أن يتحلى بها قدر الاستطاعة ، ونذكر منها :

١ ــ أمر الله حبيبه ومصطفاه ﴿ ﷺ وآله﴾ بتبليغ رسالة توحيد الله وعبادته دون سواه فى صيغة نهى له ﴿ ﷺ وآله﴾ وليس للمشركين ، فقال تعالى : ﴿ قُلْ إِنِّى نُهِيتُ ﴾ الآية ولم يقل : إِنِّى نَهَيْتُكُم . وذلك ليكون النهى أوقع فى قلوبهم ، وأبعد غورا فى نفوسهم ، وأقوى أثرا فى جذبهم إلى الحق دون أدنى مساس بكبريائهم .

٢ ــ وفى قوله جل شأنه : ﴿ قُل لاَّ أَتَّبِعُ أَهْوَاءكُمْ ﴾ نهى ثان يثبت به الله تعالى حرص رسول الله ﴿ ﷺ وآله﴾ على هداية المشركين إلى الحق ، وذلك ببيان أن ما يعبدون من دون الله باطل جاءت به أهواؤهم وشهوات أنفسهم ، ومصالحهم الدنيوية الزائلة ، وأن ما جاءهم به هو الحق لأنه من عند الحق سبحانه وتعالى .

٣ ــ وقوله سبحانه خبرا عن رسوله ﴿ ﷺ وآله﴾ : ﴿ قَدْ ضَلَلْتُ إِذًا وَمَا أَنَاْ مِنَ الْمُهْتَدِينَ ﴾ فيه بيان من رسول الله﴿ ﷺ وآله﴾ المشركين يوضح فيه أسباب عدم اتباعه لهم فيما يعبدونه ، وإعلام لهم بأن الإنسان إذا ترك وشأنه بغير دستور سماوى وأمر إلهى يهديه طريق السعادة فى الدنيا والنجاة فى ألآخرة ضل ضلالا مبينا وخسر خسرانا عظيما ، وأهلك نفسه وأهلك غيره معه .

٤ ــ وقول الله تعالى لنبيه ﴿ ﷺ وآله﴾: ﴿ قُلْ إِنِّى عَلَى بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّى ﴾ فيه وضع النقيضين معا لكى يسهل الحكم على أيهما أحق بالاتباع ، فبين أن ما هم عليه جاء من وحى أهوائهم وشهوات أنفسهم ومصالحهم المتناقضة ، وأن ما جاءهم به ليس من عنده وإنما هو من ربه وربهم سبحانه وتعالى ، وهو الحق الذى يجب أن يتبع ، وهذه أحسن الطرق فى الدعوة إلى أى قضية ، وهو أسلوب فى منتهى الحكمة والموعظة الحسنة .

٥ ــ وقوله : ﴿ وَكَذَّبْتُم بِهِ ﴾ فيه إشارة إلى سماحة رسول الله ﴿ ﷺ وآله﴾ وحلمه ، حيث لم يغضب ولم يثر لتكذيبهم له ، ولم يدع عليهم بالعذاب والهلاك كما فعل الرسل السابقون ، وإنما فوض الأمر إلى الله فى تسليم كلى وخضوع نهائى ، وقال بقول الحق سبحانه : ﴿ إِنِ الْحُكْمُ إِلاَّ لِلَّهِ ﴾ وهذا هو الأسلوب الأمثل الذى يجب على الدعاة أن ينتهجوه فى دعوتهم إلى الله تعالى ، خاضعين لقوله سبحانه : ﴿ ادْعُ إِلِى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجَادِلْهُم بِالَّتِى هِىَ أَحْسَنُ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَن ضَلَّ عَن سَبِيلِهِ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ ﴾[1] نسأل الله تعالى أن يوقفنا جميعا لما يجب ويرضى .

١- سورة النحل آية ١٢٥ .

قوله تعالى : وَعِندَهُ مَفَاتِحُ الْغَيْبِ لاَ يَعْلَمُهَا إِلاَّ هُوَ وَيَعْلَمُ مَا فِى الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَمَا تَسْقُطُ مِن وَرَقَةٍ إِلاَّ يَعْلَمُهَا وَلاَ حَبَّةٍ فِى ظُلُمَاتِ الأَرْضِ وَلاَ رَطْبٍ وَلاَ يَابِسٍ إِلاَّ فِى كِتَابٍ مُّبِينٍ(٥٩)

بعد أن بين الله تعالى فى الآيات السابقة كيف أمر رسوله ﴿ﷺ وآله﴾ بتبليغ قومه رسالة التوحيد ، ودعوهم إلى عبادة الله دون سواه ، فى صيغة حكيمة تنطوى على آداب عليه وأخلاق محمدية لا تخدش لهم الكبرياء ، ولا تثير فيهم نعرة الجاهلية ، وجملة بالرأفة بهم عندما يكذبونه ، ويحلم عليهم كلما آذوه ، ناسب أن يترل عليه هذه الآية التى تشير كلماها إلى النصر القريب الكامن طى الغيب العجيب ، حتى يزداد المسلمون إيمانا على إيماهم ، وحماسا كاملا لدينهم .

﴿ وَعِندَهُ مَفَاتِحُ الْغَيْبِ ﴾ أى : وعند الله مفاتيح كل الشئون المعنوية المقفلة ، ومفاتيح كافة الأشياء المادية المغلقة ﴿ لاَ يَعْلَمُهَا إِلاَّ هُوَ ﴾ أى : لا يحيط بحقيقتها ويعلم سرها إلا هو الفتاح العليم الذى يفتح بما يشاء على من يشاء من عباده سر ما أخبرنا به الله من حديث بعض خلقه الذين ﴿ قَالُواْ أَتُحَدِّثُونَهُم بِمَا فَتَحَ اللّهُ عَلَيْكُمْ لِيُحَآجُّوكُم بِهِ عِندَ رَبِّكُمْ أَفَلاَ تَعْقِلُونَ ﴾(١) وقوله سبحانه : ﴿ فَلَمَّا نَسُواْ مَا ذُكِّرُواْ بِهِ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ أَبْوَابَ كُلِّ شَيْءٍ حَتَّى إِذَا فَرِحُواْ بِمَا أُوتُواْ أَخَذْنَاهُم بَغْتَةً فَإِذَا هُم مُّبْلِسُونَ ﴾(٢) وكذلك يأتى الفتح بمعنى النصر كما هو واضح من قول الله تعالى : ﴿ الَّذِينَ يَتَرَبَّصُونَ بِكُمْ فَإِن كَانَ لَكُمْ فَتْحٌ مِّنَ اللّهِ قَالُواْ أَلَمْ نَكُن مَّعَكُمْ وَإِن كَانَ لِلْكَافِرِينَ نَصِيبٌ قَالُواْ أَلَمْ نَسْتَحْوِذْ عَلَيْكُمْ وَنَمْنَعْكُم مِّنَ

١- سورة البقرة آية ٧٦ .

٢- سورة الأنعام آية ٤٤ .

الْمُؤْمِنِينَ ﴾(1) كما يأتى الفتح أيضا بمعنى الحكم لقوله وهو أصدق القائلين : ﴿ قُلْ يَجْمَعُ بَيْنَنَا رَبُّنَا ثُمَّ يَفْتَحُ بَيْنَنَا بِالْحَقِّ وَهُوَ الْفَتَّاحُ الْعَلِيمُ ﴾(2) .

﴿ وَيَعْلَمُ مَا فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ ﴾ أى : وعلمه محيط بكل ذرة فى الوجود سواء كانت فى تراب الأرض وصخور الجبال ، أو جذوع الأشجار ، أو بذور النبات ، أو مياه البحار والأنهار ، أو حيوانات البحر ، أو غير ذلك من معادهما وكائناهما .

﴿ وَمَا تَسْقُطُ مِن وَرَقَةٍ إِلاَّ يَعْلَمُهَا ﴾ أى : وما تجف ورقة من نبات أو شجرة إلا وعلمه محيط بوقت سقوطها ، لأنها فى سابق علمه من قبل أن تنبت على ساقها .

﴿ وَلاَ حَبَّةٍ فِي ظُلُمَاتِ الأَرْضِ ﴾ أى : ولا عنصر من عناصر المعادن ولا ذرة من ذرات النبات ولا برعم من براعم العشب والكلأ فى باطن الأرض ﴿ وَلاَ رَطْبٍ وَلاَ يَابِسٍ إِلاَّ فِي كِتَابٍ مُّبِينٍ ﴾ من قبل أن يخلق الله الأرض ومن عليها ثابت فى علم الله الأزلى السرمدى الأبدى .

ولا نخلى هذا المقام من بيان بعض ما تشير إليه هذه الآية من أسرار فنقول : إن الغيب هو غاب عن مدارك الناس وهو ينقسم إلى نوعين(3) :

1- سورة النساء آية ١٤١ .

2- سورة سبأ آية ٢٦ .

3- راجع كتاب (الجفر) ص ٢٤ ، ص ٢٦ طبعة سنة ١٣٩٣ هـ يطلب من ((دار الكتاب الصوفى)) لنشر تراث الإمام المجدد السيد محمد ماضى أبى العزائم عليه السلام ــ ١١٤ ش مجلس الشعب القاهرة .

١ ــ الأولى يتعلق بما يغيب عن علم الإنسان من خواص ماديات الأكوان ومنافعها وكيفية إخضاعها لخدمته فى حياته الدنيوية ، وهذا الغيب قد يكشفه الله للمؤمن وللكافر ، وينتفع به البار والفاجر .

٢ ــ والثانى هو الغيب الإلهى المعنوى المتعلق برحمة الله وفضله ، والموصل إلى نيل الرضا فى الدنيا ، والفوز بالفلاح العظيم فى الآخــرة ، وهــذا الغيــب لا يشكفه الله تعالى إلا لمن سبقت لهم من الله الحسنى وهــم الأنبيــاء والمرســلون ، والصديقون والأولياء والصالحون ، الذين يرثون رسالة خاتم النبيين ﴿ ﷺ وآلــه﴾ سر قول رب العالمين : ﴿ عَالِمُ ٱلغَيبِ فَلاَ يُظهِرُ عَلَى غَيبِهِ أَحَداً إِلاَّ مَنِ ٱرتَضَى مِن رَّسُولٍ ﴾[١] لأن جميع هؤلاء هم مفاتيح العطايا الإلهية والأيادى الربانية ، يهــدى بهم الله من يشاء ، ويقيم بهم الحجة على من يشاء ، ولهذا وصف سيدنا على كرم الله وجهه رسول الله ﴿ ﷺ وآله﴾ بأنه ٱلفَاتِحُ لِمَا أُغلِقَ وَٱلخَاتَمُ لِمَا سَبَقَ . وقــال رسول ﴿ ﷺ وآله﴾ : ﴿ إِنَ للهِ خَزَائِنَ وَلِلخَزَائِنِ مَفَاتِيح فَطُوبَى لِمَن جَعَلَــهُ ٱللهُ مِفتَاحاً لِلخَيرِ مِغلاَقاً لِلشَّرِ ﴾[٢] إلى آخر الحديث . نسأل الله أن لا يخلــى الأمــة المحمدية من رجال تفتح على يديهم علوم الغيب المصون وغرائبــه ، ويكونــون مفاتيح للخير وخزائنه ، وإنه قريب مجيب .

قوله تعالى : وَهُوَ ٱلَّذِى يَتَوَفَّاكُم بِاللَّيْلِ وَيَعْلَمُ مَا جَرَحْتُم بِالنَّهَارِ ثُمَّ يَبْعَثُكُمْ فِيهِ لِيُقْضَى أَجَلٌ مُّسَمًّى ثُمَّ إِلَيْهِ مَرْجِعُكُمْ ثُمَّ يُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ(٦٠)

١- سورة الجن آية ٢٦ ــ ٢٧ .

٢- رواه ابن ماجه فى سننه وأبو حاتم البستى فى صحيحه عن أنس بن مالك .

﴿ وَهُوَ الَّذِى يَتَوَفَّاكُم بِاللَّيْلِ ﴾ أى : وهو الله الذى يميتكم الموتة الصغرى التى هى النوم ، فيقبض طاقة الحس والحركة والفكر والإدراك حتى يغلبكم سلطان النوم بالليل ، وخص الليل بالذكر لأنه الوقت الذى تنام فيه ألأكثرية الكبرى من المخلوقات .

﴿ وَيَعْلَمُ مَا جَرَحْتُم بِالنَّهَارِ ﴾ أى : ويعلم كل صغيرة وكبيرة من أفعالكم التى قمتم بها بواسطة جوارحكم أثناء يقظتكم بالنهار ، سواء كانت هذه الأعمال خيرا أم شرا ، وقد خص الله النهار باليقظة والتكسب لأن الكثرة الغالبة من المخلوقات تعمل فيه ، فالعمل بالليل استثناء ، والعمل بالنهار هو الأصل ، وقوله : ﴿ ثُمَّ يَبْعَثُكُمْ فِيهِ ﴾ أى : يرد عليكم طاقة اليقظة والحس والحركة خلال النهار ﴿ لِيُقضَى أَجَلٌ مُّسَمّىً ﴾ أى : ليستوفى كل مخلوق أجله الذى قدره الله له فى الحياة ؛ ويتكسب منها ما قضاه الله عليه أزلا ، ﴿ ثُمَّ إِلَيْهِ مَرْجِعُكُمْ ﴾ أى : وبعد أن يتم كل مخلوق أجله المعلوم ، ويأتى يومه المحتوم فى طى الغيب المصون — وفق الإرادة الإلهية ودخوله فى الحياة البرزخية — ترجعون فى النهاية إلى ربكم ليحاسب كل فرد منكم بما كسبت يداه .

﴿ ثُمَّ يُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴾ أى : بعد قضاء الحياة البرزخية يعيدكم إليه ، ويبعثكم يوم القيامة للحساب ، فيخبركم بكل ما عملتم ، ويجازيكم على كل صغيرة وكبيرة ، وإما بالثواب إن كانت خيرا ، وإما بالعقاب إن كانت شرا ، ونسأل الله تعالى أن يعاملنا برحمته ولا يعاملنا بعدله ، حتى ننال حسن الثواب والنجاة من العقاب .

قوله تعالى : وَهُوَ الْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِ وَيُرْسِلُ عَلَيْكُم حَفَظَةً حَتَّىَ إِذَا جَاءَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ تَوَفَّتْهُ رُسُلُنَا وَهُمْ لاَ يُفَرِّطُونَ(63)

﴿ وَهُوَ الْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِ ﴾ هذه الآية فيها إشارة ذوقية تبين ارتباطها بالآية السابقة ارتباطا محسوسا ملموسا ، ويشهده بعين العيان كل إنسان منحه الله فؤادا زكيا ، وبصيرة نافذة فيرى مدى القهر الإلهى الواقع على جميع الخلق ، والمتجلى فى ظاهر الموت المؤقت والمسمى بالنوم ، والمحتم حدوثه كل أربع وعشرين ساعة ليكون واعظا ونذيرا لكل من كان له قلب أو ألقى السمع وهو شهيد بأن الموته الصغرى نذير بالموتة الكبرى ، فيعمل لها قبل أن يأتى وقتها .

﴿ وَيُرْسِلُ عَلَيْكُم حَفَظَةً ﴾ أى : يخصص سبحانه لكل عبد من عباده ملائكه يحفظونه فى منامه ، وفى أثناء سعيه على معاشه ، ويكتبون أعماله ، ويحصون عليه سكناته وحركاته ، ويسجلون حسناته وسيئاته ﴿ حَتَّىَ إِذَا جَاء أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ تَوَفَّتْهُ رُسُلُنَا ﴾ أى : وعند الموت فى نهاية العمر يجد ملائكة الله الموكلين بقبض الأرواح حاضرين ﴿ وَهُمْ لاَ يُفَرِّطُونَ ﴾ أى : لا يمهلون فى أداء واجبهم ، ولا يقصرون فى طاعة ربهم ، ولا يعصون الله فيما أمرهم ، ويفعلون ما يؤمرون دون تأخير أو مجاملة .

قوله تعالى : ثُمَّ رُدُّوْاْ إِلَى اللّهِ مَوْلاَهُمُ الْحَقِّ أَلاَ لَهُ الْحُكْمُ وَهُوَ أَسْرَعُ الْحَاسِبِينَ(63)

بعد أن أثبت الله تعالى فى الآيات السابقة أن عنده مفاتيح الغيب ، وأن كل ما فى البر والبحر من رطب ويابس ــ سواء كان ثابتا أو متحركا ــ فهو محاط بعلمه السابق ، وأنه جل جلاله هو القاهر فوق كل ما سواه ، لأن كل ما سواه من خلقه ، وكل مخلوق عبد لخالقه ، ناسب أن يبين سبحانه النهاية الحتمية لكافة مخلوقاته فقال تعالى : ﴿ ثُمَّ رُدُّوْاْ إِلَى اللّهِ ﴾ بعد تمام تطورات خلقهم ووفاتهم فى

نهاية آجالهم ، ومكثهم فى برزخهم إلى ما شاء الله ربهم ، سوف من قبورهم ويردون إلى الله خالقهم .

وقوله تعالى : ﴿ مَوْلاَهُمُ الْحَقِّ ﴾ فيه تنبيه لأمر بديهى مؤكد ، وهو أن كل مولى سوى الله تعالى باطل لا شك فى بطلانه ، لأن المولى الحق هو الذى يرد إليه الخلق فى النهاية . وقوله تعالى : ﴿ أَلاَ لَهُ الْحُكْمُ ﴾ فيه إيقاظ للغافلين ، وزجر للظالمين ، وبشرى للضعفاء والمساكين ، بأن الحكم لله رب العالمين ﴿ وَهُوَ أَسرَعُ آلحَسِبِينَ ﴾ الذى يحاسب عباده يوم الدين ، حسابا سريعا لا مثيل لسرعته ، لأنه حساب يليق بقدرته ، ولهذا عجزت كل الخلائق عن وصفه .

وتشير هذه الآية حتمية الرجوع فى النهاية إلى الله الولى الحق ، بعد محو الخيالات والأوهام التى تجعل فلانا مولى فلان ، وعلانا أنفع من علان ، حتى بلغ الأمر بأن بعض الشعوب والدول كانت تتوهم ولاية دول أخرى لأنها أقوى منها وأكبر ، فلما جد الجد لم تجد لها مولى سوى الله تعالى .

وتشير كذلك على سر الحساب ومدى سرعته ، وتثبت عجز الخلائق عن وصف كيفيته ، لأنه سر من أسرار العلوم الربانية ، التى تتعلق بالقدرة الإلهية ، ومعلوم أن كل أمر يتعلق بالله الحق ، فهو أعلى من أن تدركه عقول الخلق ، وعلم الله قديم أزلى ، وقائم سر مدى ، ودائم أبدى ، فلا يحيط به أحد إلا بقدر ما يشاء الله تعالى .

قوله تعالى : قُلْ مَن يُنَجِّيكُم مِّن ظُلُمَاتِ الْبَرِّ وَالْبَحْرِ تَدْعُونَهُ تَضَرُّعاً وَخُفْيَةً لَّئِنْ أَنجَانَا مِنْ هَذِهِ لَنَكُونَنَّ مِنَ الشَّاكِرِينَ(63)

﴿ قُل ﴾ أى : قل أيها الرسول لقومك وللناس أجمعين ، فى كل زمان وفى كل مكان وإلى يوم الدين ﴿ مَن يُنَجِّيكُم مِّن ظُلُمَاتِ الْبَرِّ وَالْبَحْرِ ﴾ أى : رياح البر وعواصفه ، وغضب البحر وهياج أمواجه ، وينقذكم من الهلاك المحيط بكم فى حلكم وترحالكم ﴿ تَدْعُونَهُ تَضَرُّعاً وَخُفْيَةً ﴾ أى : تتوجهون إليه بالدعاء جهرا وسرا ، قولا وحالا ، حين يدهمكم أمر فوق طاقتكم أثناء سفركم فى البر أو البحر ، تتضرعون إليه مبتهلين ، وتناجونه متبتلين ﴿ لَّئِنْ أَنجَانَا مِنْ هَذِهِ لَنَكُونَنَّ مِنَ الشَّاكِرِينَ ﴾ أى : حال تضرعكم لله جهرا ، .

وتبتلكم له خفية ، وتقولون : اللهم ربنا نجنا من هذه الأهوال التى دهمتنا ، حتى نكون لك شاكرين ، ونعبدك ذاكرين ومقدسين .

وفى هذه الآية إشارة على أن الله سبحانه لا يترك أحدا من عباده إلا وأقام عليه الحجة ، وأظهر له البرهان على انه جل شأنه إله واحد لا شريك له فى ملكه ، فيرسل أولا رسله مبشرين ومنذرين ، فمن كان عنده القابل وصفاء النفس صدّقهم وآمن بما جاءوا به ، وسارع إلى طاعة ربه وعمل بما أمر وانتهى عما نهى ، وأما من كان مظلم القلب ــ من كثافة حجاب الغفلة واستغراقه فى لهوه وغروره ــ فيكذبهم ويبعد عنهم ولا يعمل بما جاءوا به ، فيقدر الله له شيئا من البلاء والمرض والكرب فى المال والولد ، وذلك لكى يزول الحجاب وتكشف الغفلة ويذهب الغرور ، فيرى الحق ظاهراً جليا ، ويعرف الله ربا حكيما قادرا وليا ، ويرى بعين اليقين كل الموجودات هالكة لا بقاء لها ، فيدعو ربه دعاء ظاهرا وخفيا .

وإنى أرى أن هذه هى حجة الله على أكثر الناس لم تصلهم دعوة الرسل ، وإن قال معظم العلماء بأن أهل الفترة ناجون واستدلوا بقول الله تعالى : ﴿ كُنَّا

مُعذِّبِينَ حَتَّى نَبعَثَ رَسُولاً ﴾[1] فأقول لهم بلسان علم الإشارة : إن البلاء الـــذى يجرد الإنسان من غفلته وغروره ويعرفه قدر نفسه ويلهمه رشده هو بالنسبة له خير رسول ، ،الدليل قائم فى قول الله تعالى : ﴿ آللَّهُ يَصطَفِى مِنَ آلمَلاَئِكَةِ رُسُلاً وَمِـــنَ آلنَّاسِ ﴾[2] فالملك يوحى إلى المتبلى بالمرض أو المصيبة أو الكرب العظيم أو ضيق الصدر الأليم بالدعاء إلى الله العلى الكريم فيفرج الله كربة عبده ، وبهـــذا الفـــرج والنجاة يدخل العبد فى زمرة الشاكرين ، بعد أن يئس منه جميع المرشدين والوعاظ من العلماء العاملين ، ولكن الله تعالى ابتلاه ثم كلمه سبحانه وهداه سر قوله جـــل علاه : ﴿ وَمَا كَانَ لِبَشَرٍ أَن يُكَلِّمَهُ اللَّهُ إِلَّا وَحْيًا أَوْ مِن وَرَاء حِجَـــابٍ أَوْ يُرْسِـــلَ رَسُولًا فَيُوحِي بِإِذْنِهِ مَا يَشَاء إِنَّهُ عَلِي حَكِيمٌ ﴾[3] فالله تعالى يقيم الحجة على جميع الأنام بإرسال الرسل وبالإلهام لقوله تعالى : ﴿ وَنَفسٍ وَمَا سَوَّاهَا فَأَلهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقوَاهَا ﴾[4] ونكتفى بهذا القدر فى هذا المقام .

قوله تعالى : قُلِ اللّهُ يُنَجِّيكُم مِّنْهَا وَمِن كُلِّ كَرْبٍ ثُمَّ أَنتُمْ تُشْرِكُونَ(٦٤)

﴿ قُلِ اللّهُ يُنَجِّيكُم مِّنْهَا وَمِن كُلِّ كَرْبٍ﴾ فى هذه الآية أمر من الله تعـــالى لرسوله ﴿ ﷺ وآله﴾ بأن يقول للناس كافة إن الله هو الذى ينجيكم من أهوال البر والبحر ، كما ينجيكم من كل مرض أو ابتلاء فى المال والولد ، ومن كل هم وغم وكرب ﴿ ثُمَّ أَنتُمْ تُشْرِكُونَ ﴾ ثم أنتم بعد النجاة والسلامة تشركون بالله فتقولون : لولا كذا وكيت ما نجونا ، والفضل فى نجاتنا يعود إلى فلان وعلان ، وهذه هى

١- سورة الإسراء آية ١٥ .

٢- سورة الحج آية ٧٥ .

٣- سورة الشورى آية ٥١ .

٤- سورة الشمس آية ٧ ـــ ٨ .

عادة أكثر الناس بعد نجاتهم من الأهوال التى أحاطت بهم ، والقلة القليلة هى الـــتى تذكر فضل الله رب العالمين ، وتدخل فى زمرة الشاكرين ، وصدق الله فى قولــه وهو الحليم الغفور : ﴿ وَقَلِيلٌ مِّنْ عِبَادِىَ ٱلشَّكُورُ ﴾[1] .

قوله تعالى : قُلْ هُوَ الْقَادِرُ عَلَى أَن يَبْعَثَ عَلَيْكُمْ عَذَابًا مِّن فَوْقِكُمْ أَوْ مِـــن تَحْتِ أَرْجُلِكُمْ أَوْ يَلْبِسَكُمْ شِيَعاً وَيُذِيقَ بَعْضَكُم بَأْسَ بَعْضٍ انظُرْ كَيْــفَ نُصَـــرِّفُ الآيَاتِ لَعَلَّهُمْ يَفْقَهُونَ(65)

بعد أن أمر الله تعالى رسوله ﴿ ﷺ وآله﴾ فى الآيتين الســـابقين أن يخـــبر الناس كافة بقدرته سبحانه على أن ينجيهم من ظلمات البر والبحر ، ويكشـــف عنهم سوء ما يصيبهم من كرب وهم وغم ، ناسب أن يخبرهم أيضا بقـــدرة الله تعالى على أن يضرهم بما كسبت أيديهم ، وذلك تهديدا لهم وإعلانا بأن الله تعالى هو الضار وهو النافع ، ولا ضار ولا نافع سواه فى حقيقة الأمر .

﴿ قُلْ هُوَ الْقَادِرُ عَلَى أَن يَبْعَثَ عَلَيْكُمْ عَذَابًا مِّن فَوْقِكُمْ أَوْ مِـــن تَحْـــتِ أَرْجُلِكُمْ ﴾ أى : إن الله قادر على أن يرسل عليكم عذابا من فوقكم مثل الصواعق وقطع البرد الضخمة ، وسيول المطر المنهمر ، أو من تحت أرجلكم مثل الـــزلازل المدمرة ، وانشقاق الأرض وخسفها ، أو من مصائب تصيب أبدانكم وأهلـــيكم كالمرض بأنواعه العديدة ، وذلك ليكون العذاب رسولاً إليكم بدلا من رحمـــة الله العظمى ونعمته الكبرى سيدنا محمد ﴿ ﷺ وآله﴾ ، فيذكركم بقدرة الله عليكم ، ويجعلكم تلجأون إليه سبحانه ، لأن من الناس من تصلحه الرحمة والعناية ، ومنهم

١- سورة سبأ آية ١٣ .

من يصلحه العذاب والبلايا ، ومنهم من لا يستجيب للكرامة ، ولا تردعه الإهانة ، فتقام عليه الحجة البالغة .

﴿ أَوْ يَلْبِسَكُمْ شِيَعاً وَيُذِيقَ بَعْضَكُم بَأْسَ بَعْضٍ ﴾ واللبس هو اختلاط الأمر وعدم وضوح الحق من الباطل ، فيختلط بكم من ليس منكم فيفرق جمعكم ويشتت شملكم ، فتكونون فرقا متنافرة وأحزابا متقاتلة تعلو سيوفكم رقاب بعضكم ﴿ وَيُذِيقَ بَعْضَكُم بَأْسَ بَعْضٍ ﴾ وهذا ما نراه بعيون رؤوسنا واضحا جليا فى عصرنا والعصور من قبلنا ، فقد استعمل عدونا نفرا منا فى أذيتنا فأوقعنا فى شديد الحرج من أن نشتغل بقتال بعضنا ، ونترك عدونا ينظر إلينا مسرورا بما يصيبنا بأيدينا .

﴿ انظُرْ كَيْفَ نُصَرِّفُ الآيَاتِ لَعَلَّهُمْ يَفْقَهُونَ ﴾ أى : فكر بعقلك ، وتأمل ببصيرتك كيف نعيد الآيات ونكررها فى كل زمان ومكان بين جميع الأجيال المتعاقبة ، لعل الناس يفقهون صروف الدهور ، ويفهمون مضمون حوادث العصور ، ويدركون حقائق الأمور ، فينتفعوا بالصالح منها ، ويتجنبوا مضارها بالتوبة إلى الله والرجوع إليه ، ومسارعين إلى طاعته ، وعازمين على ترك معصيته .

روى ابن حاتم عن زيد بن أسلم قول رسول الله﴿ ﷺ وآله﴾ بعد نزول هذه الآية : ﴿ لاَ تَرجِعُوا بَعدِى كُفَّاراً يَضرِبُ بَضُكُم رِقَابَ بَعضٍ بِالسُّيُوفِ ﴾[1]

١- رواه مسلم فى كتاب الإيمان فى الحديث ١١٨ ــ ١٢٠ وفى كتاب القسامة الحديث ٢٩ ، والبخارى فى كتاب العلم الباب ٤٣ وكتاب الأضاحى الباب ٥ ، وأبو داود فى كتاب السنة الباب ١٥ ، والترمذى فى كتاب الفتن الباب ٢٨ ، والدارمى فى كتاب المناسك الباب ٧٦ ، وأحمد الجزء الثانى ص ٨٥ ، ٨٧ ، ١٠٤ والجزء الخامس صفحة ٣٧ ، ٣٩ ، ٤٤ ، ٤٥ ، ٤٩ ، ٦٨ .

فتساءل بعض الناس مستنكرين : أيحدث هذا ونحن نشهد أن لا إله إلا الله وأنـــك رسول الله ﴿ ﷺ وآله﴾ ؟ وقال آخرون : لا يكون هذا ونحن مسلمون ، فـــترل قول الله تعالى : ﴿ وَكَذَّبَ بِهِ قَومُكَ ﴾ إلى قوله سبحانه : ﴿ وَسَوفَ تَعلَمُونَ ﴾ .

قوله تعالى : وَكَذَّبَ بِهِ قَوْمُكَ وَهُوَ الْحَقُّ قُل لَّسْـــتُ عَلَــيْكُم بِوَكِيـــلٍ (66)لِّكُلِّ نَبَإٍ مُّسْتَقَرٌّ وَسَوْفَ تَعْلَمُونَ(٦٧)

﴿ وَكَذَّبَ بِهِ قَوْمُكَ وَهُوَ الْحَقُّ ﴾ ويمكن أن يكون المقصود به أهل مكة وغيرهم من المكذبين الذين أنكروا على النبى محمد ﴿ ﷺ وآله﴾ رسالته ، وكذبوا نبوته وقرآنه ، مع أنه هو الحق والصدق ، كما يمكن أن ينطبق أيضا علـــى مـــن استبعدوا وقوع القتال بين المسلمين وهم يشهدون أن لا إلـــه إلا الله وأن محمـــد رسول الله ﴿ ﷺ وآله﴾ وبينهم كتاب الله يستشهد كل فريق بآياته ، ويدعى أنه يقاتل أخاه بأمر القرآن وبيناته ، ولا حول ولا قوة إلا بالله العلى العظيم .

﴿ قُل لَّسْتُ عَلَيْكُم بِوَكِيلٍ ﴾ إن كان المقصود بالآية الكافرين المكـــذبين فيكون معناها : قل لهم : ما أنا إلا عبد مثلكم ولست أملك قوة الوكالة عليكم ، ولا حول ولا سلطان لى على قهركم على الإيمان بى ــــ وإن كانت هـــذه الآيـــة وأمثالها قد نسخت بآيات القتال ــــ أما إذا كان المقصود ها المســـلمين الـــذين لم يتصوروا وقوع الحرب والقتال بين من يشهدون أن لا إله إلا الله وأن محمد رسول الله ﴿ ﷺ وآله﴾ فيكون المعنى : قل لهم عندما يحدث ذلك الأمر الخطير : لن أكون بينكم ، ولا وكالة لى عليكم إلا بمدى قوة الإيمان فى قلوبكم ، لأن قـــوة الإيمـــان وحدها ، وشهادة أن لا إله إلا الله وأن محمد رسول الله بحقها ، يمنعان المؤمن من رفع سيفه وجه أخيه المؤمن .

﴿ لِّكُلِّ نَبَإٍ مُّسْتَقَرٌّ ﴾ أى : لكل خبر وقت يتحقق فيه صدقه ، ولكل نبوءة من أنباء القرآن زمن تستقر فيه ظاهرة جلية ، لأنها خبر من صادق أمين عن رب عالم بالغيب والشهادة ، وقد أمر رسول الله ﴿ ﷺ وآله﴾ بتبليغه للمؤمنين فى زمنه وكل زمان ومكان بعده ، ولما كان الرسول لا ينطق عن الهوى وإن هو إلا وحى يوحى إليه ، فقد وقع القتتال بين المؤمنين الصادقين وأهل الردة الذين منعوا الزكاة ، كما وقع القتال بين أهل الإيمان والمسلمين الذين خلت قلوبهم من نوره فى زمن معاوية وأنصاره الذين غرهم الحياة الدنيا ، وما هى الأنباء تستقر ظاهرة فى أيامنا حيث نرى بعض المسلمين يقاتلون فى جانب بنى الأصغر إخوانهم المسلمين الأتراك [1] ، وقد تحققت النبوءة ورأينا بأسنا بيننا أشد من بأس أعدائنا وأعداء ديننا [2] .

﴿ وَسَوْفَ تَعْلَمُونَ ﴾ أى : وسوف تأتى أزمان تعلمون فيها صدق هذا النبأ وصحة هذه الآيات ، وترونها تتحقق عيانا بيانا ، وها نحن قد علمناه بأسماعنا ، ورأيناه بعيون رؤوسنا ، وفقهناه بقلوبنا بعد أربعة عشر قرنا من الزمان ، وسيحدث فى الأزمنة القادمة ما هو أشد هولا مما نراه اليوم ، لأن كلمة : سَوفَ ، تفيد التسويف لأزمنة بعيدة أخرى ، نسأل الله تعالى أن يتدارك أمة الإسلام بلطفه ورحمته ، وأن يظهر أهل الإيمان فوق جميع خلقه ، حتى تتوحد قلوبهم ، ويجتمع شملهم فيعود لهم مجد أسلافهم ، إنه سبحانه نعم الموفق لأقوم طريق .

١- يشير رضى الله عنه إلى غدر (الحسين) أمير الحجاز بإخوانه الأتراك المسلمين وتعاملة مع الإنجليز .

٢- كما شاهدنا فى أيامنا هذه فى حرب الخليج حيث كان القاتل والمقتول مسلمين ممثلا فى غزوة العراق للكويت ، ومن قبل فى حرب العراق لإيران .

قوله تعالى : وَإِذَا رَأَيْتَ الَّذِينَ يَخُوضُونَ فِي آيَاتِنَا فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ حَتَّى يَخُوضُواْ فِي حَدِيثٍ غَيْرِهِ وَإِمَّا يُنسِيَنَّكَ الشَّيْطَانُ فَلاَ تَقْعُدْ بَعْدَ الذِّكْرَى مَعَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ(68)

بعد أن بين الله لنا أسرار قدره وصدق أياته ، وحدوث ما أنبأنا به سبحانه على لسان رسوله ﴿ ﷺ وآله﴾ ، ناسب أن يبين لنا أيضا كيف نخرج من هذا البلاء ، ونرفع عنا ما وقعنا فيه بجهلنا من بؤس وعناد ، وكيف نصلح ما فسد من أمورنا ونعود إلى مجد أسلافنا ، فقال تعالى : ﴿ وَإِذَا رَأَيْتَ الَّذِينَ يَخُوضُونَ فِي آيَاتِنَا ﴾ وإن كان الحديث فى ظاهرة موجها إلى رسول الله ﴿ ﷺ وآله﴾ إلا أن المقصود به أمته فى كل زمان ومكان ، وتأويله : أن على المؤمن إذا صادف مجلسا لقوم من الجهلاء يستهزئون بالدين وأهله ، ولا تخرج أحاديثهم فى مجالسهم عن ذمهم والحط من شأهم ، فعليه أن ينجنبهم ولا يقعد معهم إذا لم يأنس فى نفسه القدرة على تغيير أحاديثهم ، وهدايتهم إلى الحق بقوة بيانه لآيات الله وبيناته التى يجهلوها .

﴿ فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ حَتَّى يَخُوضُواْ فِي حَدِيثٍ غَيْرِهِ ﴾ أى : أعرض عن مجلسهم حتى يعودوا إلى حديث يفيد ويصلح ، ويبعد عما يضر ويفسد ، وقوله تعالى : ﴿ وَإِمَّا يُنسِيَنَّكَ الشَّيْطَانُ ﴾ فيه إثبات لحقيقة أن الحديث الموجه إلى الرسول ﴿ ﷺ وآله﴾ مقصود به القوم المرسل إليهم هذا الرسول ﴿ ﷺ وآله﴾ وبهذا يكون تأويل هذه الآية أن على المؤمن الذى ينسيه الشيطان فيقعد مع أهل الجهالة الظالمين لأنفسهم وللمؤمنين الذين يخوضون فى حقهم ﴿ فَلاَ تَقْعُدْ بَعْدَ الذِّكْرَى مَعَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ﴾ فى طى هذه الآية معنيان :

١ ــ المعنى الأول يقول : إذا وقع منك أيها المؤمن نسيان بسبب الشيطان فجالستهم فاترك مجلسهم بمجرد تذكرك أن هذا ليس مجلسك ولا مكانك .

٢ ــ والمعنى الثانى يقول : إذا وقع منك أيها العالم العامل الوارث لعلــوم سيد المرسلين وخاتم النبيين﴿ ﷺ وآله﴾ نسيان فجالســتهم بغــرض وعظهــم وإرشادهم وتذكيرهم بآيات الله ، فلا تجالسهم ولا تقعد معهم بعد القيام بواجب الذكرى ، خصوصا إذا لم تجد منهم قبولا لكلامك ، وظلوا على عنادهم وظلمهم ، فالإنذار لا يفيد أهل العناد ن والذكرى لا تنفع الظالمين .

قوله تعالى : وَمَا عَلَى الَّذِينَ يَتَّقُونَ مِنْ حِسَابِهِم مِّن شَيْءٍ وَلَكِن ذِكْــرَى لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ (69)

فى هذه الآية ترجيح للمعنى الثانى الذى أوردناه سابقا ، فقد روى أن بعض المسلمين قالوا للنبى ﴿ ﷺ وآله﴾ : ليس لنا من مجالسهم مفر ، لأننا إذا قمنا مــن كل مجلس لهم لا نستطيع أن نجلس فى مكان وحدنا ، لأنهم فى المسجد وفى البيت الحرام ، وكثيرا ما يقتحمون علينا مجالسنا عامدين متعمدين ، فأنزل الله قوله تعالى : ﴿ وَمَا عَلَى الَّذِينَ يَتَّقُونَ مِنْ حِسَابِهِم مِّن شَيْءٍ ﴾ أى : ليس على المسلمين ــ فى حالة الضرورة ــ من وزر ولا ذنب إذا جالسوهم ، ولكن بشــرط أن يتقــوا الانسياق معهم فى أحاديثهم الضارة ، ويحذروا مجاراتهم فى الخوض فى آيــات الله والاستهزاء بعباد الله ، بحكم العادة أو المجاملة .

﴿ وَلَكِن ذِكْرَى لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ ﴾ أى : ولا بأس على أهــل العلــم مــن المؤمنين إذا جالسوهم أن يحاولوا نهيهم عن الخوض فيما يجهلون ، بتذكيرهم بآيات الله المنبئة بقدرته عليهم ، وأنه سبحانه يمهل ولا يهمل ، لعــل هــؤلاء الجــاهلين يخشون الله تعالى ، ويرجعون عن غيهم ولغوهم فى قول المنكر والاستهزاء بعباد الله

تعالى ، ويتقون الله تقاة تهديهم سبيل الرشاد ، فينال المؤمنون ثواب هدايتـــهم إذا قدر لهم الهداية وفى هذه الآية والآيتين السابقتين بعض الحقائق والمعانى التى نذكر بعضها فيما يأتى :

١ ــ الحقيقة الأولى : أن النفوس البشرية جلبت بطبعتها على التأثر بمـــن يواجهها سواء كان محبوبا لديها أو مبغضا منها ، فإذا جالس المسلم مشـــركا أو كافر أو جاهلا أو نماما أو مغتابا أو هازئا بعباد الله ارتسمت صورته على جـــوهر نفسه وشغل بقوله وأنس إليه قلبه ، فغلبه على أمره ، لأن الشيطان يساعد أهـــل الشر ويزين لهم أعمالهم ، ولهذا حذر الله المسلمين من مجالسة المفسدين بقوله تعالى : ﴿ وَلاَ تَرْكَنُواْ إِلَى الَّذِينَ ظَلَمُواْ فَتَمَسَّكُمُ النَّارُ ﴾[1] .

٢ ــ والحقيقة الثانية : أن الشيطان ليس له على النبى﴿ ﷺ وآله﴾ أقـــل سلطان ، وبالتالى لا يؤثر فيه أى تأثير ، ولا حتى يستطيع أن ينسيه شئيا من الخير ، ولكن لما كان صلوات الله عليه حريصا على هداية الناس جميعا ، لذلك جعل مـــن سنته مجالسه المشركين والكافرين والمنافقين وأهل الشر أجمعين ، فى محاولة هدايتهم إلى صراط الله المستقيم ، وحتى لا يقتدى به ضعاف الإيمان من المسلمين فيـــوقعهم الشيطان فى حبائل أنصاره من أهل الغواية الظالمين ، لذلك وجه الله تعالى الكـــلام إليهم فى صورة خطاب إلى رسول الله ﴿ ﷺ وآله﴾ بقوله سبحانه : ﴿ فَلاَ تَقْعُـــدْ بَعْدَ الذِّكْرَى مَعَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ ﴾ أسأل الله تعالى أن يجعلنى وإخوانى مـــن أهـــل التقوى الوارثين ، وأن يتولانا بولايته ويجعلنا من أهل عنايته .

١- سورة هود آية ١١٣ .

قوله تعالى : ﴿ وَذَرِ الَّذِينَ اتَّخَذُواْ دِينَهُمْ لَعِبًا وَلَهْوًا وَغَرَّتْهُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا وَذَكِّرْ بِهِ أَن تُبْسَلَ نَفْسٌ بِمَا كَسَبَتْ لَيْسَ لَهَا مِن دُونِ اللّهِ وَلِيٌّ وَلاَ شَفِيعٌ وَإِن تَعْدِلْ كُلَّ عَدْلٍ لاَّ يُؤْخَذْ مِنْهَا أُوْلَئِكَ الَّذِينَ أُبْسِلُواْ بِمَا كَسَبُواْ لَهُمْ شَرَابٌ مِّنْ حَمِيمٍ وَعَذَابٌ أَلِيمٌ بِمَا كَانُواْ يَكْفُرُونَ(٧٠)﴾

بعد أن نهى الله أهل الإيمان به عن مجالسه الظالمين ، الذين يخوضون فى أغراض المؤمنين ، وكان نهيه لهم فى صورة نهى لرسوله الأمين ﴿ ﷺ وآله﴾ حتى يكون له فى نفوسهم وقع أقوى وأوجب ، ناسب أن يأمرهم أيضا وبنفس الصيغة المثلى السابقة بترك أهل اللعب واللهو ، الذين غرهم الحياة الدنيا فسخروا بدينهم .

﴿ وَذَرِ الَّذِينَ اتَّخَذُواْ دِينَهُمْ لَعِبًا وَلَهْوًا ﴾ أى : واترك مجالس القوم الذين جعلوا دينهم سخرية لهم ، يلعبون بأوامره ، ويلهون بشعائره ، ويستهزئون بالقائمين به ﴿ وَغَرَّتْهُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا ﴾ أى : وخدعتهم حياهم الفانية عن الحياة الباقية ، لأن معنى : غر ، أى خدع ، يقال : اغتر بالشىء أى : خدع به ،ورجل غر ، أى : مجرب ، الغرة أيضا هى الغفلة ، والمعنى أن الدنيا خدعتهم بزخرفها الفانى ومتاعها الزائل فأضاعوا حياهم سدى ، و لم يعملوا لآخرهم شيئا ، مما سيجعلهم يندمون حين لا ينفع الندم .

﴿ وَذَكِّرْ بِهِ أَن تُبْسَلَ نَفْسٌ بِمَا كَسَبَتْ ﴾أى : ونبَّه العقول وأيقظ القلوب ، وذكر الأرواح ، حتى لا تهلك النفوس بما ارتكب من سيئات فى الحياة الدنيا ، لأن بسل أى : هلك ، و (تُبسَلَ) أى : تلقى فى الهلاك الأبدى .

﴿ لَيْسَ لَهَا مِن دُونِ اللّهِ وَلِى وَلاَ شَفِيعٌ ﴾ فى هذه الآية إثبات لحقيقة قائمة لا يجادل فيها إلا جاهل مكابر ، وهى أن النفوس مخلوقة ، وبالتالى ليس لها

من دون خالقها ولى يتولاها فى جميع مراحل أطوار حياتها ، كما ليس لها من دونه شفيع يقبل الشفاعة فيها يوم القيامة ، وينقذها من العذاب والهلاك الذى يحل بها .

﴿ وَإِن تَعْدِلْ كُلَّ عَدْلٍ لاَّ يُؤْخَذْ مِنْهَا ﴾ أى : من دون الله لا نجاة لها ولو قدمت ما فى الأرض جميعا فداء لها من العذاب لما تُقبّل منها ﴿ أُوْلَئِكَ الَّذِينَ أُبْسِلُواْ بِمَا كَسَبُواْ ﴾ أى : أهلكوا بما اقترفوا من أعمال سيئة فى دنياهم الزائلة ، وفى هذا وعيد وتهديد من الله القادر الفعال لما يريد ، لو فقه حقيقته أهل الغفلة الذين غرتهم الحياة الدنيا لسارعوا إلى العدول عن لعبهم ولهوهم بدينهم ، وتابوا وأنابوا إلى ربهم من قبل أن تزهق نفوسهم ، ويأتى يوم لا تقبل فيه توبة ولا فدية ، وإنما يجازى كل امرىء بما كسبت يداه .

﴿ لَهُمْ شَرَابٌ مِّنْ حَمِيمٍ وَعَذَابٌ أَلِيمٌ بِمَا كَانُواْ يَكْفُرُونَ ﴾ أى : أعد لهم فى ألاخرة ـــ يوم لا ينفع مال ولا بنون ـــ شراب من حميم يغلى فى البطون ، ولهم فوق ذلك عذاب أليم وعقاب عظيم جزاء استهزائهم بالدين ، وما ظلمهم الله ولكن كانوا أنفسهم يظلمون ، ونعوذ بالله تعالى من أن نظلم أنفسنا أو أن نركن إلى الظالمين ، ونسأله سبحانه التوفيق إلى ما فيه رضاه فى الدنيا ، والنجاة من عقابه يوم الدين ، إنه قريب مجيب .

وفى هذه الآية بعض الإشارات نذكر منها : أن الرسالة المحمدية فيها عمومية تشير إلى الناس كافة ، وكذلك فيها خصوصية تشير إلى الذين آمنوا من أولى الألباب خاصة ، فهى فى ظاهرها تقيم الحجة على المنكرين اللاعبين اللاهين ، وفى باطنها هداية تنفع أهل الذكر من المؤمنين الذين يذكرون الله قياما وقعودا وعلى جنوبهم .

وإشارة أخرى تبين أن الله تعالى خلق الناس جميعا فى أطوار واحدة ومن نفس واحدة ، وأشهدهم جميعا يوم أن واثق الرسل على نصرة خاتم النبيين﴿ ﷺ وآله﴾ ، وخاطبهم جميعا يوم ﴿ أَلَستُ بِرَبِّكُم ﴾[1] وعاهدهم على الإيمان وحذرهم من النسيان ، ثم أرسل إليهم الرسل ليذكروهم بما واثقهم به الله وبما عاهدهم عليه ، فمن كانت نفسه سليمة فى جوهوها تذكر وآمن واستجاب طائعا فنجا وأفلح ، ومن كانت نفسه خبيثة غير سليمة نسى وأبى وأنكر وظل عاصيا حتى خسر الدنيا والآخرة ، أعاذنا الله بوجهه الجميل من شرور أنفسنا وسيئات أعمالنا ، ونسأله تعالى أن يثبتنا بالقول الثابت والإيمان الكامل ، إنه مجيب الدعاء .

قوله تعالى : قُلْ أَنَدْعُو مِن دُونِ اللّهِ مَا لاَ يَنفَعُنَا وَلاَ يَضُرُّنَا وَنُرَدُّ عَلَى أَعْقَابِنَا بَعْدَ إِذْ هَدَانَا اللّهُ كَالَّذِى اسْتَهْوَتْهُ الشَّيَاطِينُ فِى الأَرْضِ حَيْرَانَ لَهُ أَصْحَابٌ يَدْعُونَهُ إِلَى الْهُدَى ائْتِنَا قُلْ إِنَّ هُدَى اللّهِ هُوَ الْهُدَىَ وَأُمِرْنَا لِنُسْلِمَ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ (71

بعد أن أمر الله نبيه والذين معه وكل المؤمنين بالله ورسوله ﴿ ﷺ وآله﴾ فى أى زمان وأى مكان بأن يتركوا الذين اتخذوا دينهم لعبا ولهوا غرورا بالحياة الدنيا وزينتها ، وكفروا بالدار الآخرة ونعيمها ، ناسب أن يذكر فى هذه الآية أسباب ذلك فقال تعالى : ﴿ قُلْ أَنَدْعُو مِن دُونِ اللّهِ مَا لاَ يَنفَعُنَا وَلاَ يَضُرُّنَا ﴾ أى : قل يا محمد لهؤلاء الجاهلين الذين كفروا برب العالمين : أندعو من دون الله أصناما من صنع الأولين ، مع وضوح عجزها عن نفعنا إذا عبدناها ، أو ضرنا إن تركناها ، لأنها حجارة لا حول لها ولا قوة ﴿ وَنُرَدُّ عَلَى أَعْقَابِنَا بَعْدَ إِذْ هَدَانَا اللّهُ ﴾ أى : ونعود إلى الكفر بالله خالقنا وخالق أعمالنا بعد أن تفضل سبحانه وهدانا إلى

١- سورة الأعراف آية ١٧٢ .

صراطه المستقيم ، فكيف نرجع إلى طريق تحققنا من ضرره وبطلانه ، وتأكدنا من هلاك كل من يسير فيه فنكون ﴿ كَالَّذِى اسْتَهْوَتْهُ الشَّيَاطِينُ فِى الأَرْضِ حَيْرَانَ ﴾ أى : فيكون مثلنا كالذى حصل له خبال ومس ، أفقده ميزان العقل الذى يميز به النافع من الضار ، ولا يستطيع أن يفرق بين طريق الحق والهداية من طريق الضلال والغواية ، ونعوذ بالله تعالى من الميل إلى الحظ والهوى .

﴿ لَهُ أَصْحَابٌ يَدْعُونَهُ إِلَى الْهُدَى ائْتِنَا ﴾ يجوز أن يكون معناه أن هذا التائه الحيران ــ لفقده العقل والتمييز بين النافع والضار ــ له أصحاب عقلاء صالحون ينادونه قائلين : هلم إلينا وتعال معنا لندلك على الطريق الصحيح الذى يوصلك إلى بيتك وأهلك وينجيك من الهلاك أو الضياع فى متاهة خبالك ، ولكنه لا يسمع لهم ولا يعى حقيقة قولهم فينفر منهم . وجائز أن يكون أصحابه من رفقاء السوء الذين يدعونه إلى طريق الشر والفساد قائلين له : هلم إلينا لندلك على طريق حظك وهواك وكل ما تميل إليه نفسك من شهوات ، وفيه الهدى والنجاة من الهلاك ، فيوقعونه فى الضلال معهم إذا استجاب إليهم وصدّق كذبهم ، ولهذا أمر الله حبيبه ومصطفاه ﴿ ﷺ وآله﴾ بقوله جل علاه : ﴿ قُلْ إِنَّ هُدَى اللّهِ هُوَ الْهُدَىَ ﴾ والهدى أنواع سبق لنا بيانها وشرح أنواعها ، ولكن لا نخلى هذا المقام من المزيد فنقول : إن الله تعالى أمر رسوله﴿ ﷺ وآله﴾ أن يخبر العقلاء الطائعين ، والعصاة الجاهلين : إن الهدى الحقيقى هو هدى الله تعالى ، لأنه وحده يملك هداية الإحسان ، وكل من سواه لا يملكون إلا هداية البيان ، وشتان بين الهدايتين ، فالأولى هداية أكيدة ، والثانية هداية محتملة .

﴿ وَأُمِرْنَا لِنُسْلِمَ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ ﴾ أى : وقد أمرنا أمرا مقدسا وجب علينا طاعته والتسليم له ، لأنه أمر من رب العالمين : عالم الأرواح وما بطن ، ورب عالم

الأشباح وما ظهر ، ولتحققنا من أن طاعتنا له فيها الأمن والسلامة فى الدنيا ، والنجاة والفلاح فى الآخرة ، وذلك هو الفوز العظيم .

ولا نخلى هذا المقام من الإشارة إلى أن أسلوب الاستفهام المنطوى على استنكار الباطل وضرب الأمثال لبيان الحق واضحا جليا هو من أكبر أساليب البلاغة فى الوصول إلى إقناع ذوى العقول الراجحة والألباب المفكرة ، ويا حبذا لو اتبعه أهل العلم والمعرفة الذين يتعرضون لدعوة الخلق إلى الله الحق ، أسأل الله أن يجعلنى وإخوانى أبدالا للمرسلين ، وورثة لرسالة خاتم النبيين ﴿ ﷺ وآله﴾ .

قوله تعالى : وَأَنْ أَقِيمُواْ الصَّلاَةَ وَاتَّقُوهُ وَهُوَ الَّذِى إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ (٧٣)

بعد أن ضرب الله لنا الأمثال المقربة لإظهار الحق ، والهادمة لأسس الشرك والضلال والكفر ، وأمرنا بالتسليم لربوبيته ، والقيام بطاعته ، ناسب أن يذكر فى هذه الآية أهم ركن من أركان الإسلام وهى شريعة الصلاة لأنها صلة بين العبد وربه إذا أقيمت بشروطها الظاهرة وحقيقتها الباطنة لقوله تعالى : ﴿ وَأَنْ أَقِيمُواْ الصَّلاَةَ ﴾ أى : وأن تطيعوا الله وتقوموا بأداء فريضة الصلاة كما سنها رسول الله﴿ ﷺ وآله﴾ من أقوال وأعمال بدنية ، وخشوع ومراقبة فى آداب قلبية ، لأن كل صلاة نقص شىء من أعمالها أو غاب العبد عن مراقبة الله فيها لا تعد إقامة عند العارفين ، وإنما تسمى صلاة عادة تقليدية وليست صلاة عبادة حقيقية ، وهذا سر قوله تعالى : ﴿ وَاتَّقُوهُ ﴾ أى : وراقبوه مراقبة الخاشعين ، وخافوه خوف الأولياء الصالحين ، وتمثلوا نعمة الإيجاد ونعم الإمداد لتكونوا من عباده الشاكرين .

﴿ وَهُوَ الَّذِى إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ ﴾ أى : وهو الخلاق العليم الذى إليه تعودون ، ويوم القيامة إليه تحشرون ، فيحاسب كل عبد بقدر ما أعطاه من مواهب وما منحه من علوم ، سواء كانت علوم شئون معنوية يمنحها الله لعبده فى خصوصية ،

أو علوم الأشياء المادية التى يكشفها رب البرية لعبد من عباده لينتفع بها الجميع فى عمومية ، ولا يظلم ربك أحدا ، فيثيب الطائع بقدر خشوعه وتقواه ، ومدى مراقبته لربه فى الصلاة ، ومن كان حاضرا مع الله فى صلاته ، كان الله معه فى حياته وبعد وفاته ، أسأل الله تعالى أن يرزقنى وإخواتى أعلى مقامات مراقبته ، وإنه مجيب الدعاء .

قوله تعالى : وَهُوَ الَّذِى خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ بِالْحَقِّ وَيَوْمَ يَقُولُ كُن فَيَكُونُ قَوْلُهُ الْحَقُّ وَلَهُ الْمُلْكُ يَوْمَ يُنفَخُ فِى الصُّوَرِ عَالِمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ وَهُوَ الْحَكِيمُ الْخَبِيرُ(73)

﴿ وَهُوَ الَّذِى خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ بِالْحَقِّ ﴾ أى : هو الله الخالق البارىء المصور الذى أوجد ــ من العدم وعلى غير مثال سبق ــ تلك السموات العالية المرفوعة بغير عمد ، وتلك الأرض بسهولها ووديانها المنبسطة المعدة بمناخها لحياة النبات والطير والدواب ، كما خلق وصور وأوجد جميع ما فيهن وما بينهن على اختلاف أشكالها وأحجامها وأنواعها ، أليس كل هذا دليلا لا يدحض على أنه الإله الحق وكل ما سواه باطل ؟ .

﴿ وَيَوْمَ يَقُولُ كُن فَيَكُونُ ﴾ أى : ويوم القيامة يقول الله تعالى للأرواح والأشباح : اجتمعوا واخرجوا من قبوركم وقوموا إلى بعثكم ، فيتم المراد من أمره سبحانه فى الحال وبمجرد قوله : (كن) أى : كما خلق الخلق بامره : (كن) يعيده يوم القيامة بقوله : (كن) ، سر قوله تعالى : ﴿ كَمَا بَدَأْنَا أَوَّلَ خَلْقٍ نُّعِيدُهُ وَعْدًا عَلَيْنَا إِنَّا كُنَّا فَاعِلِينَ ﴾(1) لأن ﴿ قَوْلُهُ الْحَقُّ ﴾ أى : لا ريب فى وقوعه

١- سورة الأنبياء آية ١٠٤ .

وقوع حق وصدق ﴿ وَلَهُ الْمُلْكُ ﴾ يوم القيامة وحده لا شريك له فى ملكه حيث تنعدم الملكية الموجودة للإنسان فى الدنيا .

﴿ يَوْمَ يُنفَخُ فِى الصُّوَرِ ﴾ أى : ابتداء من وقت نفخ إسرافيل فى صدور الموجودات بأمر الله الملك الجليل ، وتقوم كل الحقائق تنادى بلسان الحال والمقال ﴿ لِمَنِ ٱلْمُلْكُ ٱلْيَوْمَ ﴾ فيرد كل موجود فى هذا اليوم المشهود : ﴿ لِلَّهِ ٱلْوَاحِدِ ٱلْقَهَّارِ ﴾[1] .

﴿ عَالِمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ ﴾ أى أن هذه الأخبار عن المستقبل البعيد والتى تغيب عن إدراك الأكثرية الكبرى من الناس ، هى عين الحق والصدق ، لأنها بوحى من الله تعالى الذى يعلم ما غاب عن إمكانيات الإبصار بالعيون والإدراك بالعقول ، كما يعلم حقائق كل ما هو مشهود فى هذا الوجود ، لأنه سبحانه عالم الغيب والشهادة ، وكل علم ومعلوم فهو من وحيه جل شأنه .

﴿ وَهُوَ الْحَكِيمُ الْخَبِيرُ ﴾ أى أنه سبحانه هو الحكيم الذى أوجد كل الشئون المعنوية واللطائف الروحية الباطنة ، بل وكافة الأشياء المادية والجوارح البدنية الظاهرة ، أوجدها جميعا بحكمة علية لا مثيل لها ، ومن ثم فهو الخبير بما كان من حقائق الموجودات ، وبما هو كائن من أنواع المخلوقات ، وبما سيكون من مصير الخلائق فى الآخرة بعد البعث والنشور ، وسبحان من جعل فضله بين الكاف والنون ، فأوجد كل مشهود فى هذا الكون ، بل وكل غائب فى عالم البطون بكلمة ﴿ كُن فَيَكُونُ ﴾[2] التى بها قامت الأرض وما فيها وما عليها من

١- سورة غافر آية ١٦ .

٢- سورة يس آية ٨٢ .

غرائب ، واستوت السموات بشموسها وأقمارها ونجومها وكل ما نراه من عجائب الكواكب .

قوله تعالى : وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ لأَبِيهِ آزَرَ أَتَتَّخِذُ أَصْنَامًا آلِهَةً إِنِّى أَرَاكَ وَقَوْمَكَ فِى ضَلاَلٍ مُّبِينٍ(74)

بعد أن أقام الله الحجج الساطعة والبينات الواضحة ، وضرب الأمثال المقربة ، وذكر الدلائل والبراهين المبينة لحق وحدانيته وعلو قدرته ، وناسب أن يأتى فى هذه الآية بأسلوب الدعوة إلى الحق ، فذكر سبحانه الحجج التى أجراها على لسان الخليل إبراهيم ، فكانت أكبر حجة وأقوى بيان وأنصع دليل على صدق دعوة رسول الله وخاتم النبيين سيدنا محمد الأمين ﴿ ﷺ وآله﴾.

﴿ وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ ﴾ أى : واذكر لقومك قول أبيك إبراهيم الخليل ﴿ لأَبِيهِ آزَرَ ﴾ وهناك اختلاف بين أهل التأويل وعلماء التاريخ فى مسألة أبوة آزر ، فمنهم من قال : إنه حقا ، ومنهم من قال : إنه عمه ، وأنا أميل إلى القول الأخير اعتمادا على إشارة الله فى قوله تعالى : ﴿ لأَبِيهِ آزَرَ ﴾ بإضافة الإسم إلى الأبوة ، وقد جرت عادة العرب أن ينسبوا الولد إلى نبوة أعمامه ويقيدوها بذكر الأسماء فيقول الولد : أبى محمد ، وأبى إسماعيل ، وأبى صالح ، وأما إذا كان الأب الحقيقى فيقول : هذا أبى ، ولا يذكر اسمه ، ومثال ذلك فى سورة يوسف : ﴿ إِذْ قَالَ يُوسُفُ لِأَبِيهِ يَا أَبتِ إِنِّى رَأَيْتُ ﴾[1] وفى آية أخرى : ﴿ اذْهَبُواْ بِقَمِيصِى هَذَا فَأَلْقُوهُ عَلَى وَجْهِ أَبِى﴾ [2] دون ذكر الإسم لأنه أبوه الحقيقى ، حتى فى مسألة

١- سورة يوسف آية ٤ .

٢- سورة يوسف آية ٩٣ .

الأخوة يفرق بين الأخ الشقيق وغير الشقيق كما قال تعالى فى قصة يوسـف : ﴿ قَالَ أَنَاْ يُوسُفُ وَهَذَا أَخِي ﴾[1] وسكت و لم يسمه لأنه أخوه الحقيقى الوحيـد ، ولو كان أخا غير شقيق أو له أخوة غيره ، لقال هذا أخى فلان ـــ تمييـزا لـه ـــ حيث أن الله ميز أبا إبراهيم بآزر فهذا دليل على أنه ليس أباه الحقيقى ، وهذا يتفق مع ما ورد عن الصادق الأمين ﴿ ﷺ وآله﴾ من أن الله تعالى حفظ نبيه محمد﴿ ﷺ وآله﴾ فى الأصلاب الطاهرة والأرحام الطيبة التى لا تشوبها شـائبة ، وآزر هـذا كان صنميا متعنتا بل وكان عدوا لله .

﴿ أَتَتَّخِذُ أَصْنَامًا آلِهَةً ﴾ أى : كيف يطاوعك عقلـك علـى أن تجعـل الأصنام المصنوعة بيد البشر آلهة تعبد وهى لا تضر ولا تنفع ﴿ إِنِّي أَرَاكَ وَقَوْمَكَ فِي ضَلاَلٍ مُّبِينٍ ﴾ أى : إنى أرى بعد تمحيص وتفكير سليم أنك وقومك ـــ بـل وكل من يعبد الأصنام ـــ فى ضلال بين ظاهر ، والضال هو التائه الحيران الذى لم يهتد إلى الحق والصواب مع شدة وضوحه وظهوره لكل ذى عين يبصر بها ، وأذن يسمع بها ، وفؤاد يمحص به مدلول ما يرى وما يسمع ، أعاذنا الله تعالى من سابقة السوء .

ولا تخلى هذه الآية من ذكر إشارتها التى تحث الإنسان على استعمال عقله فى تمحيص ما تسمع آذنه ، وما ترى عينه ، وما تلمس يده ، ثم يقوم بعرض النتائج على قلبه ويستفتيه فى التفريق بين الحق والباطل ، وبيان الصواب من الخطأ ، وهذا ر يمنع من سؤال أهل الذكر فيما لا يعلم .

١- سورة يوسف آية ٩٠ .

قوله تعالى : وَكَذَلِكَ نُرِى إِبْرَاهِيمَ مَلَكُوتَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَلِيَكُــونَ مِنَ الْمُوقِنِينَ (75)

إن كلمة : ﴿ وَكَذَلِكَ ﴾ فى بداية الآية بشير إلى ارتباطها بالآية السابقة ، بمعنى أنه : كما وقفنا إبراهيم إلى رؤية ضلال أبيه آزر وقومه الذين اتخذوا الأصنام آلهة بمجرد نظره إلى ظاهر الملك ، وكذلك ﴿ نُرِى إِبْرَاهِيمَ مَلَكُوتَ السَّــمَاوَاتِ وَالأَرْضِ ﴾ نريه أسرار الملكوت المنطوية طى ظاهرة مـــن سمـــوات موفوعـــة ، وكواكب سيارة ، وأرض مبسوطة فيها من عجائب المخلوقات مـــا لا يعـــد ولا يحصى .

﴿ وَلِيَكُونَ مِنَ الْمُوقِنِينَ ﴾ ولكى يصل إبراهيم إلى اليقين الحـــق يلزمـــه المعانى المنطوية طى آيات السموات والأرض وما فيهن وما بينهن ، أى : شـــهود الملكوت بعد شهود الملك .

قوله تعالى : فَلَمَّا جَنَّ عَلَيْهِ اللَّيْلُ رَأَى كَوْكَبًا قَالَ هَذَا رَبِّى فَلَمَّا أَفَلَ قَالَ لا أُحِبُّ الآفِلِينَ(76)

﴿ فَلَمَّا جَنَّ عَلَيْهِ اللَّيْلُ رَأَى كَوْكَبًا ﴾ أى : فلما دخل عليه الليل أثنـــاء دعوته لقومه بتوحيد الله : وهم يجادلونه ويزعمون أن آلتهم التى يعبـــدونها حـــق وصدق ، وكانت الكواكب السماوية من ضمن الآلهة التى تعبـــد ، فعنـــدما رأى كوكب الزهرة الذى يظهر أحيانا فى أول الليل ويغيب فى الحال وبسرعة ، أشـــار إليه و ﴿ قَالَ هَذَا رَبِّى ﴾ وكان فى قوله هذا تهكم صريح واستهزاء وسخرية بقومه ، وذلك لساطع البرهان وقوة الحجة ﴿ فَلَمَّا أَفَلَ قَالَ لا أُحِبُّ الآفِلِينَ ﴾ أى : لمـــا

غاب كوكب الزهرة بتلك السرعة لفت أنظارهم إلى أن الإله الذى يغيب ويأفل وينتقل من حال إلى حال يثبت أنه مخلوق ، لأن التغير والتحول من صفات المخلوقات .

قوله تعالى : فَلَمَّا رَأَى الْقَمَرَ بَازِغًا قَالَ هَذَا رَبِّى فَلَمَّا أَفَلَ قَالَ لَئِن لَّمْ يَهْدِنِى رَبِّى لأَكُونَنَّ مِنَ الْقَوْمِ الضَّالِّين(٧٧)

﴿ فَلَمَّا رَأَى الْقَمَرَ بَازِغًا ﴾ أى : فلما غاب كوكب الزهرة وظهر القمر بازغا أشار إليه و ﴿ قَالَ هَذَا رَبِّى ﴾ وذلك لكى تصيبهم الحيرة بسبب التنقل من عبادة كوكب إلى كوكب آخر ، وهذا أسلوب من أساليب الحكمة فى دعوة الجاهلين ذوى العقول البسيطة ، والمصابين بداء التشدد فى تمسكهم بتقاليد آبائهم .

﴿ فَلَمَّا أَفَلَ قَالَ لَئِن لَّمْ يَهْدِنِى رَبِّى لأَكُونَنَّ مِنَ الْقَوْمِ الضَّالِّينَ ﴾ فلما غاب القمر أيضا بدأ فى توجيه أفكارهم إلى أن هناك إلها خالقا لهذه الكواكب ، وأنه لم يهده خالقه الذى خلقه وخلق كل شيء فوقه وكل ما حوله فلا هداية له ، وسيكون مثلهم مع القوم الظالين ، وفى ذلك إشارة إلى أن كل من يعبد شيئا مخلوقا فهو من الضالين .

قوله تعالى : فَلَمَّا رَأَى الشَّمْسَ بَازِغَةً قَالَ هَذَا رَبِّى هَذَآ أَكْبَرُ فَلَمَّا أَفَلَتْ قَالَ يَا قَوْمِ إِنِّى بَرِيءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ(78)

﴿ فَلَمَّا رَأَى الشَّمْسَ بَازِغَةً ﴾ أى : فلما أشرقت الشمس بنورها ، وأخفت جميع الكواكب بقوة ضوئها ، لفت قومه إلى هذه الظاهرة ﴿ قَالَ هَذَا رَبِّى هَذَآ أَكْبَرُ ﴾ أى : هذا الرب أكبر من الأرباب كلها بدليل أنه أخفاها جميعا بنوره ، وأصبحت لا وجود لها فى حضوره ﴿ فَلَمَّا أَفَلَتْ ﴾ أى : غابت هى

الأخرى ، ووجد أن القوم لم يعتبروا بتلك الآيات ، و لم يقتنعوا بما ساقه لهم من حجج وبينات ، هاجمهم بصريح العبارة بعد التلميح بالإشارة ﴿ قَالَ يَا قَوْمِ إِنِّى بَرِيءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ ﴾ أى : إنى تارك ما تعبدون ، وبرىء من تلك الأوثان التى أنتم عليها عاكفون ، كما أبرأ أيضا من أجرام السموات وكواكبها التى لا ثبات لها ، وعدم ثبوتها وتغير حالها بين لحظة وأخرى دليل على أن لها ربا يسيرها وبيده مقاليدها ، وأنها جميعها لا تصلح أن تكون آلهة ، فضلا عن عدم صلاحها لربوبية غيرها .

قوله تعالى : إِنِّى وَجَّهْتُ وَجْهِى لِلَّذِى فَطَرَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ حَنِيفًا وَمَا أَنَاْ مِنَ الْمُشْرِكِينَ(79)

وعندما قال له بعض قومه : ومن هو الإله الذى تقصده وتتوجه إليه وتعبده ؟ قال هذا ما أردت أن أنبهكم إليه ، وقصدت أن أوجهكم لمعرفته وعبادته ﴿ إِنِّى وَجَّهْتُ وَجْهِى لِلَّذِى فَطَرَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ ﴾ أى : إن كل ما سقته إليكم من أدلة ، وأتيتكم من حجج ، كان تمهيدا لتعريفكم بربكم ورب آبائكم الذى خلق السموات وما أظلت والأرض وما أقلت وفطرهن بقدرته ، وسير كواكب السماء ومخلوقات الأرض بقوته ووفق حكمته .

﴿ حَنِيفًا ﴾ أى : مسلما طائعا لهذا الإله العظيم ، قاصدا عبادته ، مهتديا بهديه على صراط مستقيم ، وهذا هو الدين القويم ، الذى يوصل إلى الحق والهداية ، ويمنع المرء من الضلال والغواية ، لأنه الطريق الوحيد الموصل إلى التوحيد ﴿ وَمَا أَنَاْ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴾ الذين يشركون برب العالمين ، والذين يتخذون من دونه آلهة مخلوقة وليست خالقه .

هذه هى قصة سيدنا إبراهيم الخليل عليه السلام ، التى ذكرها الله لنـــا فى كتابه الكريم ، وليتعلم منها كل من يريد العلوم ، ويعتبر بها كل ذى قلب سليم ، ويسير على ضوء هديها كل داع إلى الحق المبين ، فيصير قوى الحجة مثــل أبيــه الخليل ، الذى أخبرنا عن قوة حجته العلى الجليل سبحانه .

قوله تعالى : وَحَآجَّهُ قَوْمُهُ قَالَ أَتُحَاجُّونِّى فِى اللّهِ وَقَدْ هَدَانِ وَلاَ أَخَافُ مَا تُشْرِكُونَ بِهِ إِلاَّ أَن يَشَاء رَبِّى شَيْئًا وَسِعَ رَبِّى كُلَّ شَيْءٍ عِلْمًـــا أَفَـــلاَ تَتَـــذَكَّرُونَ (80)وَكَيْفَ أَخَافُ مَا أَشْرَكْتُمْ وَلاَ تَخافُونَ أَنَّكُمْ أَشْرَكْتُم بِاللّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِـــهِ عَلَيْكُمْ سُلْطَانًا فَأَى الْفَرِيقَيْنِ أَحَقُّ بِالأَمْنِ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ(٨١)

بعد أن أقام الله الحجة لإبراهيم على قومه ، وقصم ظهورهم بآياته وبيناته ، وقد اتخذ بعض مظاهر كونه وسيلة لإظاهر قوة حججه ، ناسب أن يبين لنا حالة قومه بعد كل تلك المحاورات ، والاستشهاد ببعض ما فى الوجود من آيات ، فقال سبحانه وتعالى : ﴿ وَحَآجَّهُ قَوْمُهُ ﴾ أى : وبعد كل هذا جادله قومه فى الـــدين ، مجادلة أهل الجهالة الضالين ، حتى بلغ هم الضلال حد تخويفه من غضب الأصـــنام فتصيبه بسوء إن لم يتخذها آلهة ، فقال لهم الخليل إبراهيم ما أخبرنا به الله الجليـــل العليم : ﴿ قَالَ أَتُحَاجُّونِّى فِى اللّهِ وَقَدْ هَدَانِ ﴾ أى : كيف يليق بكم يا قـــوم ـــ بعد كل هذه الدلائل والبراهين ـــ أن تجادلونى فى ألوهية الله ؟ وبعد ظهور كـــل تلك الحجج القائمة على أحديته دون سواه ؟ وكيف تريدون إضـــلالى بعـــد أن هدانى الله إلى صراطه المستقيم ؟ وتخوفوننى بآلهتكم التى تعبدون ؟ وأصنامكم الـــتى تصنعون ؟ وهى حجارة لا تضر ولا تنفع إن كنتم تعقلون .

﴿ وَلاَ أَخَافُ مَا تُشْرِكُونَ بِهِ ﴾ أى : وإنى لا أخاف من أصنامكم الـــتى تصنعونها بأيديكم ثم تعبدونها من دون الله ربكم ورب آبائكم ، وقد جعلتموهـــا

شريكة له مع أنها لا تضر ولا تنفع ﴿ إِلاَّ أَن يَشَاء رَبِّى شَيْئًا ﴾ أى : إلا أن يريد الله ربى أن يصيبنى بسوء أو يضرنى بشىء قدره أزلا ، فهو الضار النافع وأصنامكم ليس لها نفع ولا ضرر ، ولا تأثير لها على أى إنسان .

﴿ وَسِعَ رَبِّى كُلَّ شَىٍ عِلْمًا ﴾ أى أن ربى واسع عليم ، وسع علمه كل الموجودات فى الأرض والسموات ، وما بينهم من كافة المخلوقات ، إلا يعلم من خلق وهو الخلاق العليم ، وقوله : ﴿ أَفَلاَ تَتَذَكَّرُونَ ﴾ أى : أفلا تعتبرون بكل ما تسمعون وتبصرون وتعايشون ؟ أفلا يذكركم هذا بأيام الله ، يوم أن واثق الله النبيين على نصرة حبيبه ومصطفاه[1]﴿ ﷺ وآله﴾ ؟ ويوم ﴿ أَلَستُ بِرَبِّكُم ﴾ يوم أن أشهدكم فيه على أنفسكم[2] ، ويوم البطون حيث صوركم فى أرحام أمهاتكم[3] ، ويوم الظهور فى هذه الحياة الدنيا الذى ترونه بأبصاركم[4] ، ويوم الممات من هذه الحياة والانتقال منها إلى برزخكم[5] ، ويوم العودة حيث ترجعون فيه إلى الله ربكم[6] ، ويوم الحساب حيث تبعثون للجزاء بالثواب أو العقاب[7] .

﴿ وَكَيْفَ أَخَافُ مَا أَشْرَكْتُمْ ﴾ أى : وهل يعقل أن أخشى أو أخاف من أصنامكم وأوثانكم ، وهى لا حول لها ولا قوة ، ولا تقدم ولا تؤخر ، ولا تضر

١- يشير إلى قوله تعالى : ﴿ وَإِذْ أَخَذَ اللّهُ مِيثَاقَ النَّبِيِّيْنَ ﴾ سورة آل عمران آية ٨١ .

٢- يشير إلى قوله تعالى : ﴿ وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِن بَنِى آدَمَ مِن ظُهُورِهِم ... ﴾ سورة الأعراف آية ١٧٢ .

٣- يشير إلى قوله تعالى : ﴿ هُوَ الَّذِى يُصَوِّرُكُمْ فِي الأَرْحَامِ كَيْفَ يَشَاء ﴾ سور آل عمران آية ٦ .

٤- يشير إلى قوله تعالى : ﴿ وَاللّهُ أَخْرَجَكُم مِّن بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ لاَ تَعْلَمُونَ شَيْئًا ﴾ سورة النحل آية ٧٨ .

٥- يشير إلى قوله تعالى : ﴿ وَمِن وَرَائِهِم بَرْزَخٌ إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ ﴾ سورة المؤمنون آية ١٠٠ .

٦- يشير إلى قوله تعالى : ﴿ وَاتَّقُواْ يَوْمًا تُرْجَعُونَ فِيهِ إِلَى اللّهِ ﴾ سورة البقرة آية ٢٨١ .

٧- يشير إلى قوله تعالى : ﴿ يَوْمَ يَبْعَثُهُمُ اللَّهُ جَمِيعًا فَيُنَبِّئُهُم بِمَا عَمِلُوا ﴾ سورة المجادلة آية ٦ .

ولا تنفع ﴿ وَلاَ تَخَافُونَ أَنَّكُمْ أَشْرَكْتُم بِاللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِ عَلَيْكُمْ سُلْطَانًا ﴾ أى : وكيف لا تخشون أنكم اتخذتم من دون الله ربكم آلهة سواه ، وهو الضار النافع المنتقم القهار ، والعزيز الغفار ، وليس لديكم برهان يفيد صواب ما أشركتم ، ولم يترل عليكم كتابا من السماء يؤيدكم ﴿ فَأَى الْفَرِيقَيْنِ أَحَقُّ بِالأَمْنِ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴾ فريق الحق والصدق والإيمان بالله الخلاق ؟ أم فريق الباطل والكذب والشرك وعبادة ما لم يترل الله به من سلطان ؟ نبئونى بعلم إن كنتم تعلمون ، أينا أحق بالأمن ، أنتم أم نحن الناجون ؟ .

ولا نخلى هذا المقام من ذكر ما تشير إليه هاتان الآيتان من أسلوب الخليل إبراهيم فى حواره مع قومه ، فقد كان عليه السلام يحاجهم فى البداية ببيان دلائل المخلوقات فى الأرض والسموات ، ثم انتقل فى النهاية إلى مناشدة ما يميز الله به كل إنسان من لطائف الفهم والإدراك لمدلول أى بيان ، فبعد أن حاجهم بآثار الأفاق فأقام عليهم الحجة بالكواكب والشمس والقمر ومعالم الأكوان ، أراد أن يقيم الحجة عليهم أيضا بمخاطبة لطائف نفوسهم فى عالم الإنسان ، فنبه عقولهم ، وأيقظ قلوبهم ، وحرك دخائل نفوسهم بأسئلته وتعجبه بقوله كيف تحاجونى فى الخلاق الذى خلقنى وهدانى ؟ .. وكيف تهددوننى بأصنامكم التى تصنعونها بأيديكم وهى لا تضر ولا تنفع ؟؟! أفلا تتذكرون أيام أن كنتم قبل خلقكم وإيجادكم ؟ وأين كانت أوثانكم ؟ ومن الذى خاطبكم فى أصلاب آبائكم ؟ ورعاكم ،وأنتم أجنة فى بطون أمهاتكم ؟ إلخ إلخ . وكيف أخاف من أصنام تصنعها أيديكم ولا تخافون أنتم من الله ربكم الذى أوجدكم وبمقومات الحياة أمدكم ؟! ومن هو أحق بالأمن والاطمئنان ؟ الذى مع الله القوى الديان ؟ أم الذى مع الجماد من الأصنام والأوثان ؟ .

ومن الغريب أن هذه الآسئلة لا تزال توجه إلى بنى الإنسان ، الذين لا يشعرون فى حياتهم بالاطمئنان ، فيقدمون على الانتحار رغم ما يملكون من وسائل الأمان ، أسأل الله لى ولإخوتى المسلمين إصلاح باطننا حتى ينصلح ظاهرنا ، وتطمئن بذكره قلوبنا ، إنه مجيب الدعاء .

قوله تعالى : الَّذِينَ آمَنُواْ وَلَمْ يَلْبِسُواْ إِيمَانَهُم بِظُلْمٍ أُوْلَئِكَ لَهُمُ الأَمْنُ وَهُم مُّهْتَدُونَ(٨٣)

بعد أن ذكر الله لنا حوار الخليل إبراهيم مع قومه ، وكيف تبادلا التخويف والقلق ، وأى الفريقين أحق بالأمن والاطمئنان ، شرع يبين لنا فى هذه الآية صفات الآمنين المطمئنين من المؤمنين ، ويخبرنا بمن هم أحق بالأمن فى كل وقت وحين ، فقال سبحانه : ﴿ الَّذِينَ آمَنُواْ ﴾ أى : صدقوا الله ورسوله ﴿ ﷺ وآله﴾ وسلموا لهم تسليما ﴿ وَلَمْ يَلْبِسُواْ ﴾ أى : ولم يخلطوا تصديقهم وتسليمهم لله ورسوله ﴿ ﷺ وآله﴾ بأى شائبة ، ولم يمزحوا ﴿ إِيمَانَهُم بِظُلْمٍ ﴾ أى : بشرك ، سواء كان ظاهرا أو خفيا أو أخفى ، لأن الشرك كما أخبرنا الله به على لسان لقمان الحكيم وهو يعظ ابنه بقوله : ﴿ يَا بُنَى لَا تُشْرِكْ بِاللَّهِ إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ ﴾[1] وهل هناك ظلم أعظم من أن تنسب للخلق ما هو للخالق ؟ أو تخلط الصدق والإخلاص بالافتراء والخيانة ؟ أعاذنا الله من كل أنواع الشرك ، ظاهرة وخفيه وأخفاه مما يدق على النفس فيخدعها ، وجعلنا بفضله وإحسانه من ﴿ أُوْلَئِكَ ﴾ الذين ﴿ لَهُمُ الأَمْنُ ﴾ فى الدنيا والآخرة ﴿ وَهُم مُّهْتَدُونَ ﴾ أى : موفقون إلى

١- سورة لقمان آية ١٣ .

دوام مراقبتهم لله ربهم ، آمنين بحق معيته ، مطمئنين بذكره سبحانه كما قال تعالى وهو أصدق القائلين : ﴿ أَلاَ بِذِكْرِ اللّهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ ﴾[1] .

وقد انطوت هذه الآية على إشارة ذوقية ، وتخاطب أهل السابقية بطريق غير مباشر ، وفحواها : يا عبادى اتصفوا بصفات أهل الإيمان ، لكى تفوزوا بحقيقة الفلاح والأمان . وقد أجمل القرآن صفات أهل الإيمان فى سبع صفات من أول سورة المؤمنون ، ثم فصلها رسول الله ﴿ ﷺ وآله﴾ فى حديثه المشهور : ((الإيمان بضع وسبعون شعبة ، أعلاها لا إله إلا الله ، وأدناها إماطة الأذى عن الطريق))[2] ثم أخبرنا الله فى سورة العصر : إن الإنسان لفى خسر مع استثناء الذين آمنوا وعملوا بشعب الإيمان ، وتواصوا بينهم بها والصبر عليها .

قوله تعالى : وَتِلْكَ حُجَّتُنَا آتَيْنَاهَا إِبْرَاهِيمَ عَلَى قَوْمِهِ نَرْفَعُ دَرَجَاتٍ مَّن نَّشَاء إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ (٨٣)

بعد أن أخبرنا الله تعالى فى الآية الشريفة بأن أهل الأمن والهداية هم المؤمنون الذين لم يلبسوا إيمانهم بأدنى شائبة من ظلم ، وقد أجمل الله صفات أهل الإيمان فى كتابه المبين ،وفصل رسول الله ﴿ ﷺ وآله﴾ ما أجمله القرآن فى حديثه الكريم ، ناسب أن يقول لنا سبحانه وتعالى فى هذه الآية : ﴿ وَتِلْكَ حُجَّتُنَا آتَيْنَاهَا إِبْرَاهِيمَ عَلَى قَوْمِهِ ﴾ ولا شك أن نسب الحجة إلى الذات الإلهية بإضافة ضمير العظمة لخير دليل على أنها حجة قاصمة لظهور المنكرين والكافرين وليس فوقها حجة ، وقوله تعالى : ﴿ آتَيْنَاهَا ﴾ دليل عموميتها لكل الرسل وورثتهم إلى يوم

١- سورة الرعد آية ٢٨ .

٢- رواه البخارى فى كتاب الإيمان الباب ٣ ومسلم فى كتاب الإيمان الحديث ٥٧ ، ٥٨ .

القيامة ، لأنها لو كانت خاصة بالخليل إبراهيم وحده لقال سبحانه : أعطيناهـــا ، فالإتيان عام والعطاء خاص ، وقوله : ﴿ عَلَى قَوْمِهِ ﴾ أى : ضـــدهم ، وذلــك بإقامته البرهان عليهم بقوله وعمله وحاله المتمثل فى تسليمه لله رب العالمين تسليما لم يسبقه إليه إنسان .

﴿ نَرْفَعُ دَرَجَاتٍ مَّن نَّشَاء ﴾ أى : نعلى قدر من نريد ونرفع مقـــام مـــن نشاء من عبادنا ، فنجمله بآدابنا وأخلاقنا ، ونعطيه خلتنا فيصير كالخليـــل ﴿ إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ ﴾ أى : ذو حكمة علية وعلم واسع ، وبمقتضى تلك الحكمـــة الأزلية وذلك العلم اللدنى يخص أهل الاستحقاق من عباده بما شاء من فضله ، لأنه أعلم حيث يجعل رسالته ، فيخص هذا بكلامه ، ويخص ذاك بخلته ، ويجمل الخاتم﴿ ﷺ وآله﴾ برأفته ورحمته وإقامته مقامه ، فلا حرج على فضل الله ، ولا راد لمراده لأنه لا شريك له فى ملكه .

قوله تعالى : وَوَهَبْنَا لَهُ إِسْحَقَ وَيَعْقُوبَ كُلاًّ هَدَيْنَا وَنُوحًا هَدَيْنَا مِن قَبْـــلُ وَمِن ذُرِّيَّتِهِ دَاوُودَ وَسُلَيْمَانَ وَأَيُّوبَ وَيُوسُفَ وَمُوسَى وَهَارُونَ وَكَـــذَلِكَ نَجْـــزِى الْمُحْسِنِينَ (84)

بعد أن أخبرنا الله جل شأنه برفع درجات من يشاء من عباده عن حكمة لا مثيل لها ، وعلم أزلى يحيط بما كان وما يكون ، وتفضل سبحانه وتعالى وذكـــر لنا أسماء بعض أنبيائه ورسله الذين تفضل عليهم ورفع درجاتهم فقال جل عـــلاه : ﴿ وَوَهَبْنَا لَهُ إِسْحَقَ وَيَعْقُوبَ ﴾ أى : وتفضلنا على خليلنا إبراهيم ووهبنا له ولده إسحاق من زوجته سارة التى حملت به بعد بشارة الملائكة وهى عجوز عقيم ، ثم زدناه من فضلنا بحفيده يعقوب وهو المشهور باسم إسرائيل ، والذى جعل الله من ذريته كثيرا من الأنبياء والمرسلين .

﴿ كُلاًّ هَدَيْنَا ﴾ أى : إسحاق ويعقوب عليهما السلام ﴿ وَنُوحًا هَــدَيْنَا مِن قَبْلُ ﴾ أى : كما هدينا نوحا من قبل وجعلناه من أهل الأمن والسلامة فنجيناه من الطوفان هو وكل من تبعه وركب معه فى السفينة ﴿ وَمِن ذُرِّيَّتِهِ ﴾ أى : مــن نسل الخليل إبراهيم ﴿ دَاوُودَ ﴾ صاحب الزبور ﴿ وَسُلَيْمَانَ ﴾ الذى سخر الله له الريح تجرى بأمره رخاء حيث أراد ، وعلمه منطق الطير ، وأخضــع لــه الجــن مسلسلين فى الأغلال ﴿ وَأَيُّوبَ ﴾ المشهور بالصبر على الضر حتى وصفه الله تعالى بقوله : ﴿ إِنَّا وَجَدْنَاهُ صَابِرًا نِعْمَ الْعَبْدُ إِنَّهُ أَوَّابٌ ﴾[1] ﴿ وَيُوسُفَ ﴾ ابن يعقوب صاحب القصة المشهور مع إخوته ، والذى اجتباه ربه وعلمه تفسير الرؤيا المنامية ، وأتم نعمته سبحانه ، وملكه مصر بعد الذل والإهانة فى الغربة الطويلة ﴿ وَمُوسَــى وَهَارُونَ ﴾ وهما الرسولان اللذان أرسلهما الله إلى فرعون وقومه ، ولكن فرعــون علا فى الأرض وغرته قوته فأهلكه الله هو وجنوده بالغرق فى الــيم ، ونجــى الله موسى وقومه بفلق البحر وتمهيد الطريق فيه ، حتى وصلوا جميعا إلى بــر الســلام والأمان .

﴿ وَكَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ ﴾ من أولى الألباب الذين يذكرون الله قياما وقعودا وعلى جنوبهم ، ويتفكرون فى نعم الله وآلائه ، ومــا خلــق ســبحانه فى السموات والأرض ، فيجازيهم الله بكشف العلوم والأسرار والحكمة ، ويعطــيهم من فضله مثل ما أعطى أنبياءه ورسله ، فلا حظر على فضل الله وعطائه ، ونسأل الله تعالى أن يجعلنا من المحسنين الذين يحسنون كل ما يعلمــون ، حــتى يشــملنا الإحسان فى كل أحوالنا ، إن الله قريب مجيب .

قوله تعالى : وَزَكَرِيَّا وَيَحْيَى وَعِيسَى وَإِلْيَاسَ كُلٌّ مِّنَ الصَّالِحِينَ(٨٥)

١- سورة ص آية ٤٤ .

﴿ وَزَكَرِيَّا ﴾ وهو رسول لبنى إسرائيل ، وقد رزقه الله ولدا بعد اليأس فى الكبر ووهن العظم ، وسماه يحى وهو أول من سمى بهذا الاسم ﴿ وَيَحْيَى ﴾ هو ابن زكريا ، وقد أرسله الله تعالى إلى بنى إسرائيل بعد أبيه فكذبوه وقتلوه ، بعد أن اتهموا بشر التهم التى هو منها براء ﴿ وَعِيسَى ﴾ وهو ابن مريم العذراء الطاهرة التى طهرها الله تعالى ، وقد بعثه الله لبنى إسرائيل رسولا فكذبوه وافتروا عليه وعلى والدته بهتانا وإثما عظيما ، ولما كادوا له أشر الكيد وأرادوا قتله نجاه الله من كيدهم ورفعه إليه ﴿ وَإِلْيَاسَ ﴾ كان رسولا إلى بنى إسرائيل وهو ابن هارون أخى موسى الكليم عليهم السلام .

﴿ كُلٌّ مِّنَ الصَّالِحِينَ ﴾ أى أن كل هؤلاء الرسل المذكورين هم من عباد الله المصلحين .

قوله تعالى : وَإِسْمَاعِيلَ وَالْيَسَعَ وَيُونُسَ وَلُوطًا وَكُلاًّ فضَّلْنَا عَلَى الْعَالَمِينَ

﴿ وَإِسْمَاعِيلَ ﴾ وهو ابن إبراهيم الخليل من زوجته هاجر المصرية ، وقد ذهب بهما الخليل عليه السلام إلى مكة وتركهما وهو يقول ما أخبرنا الله به : ﴿ رَّبَّنَا إِنِّى أَسْكَنتُ مِن ذُرِّيَّتِى بِوَادٍ غَيْرِ ذِى زَرْعٍ عِندَ بَيْتِكَ الْمُحَرَّمِ رَبَّنَا لِيُقِيمُوا الصَّلاَةَ فَاجْعَلْ أَفْئِدَةً مِّنَ النَّاسِ تَهْوِى إِلَيْهِمْ وَارْزُقْهُم مِّنَ الثَّمَرَاتِ لَعَلَّهُمْ يَشْكُرُونَ﴾[1] واستجاب الله تعالى دعاء خليله وعمر بهما المسجد الحرام ، وإسماعيل هو جد رسول الله وخاتم أنبيائه صلوات الله وسلامه عليهم جميعا ، ﴿ وَالْيَسَعَ ﴾ هو رسول من رسل الله الكرام ﴿ وَيُونُسَ ﴾ هو رسول الله الذى اشتهر بذى النون ، وهو صاحب الحوت الذى آمنت به أمته بعد تركه لهم وابتلاع

١- سورة لإبراهيم آية ٣٧ .

الحوت له عندما ألقى بنفسه من السفينة ، فنادى ربه وهو فى ظلمات بطن الحوت : ﴿ أَن لَّا إِلَهَ إِلَّا أَنتَ سُبْحَانَكَ إِنِّى كُنتُ مِنَ الظَّالِمِينَ ﴾[1] فاستجاب الله دعاءه ونجاه إلى البر سالما ﴿ وَلُوطًا ﴾ وهو تلميذ للخليل إبراهيم ، أرسله الله تعالى لقومه فكذبوه وأنكروا عليه طهره وصلاحه ، فأخذهم الله بالعذاب ، وجعل ديارهم عاليها سالفها ، وأمطرهم بحجارة من سجيل منضود .

﴿ وَكُلاًّ فضَّلْنَا عَلَى الْعَالَمِينَ ﴾ أى أن كل هؤلاء الرسل قد فضلهم الله على أهل عصرهم ، بدليل أن الله بعث كلا منهم رسولا إلى قومه ، وفى ذلك من الفضل والشرف ما لا يدانيه شيء مما يرغب فيه أهل الجهالة والضلالة .

قوله تعالى : ﴿ وَمِنْ آبَائِهِمْ وَذُرِّيَّاتِهِمْ وَإِخْوَانِهِمْ وَاجْتَبَيْنَاهُمْ وَهَدَيْنَاهُمْ إِلَى صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ(87)

﴿ وَمِنْ آبَائِهِمْ وَذُرِّيَّاتِهِمْ ﴾ أى : وكذلك فضلنا بعضاً من آبائهم وذرياتهم لأن وجود (وَمِن) فى بداية الآية يفيد البعض وليس الكل ، لأن من الرسل من لم يكن له أب ، ومهنم من لم يكن له ذرية ، ومنهم من كان ابنه كافرا مثل ابن نوح الذى رفض أن يركب السفينة مع أبيه .

﴿ وَإِخْوَانِهِمْ ﴾ أى : من الأتباع المخلصين والعلماء العالمين ، وورثتهم الداعين بدعوتهم إلى يوم الدين ﴿ وَاجْتَبَيْنَاهُمْ ﴾ أى : واخترناهم واصطفيناهم على علم من لدنا ﴿ وَهَدَيْنَاهُمْ إِلَى صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴾ أى : ومنحناهم فضلنا

١- سورة الأنبياء آية ٨٧ .

وخصصناهم بالسير على الصراط المستقيم ، والدلالة على الطريق القويم ، وهو طريق الأنبياء والمرسلين صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين .

ويستخلص من هذه الآيات بعض المعانى السامية التى تبين أن مقامات الرجال وعلو درجاتهم عند الله لا نهاية لها فى العلو والارتقاء ، فمقام الإسلام يعلوه مقام الإيمان ، ومقام الإيمان يعلوه مقام الإحسان ، ومقام الإحسان يعلو فوقه مقام اليقين ، وفوق مقام اليقين يعلو مقام المحبوبين ، ثم مقام المقربين ، ثم مقام الأولياء الصالحين ، ثم مقام العباد الذاتيين الذين يعبدون الله تعالى لذاته ولا يقصدون بعبادتهم حُورا عينا ، إلى آخر ما يشير إليه قول أصدق القائلين : ﴿ نَرفَعُ دَرَجَاتٍ مَّن نَّشَاءُ ﴾[1] وقوله جل شأنه : ﴿ وَلَدَينَا مَزِيدٌ ﴾[2] .

كما يستخلص منها كذلك أن فضل الله الذى أجراه الله على جميع أنبيائه ورسله السابقين ؛ سيجرى مثله على المحسنين اللاحقين من عباد الله الصالحين فى كل وقت وحين إلى يوم الدين ، فلا حظر على فضل الله الحكيم العليم ، أسأل الله تعالى أن يمنحنى وإخواتى المسلمين أعلى الدرجات لنكون فى ألآخرة آنسين بالنظر إلى وجهه الكريم ، إنه سميع مجيب .

قوله تعالى : ﴿ ذَٰلِكَ هُدَى اللَّهِ يَهْدِى بِهِ مَن يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَلَوْ أَشْرَكُواْ لَحَبِطَ عَنْهُم مَّا كَانُواْ يَعْمَلُونَ ۝

بعد أن ذكر الله تعالى فى الآيات السابقة أسماء ثمانية عشر نبيا ورسولا ، وأشار إلى بعض ما آتاهم من مواهب وعطايا من رفع الدرجات وعلو المكانة

١- سورة الأنعام آية ٨٣ .

٢- سورة ق آية ٣٥ .

والمقامات ؛ ناسب أن يذكر فى هذه الآية أن ﴿ ذَٰلِكَ هُدَى ٱللَّهِ يَهْدِى بِهِ مَن يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ ﴾ بمعنى أن ما قاموا به من طاعات وما جرى على ألسنتهم من علم وحكمة وحجة دالة على توحيده سبحانه ، وإنما تم بفضل الله وتوفيقه وهداه ، وأن جميع الأنبياء والرسل وأبدالهم من ورثة علمهم ودعوتهم الحاملين لرسالتهم ليس لهم فى هداية أنفسهم وغيرهم حول ولا قوة ، وإنما الهدى الذى اهتدوا به وهدوا به غيرهم هو لله وبالله وبحول الله وقوة الله ومشيئة الله دون سواه ، وقد أقر واعترف هؤلاء المهديون الهادون بفضل الله تعالى فى هدايتهم فقالوا بما اخبرنا الله به فى قوله سبحانه : ﴿ وَقَالُوا ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى هَدَانَا لِهَٰذَا وَمَا كُنَّا لِنَهْتَدِىَ لَوْلَآ أَنْ هَدَانَا ٱللَّهُ ﴾[1] نسأل الله تعالى أن يمنحنا هداية الهادين المهديين ، ويحفظنا من الشرك به سبحانه .

﴿ وَلَوْ أَشْرَكُوا۟ لَحَبِطَ عَنْهُم مَّا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴾ أى : ولو حدث وشاب نفوس بعضهم شرك ما ــ ولو كان فى صورة أخفى من أن تشعر به نفوسهم ــ لبطل عنهم ما كانوا يعملون ، وحرموا ثوابه فى الدنيا والآخرة ، ولولا حفظ الله لهم ﴿ فَٱللَّهُ خَيْرٌ حَافِظًا وَهُوَ أَرْحَمُ ٱلرَّاحِمِينَ ﴾[2] .

وتتضمن هذه الآية إشارة خفية تخوف أولياء الله الصالحين ، والهادين المهديين الذين ورثوا علوم الدين ، وكلفوا بحمل عبء مهمة المرسلين السابقين ، فتجعلهم حريصين كل الحرص من كيد الشيطان اللعين ، حتى لا يوقعهم فى شرك ظاهر عظيم ، أو يجرهم إلى شرك خفى يرضى فى النفوس غرضا دفينا ، أو يخدعهم بشرك أخفى من أن تشعر به النفس فتسيء إلى صاحبها فتدعى أمورا ليست لها ،

١- سورة الأعراف آية ٤٣ .

٢- سورة يوسف آية ٦٤ .

معجبة بعملها وهى تظن أنها من المحسنين ، أعاذنى الله وإخوانى المؤمنين من وساوس وهمسات شياطين الجن والأنس أجمعين .

قوله تعالى : أُوْلَئِكَ الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ وَالْحُكْمَ وَالنُّبُوَّةَ فَإِن يَكْفُرْ بِهَا هَؤُلاء فَقَدْ وَكَّلْنَا بِهَا قَوْمًا لَّيْسُواْ بِهَا بِكَافِرِينَ(٨٩)

﴿ أُوْلَئِكَ ﴾ ضمير الإشارة فى هذه الآية عائد على أولئك الرسل المذكورين فى الآيات السابقة ، كما تعنى أيضا غيرهم ممن ذكرت أسماؤهم فى آيات أخرى ، وكذلك الذين لم يذكر الله أسماءهم فى كتابه الحكيم ، وقوله تعالى : ﴿ الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ ﴾ يشمل أيضا جميع أولياء الله الصالحين ، والعلماء العاملين ، من ورثة دعوة رسول الله وخاتم النبيين ﴿ ﷺ وآله﴾ ، لأن الإتيان عام ـــ كما سبق أن قدمنا ـــ فهو يشمل الرسل وجميع أتباعهم من الأمم إلى يوم الدين ، أما العطاء فهو خاص بمخصوصين لا يتعداهم ، وبناء عليه يكون الجميع قد آتاهم الله الكتاب فصاروا أهل كتاب ، سواء كان توراة ، أو زبورا ، أو إنجيلا ، أو قرآنـــا ، ﴿ وَالْحُكْمَ ﴾ أيضا آتاه الله للجميع ، سواء بمعناه المادى الذى يشير إلى الحكم الفرد لأسرته ، أو قبيلته ، أو عشيرته ، أو مدينته ، إلى حكم دولته .. أو بمعناه المعنوى الذى يفيد إتيانه حكمة وعلما وكياسة وذوقا يتذوق به معانى تجليات أسماء الله وصفاته ، فى أرضه وسمواته وكافة آياته فى مخلوقاته وكونه فى كتبه المنزلة على أنبيائه ورسله ﴿ وَالنُّبُوَّةَ ﴾ هى : الإخبار عن الله بما غاب عن الناس من حقيقة الحياة الدنيا وحتمية زوالها ، مع بيان بقاء الحياة الأخروية ودوامها .

﴿ فَإِن يَكْفُرْ بِهَا هَؤُلاء ﴾ أى : فإن يكذب بها هؤلاء الكفار والمشركون واليهود والنصارى فى كل زمان ومكان ﴿ فَقَدْ وَكَّلْنَا بِهَا قَوْمًا لَّيْسُواْ بِهَا

بِكَافِرِينَ﴾ أى : فقد خصصنا لها قوما يصدقون بالكتاب والحكم والنبوة ، ويعملون بها ، ويدعون الناس إليها فى كل زمان ومكان حتى لا تكون للناس على الله حجة بعد الرسل .

قوله تعالى : أُوْلَئِكَ الَّذِينَ هَدَى اللّهُ فَبِهُدَاهُمُ اقْتَدِهْ قُل لاَّ أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِنْ هُوَ إِلاَّ ذِكْرَى لِلْعَالَمِينَ(90)

بعد أن أشار الله فى الآية السابقة إلى أنبيائه ورسله ، وورثتهم من العارفين والعلماء العاملين والأولياء الصالحين بكلمة ﴿ أُوْلَئِكَ ﴾ ورمز إلى الجانب الآخر من الناس الذين يكفرون بالله وكتبه ورسله ويكذبون كل من يذكرهم بيوم الدين بكلمة ﴿ هَؤُلاء ﴾ ناسب أن يذكر سبحانه أهل الهدى الذين هداهم ، وينسبهم إلى أنبيائه ورسله الذين آتاهم الكتاب والحكم والنبوة بقوله تعالى : ﴿ أُوْلَئِكَ الَّذِينَ هَدَى اللّهُ ﴾ أى أن الأنبياء والرسل والعلماء والأولياء هم الذين هداهم الله إلى صراطه المستقيم وطريقه القويم ﴿ فَبِهُدَاهُمُ اقْتَدِهْ ﴾ أى : اقتد أيها الإنسان العاقل الذى يرجو الخير فى الدنيا والآخرة بهدى أولئك الذين هداهم الله ، وسر على سنتهم حتى تتصف بصفاقم ، وتتحلى بأخلاقهم وآدابهم التى تتجلى فى قوة إيمانهم ، وعظيم صبرهم ، وصدق إخلاصهم ، فتكون فى معيتهم فى الحياة الدنيا ، وتحشر معهم فى الآخرة وهذا هو الفوز العظيم .

﴿ قُل لاَّ أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا ﴾ أى : قل يا محمد لأهل مكة وللناس جميعا : إنى لا أبغى بما جئتكم به من قرآن وتوحيد وأنباء غرضا من الأغراض الدنيوية ، ولا علة من العلل البشرية ، ولا أسألكم عليه جزاء من مال أو ملك أو رياسة أو غيره مما تظنون ، والخطاب وإن كان خاصا برسول الله ومعاصريه من الكافرين ، إلا أنه عام يشمل كل داع من دعاة الحق إلى يوم الدين .

﴿ إِنْ هُوَ إِلاَّ ذِكْرَى لِلْعَالَمِينَ ﴾ أى أن كل ما تحدثت إليكم به وأخبرتكم عنه ، وبينت لكم حقيقته فى قرآن يتلى عليكم ، ليس فى حقيقته إلا ذكرى للعالمين ، ولما كانت الذكرى لا تكون إلا بعد نسيان ، يكون المعنى هو تذكيركم بأيام الله وعهوده التى عاهدكم بها قبل إيجادكم فى هذه الحياة ، ويجوز أن يكون المقصود بالعالمين عالم الجن فى خفائه وعالم الإنس فى ظهوره ، كما يجوز أن يكون المقصود عالم الحاضر القائم بمعاصرى رسول الله ﴿ ﷺ وآله﴾ وعالم المستقبل القادم بعد انتقال رسول الله﴿ ﷺ وآله﴾ وإلى ما شاء الله ، كما يجوز أيضا أن يكون المقصود بالعالمين عالم أهل التسليم من المؤمنين الذين يصدقون كل داع إلى الله فى كل زمان ومكان ، وعالم أهل العناد من المكذبين الذين يكذبون كل داع إلى الصلاح والإصلاح ، لأنهم من المفسدين الذين لا يرغبون بالفساد والإفساد بديلا .

وكعادتنا لا نخلى تفسير هذه الآية من ذكر ما تحويه عباراتها من إشارة إلى أن الدين واحد لم تتغير حقيقته من لدن آدم إلى محمد الأمين رسول الله وخاتم النبيين ﴿ ﷺ وآله﴾ ، فالدين مبنى على قواعد أربع لا تتغير بتغير الأنبياء والرسل ، ولا بتغير الزمان والمكان ، ولا بتغير أتباع الرسل وورثتهم القائمين بحمل رسالتهم إلى يوم الدين :

١ ــ القاعدة الأولى : العقيدة ، وهى الإيمان بواحدنية الله تعالى ، وعقد القلب على توحيده توحيدا خالصا لا تشوبه شائبة من شرك ظاهر أو خفى .

٢ــ القاعدة الثانية : عبادة الله الواحد الأحد الفرد الصمد ، الذى خلق كل شىء من عدم وعلى غير مثال سبق ، وأن تكون عبادته وفق مناسكه التى ارتضاها لنفسه ، وبلغتنا بالتواتر عن أنبائه ورسله .

٣ ــ القاعدة الثالثة : هى المعاملة الطيبة الفاضلة ، والمتمثلة فى عمل الصالحات وارتباطها بعقيدة الإيمان فى معظم آيات القرآن .

٤ : القاعدة الرابعة : هى الأخلاق الحميدة ، التى مدح سبحانه رسوله وخاتم أنبيائه﴿ ﷺ وآله﴾ بها بقوله : ﴿ وَإِنَّكَ لَعَلَى خُلُقٍ عَظِيمٍ ﴾[1] فالله تعالى يحب من خَلقه من كان على خُلُقه .

هذه هى قواعد الدين التى لم تتغير و لم تتبدل من عهد آدم إلى عهد سيدنا محمد عليهم الصلاة والسلام ، وما على الإنسان إلا الاقتداء بمن هداهم الله إليها فعملوا بها ، والمشار إليهم فى قوله سبحانه : ﴿ أُوْلَئِكَ الَّذِينَ هَدَى اللّهُ فَبِهُدَاهُمُ اقْتَدِهْ ﴾ أسأل الله تعالى أن يمنحنى وإخواتى المؤمنين حسن الاقتداء بالأنبياء والمرسلين ، وأن يجعلنا قدوة حسنة لمن هداهم الله من عباده اللاحقين إلى يوم الدين .

قوله تعالى : وَمَا قَدَرُواْ اللّهَ حَقَّ قَدْرِهِ إِذْ قَالُواْ مَا أَنزَلَ اللّهُ عَلَى بَشَرٍ مِّن شَيْءٍ قُلْ مَنْ

أَنزَلَ الْكِتَابَ الَّذِي جَاء بِهِ مُوسَى نُورًا وَهُدًى لِّلنَّاسِ تَجْعَلُونَهُ قَرَاطِيسَ تُبْدُونَهَا وَتُخْفُونَ كَثِيرًا وَعُلِّمْتُم مَّا لَمْ تَعْلَمُواْ أَنتُمْ وَلاَ آبَاؤُكُمْ قُلِ اللّهُ ثُمَّ ذَرْهُمْ فِي خَوْضِهِمْ يَلْعَبُونَ(91)

من أسباب نزول هذه الآية ما رواه ابن أبي حاتم عن سعيد بن جبير أن حبرا من أحبار اليهود يقال له مالك ابن الصيف ، جاء إلى رسول الله ﴿ ﷺ

١- سورة القلم آية ٤ .

وآله﴾ فخاصمه وجادله جدال المنكرين عليه رسالته ، فقال له النبى فى نهاية الجدال : ((أَنشُدُكَ بِآلَّذِى أَنزَلَ آلتَّورَاةَ عَلَى مُوسَى ، هَل تَجِدُ فِى كِتَابِكُم أَنَّ آللَّهَ يَبغَضُ آلحَبرَ آلسَّمِينَ)) وكان اليهودى حبرا سمينا فغضب وقال : مَا أَنزَلَ آللَّهُ على بَشَرٍ مِن شَىءٍ ، فقال له أصحابه : وَيحَكَ ، وَلاَ عَلَى مُوسَى ؟؟ فأنزل الله قوله تعالى : ﴿ وَمَا قَدَرُواْ اللّهَ حَقَّ قَدْرِهِ ﴾ أى : ليس فى قدرة مخلوق من الإنس أو الجن أو الملائكة أن يصف الله بوصف يليق بذاته العلية ، كما لا يستطيع أحد من الخلق أن يعظم الله تعظيما يبلغ حقيقته سبحانه .

﴿ إِذْ قَالُواْ مَا أَنزَلَ اللّهُ عَلَى بَشَرٍ مِّن شَيْءٍ ﴾ أى : إذ كان قول الجاهلين بقدر الله وقدرته ـــ فى مجال جدالهم وتكذيبهم وإنكارهم ـــ ما أنزل الله على بشر كتبا ولا صحفا ولا أخبارا ولا شيئا على الإطلاق ﴿ قُلْ مَنْ أَنزَلَ الْكِتَابَ الَّذِي جَاء بِهِ مُوسَى ﴾ أى : قل يا محمد لليهود وأمثالهم من المنكرين ، إذا كنتم تنكرون إنزال الله للكتب على البشر ، فمن الذى أنزل التوراة على موسى الكليم ، وجعله ﴿ نُورًا وَهُدًى لِّلنَّاسِ ﴾ فى زمن موسى عليه السلام ، ينير لهم به سبيل الخير وطريق الرشاد ويهديهم به إلى الصراط المستقيم .

﴿ تَجْعَلُونَهُ قَرَاطِيسَ تُبْدُونَهَا ﴾ أى : تكتبون أحكام التوراة فى أبواب متفرقة كل باب عل حدة تجعلونها مجزأة فى كتيبات صغير ة لكى تظهروا للناس منها ما يتفق مع أهواء نفوسكم ، وحسب أغراضكم ﴿ وَتُخْفُونَ كَثِيرًا ﴾ أى : وتكتمون من كتاب التوراة أحكاما وأخبارا كثيرة مما لا يتفق مع مصالحكم المادية الزائلة ، مثل صفات النبى ﴿ ﷺ وآله﴾ ، والتنبؤ ببعثته وهجرته ، وإثبات رسالته ، وغيره من الأحكام التى تطبقونها على فقرائكم وضعفائكم ، وتخفون أمرها إذا أريد تطبيقها على أغنيائكم وأقويائكم .

﴿ وَعُلِّمْتُم مَّا لَمْ تَعْلَمُواْ أَنتُمْ وَلاَ آبَاؤُكُمْ ﴾ أى : وقد جاءكم رسولنا محمد ﴿ ﷺ وآله﴾ الذى كنتم تستفتحون به على الكفار والمشركين ، ويعلمكم ما لم تكونوا تعلمون به أنتم ولا آباؤكم ، مما أخفاه عنكم أحباركم من التوراة ، فأنكرتموه وكذبتموه حسدا من عند أنفسكم .

﴿ قُلِ اللّهُ ﴾ أى : لليهود والنصارى وكل كافر ومنافق وكل ناكر ومكذب ومعاند : إن الله تعالى هو الذى أنزل علىَّ القرآن لأنذركم به ، كما أنزل التوراة على موسى ، والإنجيل على عيسى ، وصحف إبراهيم وغيره من النبيين ﴿ ثُمَّ ذَرْهُمْ ﴾ أى : اتركها فى إنكارهم وتكذيبهم وجحودهم ودعهم ﴿ فِي خَوْضِهِمْ يَلْعَبُونَ ﴾ أى : فى جهلهم وباطلهم يلعبون مثل الأطفال السفهاء ، بعيدين عن تدبر أهل الفكر من العقلاء . .

وفى طى هذه الآية إشارة فى قوله : ﴿ وَمَا قَدَرُواْ اللّهَ حَقَّ قَدْرِهِ ﴾ فقد وقفت دونه جميع المخلوقات ، وتأدبت أمامه جميع التصورات ، وكلت عن إدراك قدره العقول ، وعجزت عن القرب منه كل علماء الأصول ، وسجدت بين يدى عظمته كل الرؤوس ، ومحقت من شدة أنوار قداسته كل النفوس ، فقدره جل شأنه أكبر من جميع الموجودات ، ودونه وقفت كافة المخلوقات ، فما بالك بحق قدره الذى لا يصل إلى وصفه بيان ، ولا تحبير مكتوب ولا تعبير لسان ، ولا علم عرفان بواسطة الجنان ، وكفى أنه ليس كمثله شىء ، وكل ما سواه شىء ، فكيف تقدره الأشياء وهو فوقها فيما لا نهاية من العلياء ، فيجب إذن أن ندع تقدير قدر الله لله ، ونسلم له التسليم الكامل بكل معناه ، ففى التسليم كل السلامة ، والبحث فيما فوق إمكانياتنا ضياع للوقت وعاقبته الندامة ، فإن قال سبحانه إنه سميع بصير صدقنا وسلمنا ، وإن قال إنه معنا وأقرب لنا من حبل

الوريد آمنا ، وراقبنا أنفسنا تأدبا مع ربنا ، مع كامل التتريه والتقديس والتسبيح لجنابه العلى .

قوله تعالى : وَهَذَا كِتَابٌ أَنزَلْنَاهُ مُبَارَكٌ مُّصَدِّقُ الَّذِى بَيْنَ يَدَيْهِ وَلِتُنذِرَ أُمَّ الْقُرَى وَمَنْ حَوْلَهَا وَالَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالآخِرَةِ يُؤْمِنُونَ بِهِ وَهُمْ عَلَى صَلاَتِهِمْ يُحَافِظُون(93)

بعد أن بين الله لنا فى الآية السابقة أن تقدير الخلق لقدر الحق هو عين المستحيل ، وأعلمنا بإنكار اليهود ومن سار على دربهم لتزول الكتب السماوية ، وأقام الحجة على كذبهم بتوضيح الاختلاف بين عقيدهم وأقوالهم ، شرع فى هذه الآية يثبت إنزاله سبحانه لكتابه على رسوله وخاتم أنبيائه ﴿ ﷺ وآله﴾ فقال جل شأنه : ﴿ وَهَذَا كِتَابٌ أَنزَلْنَاهُ ﴾ أى : إن كنتم تنكرون نزول الكتب السماوية على الرسل السابقين ، وأنتم مطمئنون لأهم عليهم السلام ليسوا موجودين فيقدمون دليل نزول الكتب عليهم ، كما لا يستطيعون إقامة الحجة على صدقهم لأن هذا ليس زمن رسالتهم ، فإليكم هذا الكتاب الذى أنزلناه على عبدنا ورسولنا ﴿ مُبَارَكٌ مُّصَدِّقُ الَّذِى بَيْنَ يَدَيْهِ ﴾ أى : خيراته كثيرة لا تعد ، ومعانيه عديدة لا تحد ، ورحماته لا تحصى ، وبركاته لا تستقضى ، يثبت فى آياته صدق الكتب السابقة ، وفى عجزكم عن الإتيان بمثل أقصر سورة من سورة هى حجة قائمة على إنزاله من لدن حكيم عليم .

﴿ وَلِتُنذِرَ أُمَّ الْقُرَى وَمَنْ حَوْلَهَا ﴾ أى : لتعظ وتحذر وتنذر سكان مكة وسكان كل القرى التى حولها ، ومن حول التى حولها ، حتى يعم التحذير والوعظ والنذير للناس أجمعين إلى يوم الدين .

﴿ وَالَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالآخِرَةِ يُؤْمِنُونَ بِهِ ﴾ أى : والذين يعظهم تشنيع الموتى إلى القبور ويتخذون هذا دليلا على حتمية الفناء ، ويؤمنون بالبعث فى الآخرة التى هى دار البقاء ، يؤمنون كذلك بهذا الكتاب وصدق آياته ، ويستدلون به على نزوله من عند الله على رسوله وخاتم أنبيائه صلوات الله وسلامه عليهم جميعا . ﴿ وَهُمْ عَلَى صَلاَتِهِمْ يُحَافِظُونَ ﴾ أى أن علامة إيمان المؤمنين ودليل صدقهم ، هو المحافظة على صلاتهم فى أوقاتها المعلومة ، وبمناسكها المرسومة ، محافظة توجب عليهم حسن القيام بجميع أركان الإسلام ، لأن من حافظوا على صلاتهم دون أقل تهاون ، كانوا لغيرها أحفظ ، ومن ضيعوا صلاتهم كانوا لغيرها أضيع ، هذا إذا قرأت صلاتهم بفتح الصاد ، أما إذا قرأت بكسر الصاد فيكون المعنى : وهم على صلاتهم بربهم وكتبه ورسله وإخوانهم المؤمنين يحافظون ، محافظة قائمة فى كل نفس لا تنقطع أبدا ، أسأل الله تعالى أن يمنحنى وإخواتى المؤمنين حسن المحافظة على صلاتنا ، سواء بفتح الصاد أو بكسرها ، إنه رب قريب مجيب الدعاء .

ولا نخلى تفسير هذه الآية من بيان إشارتها إلى إنزال الكتاب من سماء القدس الأعلى إلى أرض بيت الله المعمور بالله ، وهو قلب رسول الله ﴿ ﷺ وآله﴾ ، والكتاب المشار إليه فى هذه الآية هو القرآن الذى تلقاه رسول الله ﴿ ﷺ وآله﴾ بقلبه ، ثم تلاه بلسانه على مسامع قومه ، ومعلوم أن التلقى بالقلب يكون بغير حرف وبغير صوت ، والتلاوة يتحتم فيها وجود الحرف والصوت ، فكيف فهم رسول الله معنى القرآن وتلاه علينا باللسان ؟ لا شك أن ذلك كامن طى الاسمين الرحمن الرحيم ، فبسرهما يسمع الإنسان كلام الله القديم ، ويبصر بهما كتاب العليم الحكيم ، سر قوله تعالى وهو أصدق القائلين : ﴿ ٱلرَّحْمَٰنُ عَلَّمَ ٱلْقُرْءَانَ خَلَقَ ٱلإِنسَانَ عَلَّمَهُ الْبَيَانَ ﴾[1] أى أن الله باسمه الرحمن علّمنا القرآن ونحن لا نزال

١- سورة الرحمن آية ١ ــ ٤ .

أرواحاً فى عالم الأمر ، وباسمه الرحيم وفقنا لتلاوته بيانا ونحن بشر فى عالم الخلق ، فالفضل منه سبحانه ، وإليه يرجع الأمر كله ، ولا حول ولا قوة إلا بالله العلى العظيم .

ومن أسرار هذه الآية أيضا البركات المشار إليها فى قوله تعالى : ﴿ وَهَذَا كِتَابٌ أَنزَلْنَاهُ مُبَارَكٌ ﴾ فالبركة هى سرعة النماء مع كثرة العطاء ، والقرآن بهذا المفهوم مبارك فى معانية الباطنة ، وفى ألفاظ كلماته الظاهرة ، سريع النمو فى حكم أحكامه ، من عمل بها ربح ونجا ، ومن تركها خسر وهلك ، كما أنه كثير العطاء فى علومه وأسراره ، وتجليات أنواره ، ففى كل آية من آياته ، وكل كلمة من كلماته ، بل وفى كل حرف من حروفه علوم لا تنتهى أبد الآبدين ودهر الداهرين ، لأنه جمع علوم الملك فى ظاهره ، وعلوم الملكوت فى باطنه ، وكل أحكام سعادة الإنسان الدنيوية والأخروية فى حده ، واطمئنان القلوب وحياة الأرواح من مرابع مطلعه ، وسبحان من هذا كلامه ﴿ قُل لَّوْ كَانَ الْبَحْرُ مِدَادًا لِّكَلِمَاتِ رَبِّى لَنَفِدَ الْبَحْرُ قَبْلَ أَن تَنفَدَ كَلِمَاتُ رَبِّى وَلَوْ جِئْنَا بِمِثْلِهِ مَدَدًا ﴾[1] .

فبركات القرآن فوق بركات الأكوان ، لأن الكون كله كلمة منه وهى قوله تعالى : ﴿ كُن ﴾ التى وجد بها العرش وما طوى ، والكرسى وما حوى ، والسموات وما وسعت ، والأرض وما أقلت ، وكل المخلوقات مهما تعددت وتنوعت ، ولهذا قال العارفون بالله تعالى : لقد جهل القرآن من وقف عند حروفه المعدودة ، وألفاظه المحدودة ، وآياته المكتوبة بمعانيها الظاهرة ، الدالة على أحوال الدنيا والآخرة .. وذاق حلاوة بركاته ، من غاص فى أعماق بطون كلماته ، وساح بروحه فى غيب أسراره ، فاجتباه ربه وأطلعه على مراده ، وهنا يعجز

١- سورة الكهف آية ١٠٩ .

اللسان ويقف البيان عن إيضاح معنى كلمة واحدة ، لأن ما بين العبد وربه فـــوق العبارات البيانية ، بل وأعلى من إمكانيات الإشارات الإيمانية ، أسأل الله أن يمنحنى وإخواتى المؤمنين ، نوراً من ساطع حق اليقين ، نذوق به قبسا من غيب القـــرآن المبين ، إنه سبحانه بعبده لرءوف رحيم .

قوله تعالى : وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللّهِ كَذِبًا أَوْ قَالَ أُوْحِيَ إِلَيَّ وَلَـــمْ يُوحَ إِلَيْهِ شَيْءٌ وَمَن قَالَ سَأُنزِلُ مِثْلَ مَا أَنَزلَ اللّهُ وَلَوْ تَرَى إِذِ الظَّالِمُونَ فِي غَمَرَاتِ الْمَوْتِ وَالْمَلآئِكَةُ بَاسِطُواْ أَيْدِيهِمْ أَخْرِجُواْ أَنفُسَكُمُ الْيَوْمَ تُجْزَوْنَ عَذَابَ الْهُونِ بِمَا كُنتُمْ تَقُولُونَ عَلَى اللّهِ غَيْرَ الْحَقِّ وَكُنتُمْ عَنْ آيَاتِهِ تَسْتَكْبِرُونَ(93)

بعد أن بين الله تعالى فى الآية السابقة أنه هو الذى أنزل القـــرآن مباركـــا ومصدقا لما بين من الكتب السابقة ، وجعله نذيرا لأهل مكة ومن حولهم من الناس أجمعين ، ثم بين أن المؤمنين بالآخرة هم المؤمنون به سبحانه ، ووصفهم بأهم الذين يحافظون على صلاقم بكوها صلاة تقرب وعبادة ، وليست مجرد تقليد أو عادة ؛ شرع سبحانه يبين لنا فى هذه الآية أن أظلم الظالمين من الناس هم الذين يفتـــرون على الله كذبا ويقولون هتانا وزورا : إنه نزل عليهم وحـــى مـــن الله ، أو إهـــم يستطيعون أن يأتوا بمثل ما أنزل الله ، فقال تعالى : ﴿ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللّهِ كَذِبًا ﴾ أى : ومن أشد ظلما فى الناس لنفسه وغيره ممن اخترع زورا وابتدع كذبا على الله غير الحق ﴿ أَوْ قَالَ أُوْحِيَ إِلَيَّ وَلَمْ يُوحَ إِلَيْهِ شَيْءٌ ﴾ أى : أو ادعى أن الله أوحى إليه برسالة ، مع أنه فى الحقيقة لم يوح إليه شىء ﴿ وَمَن قَالَ سَأُنزِلُ مِثْلَ مَا أَنَزلَ اللّهُ ﴾ مع أنه لا يستطيع تحقيق ما قال به كما لا يمكنه إنجاز ما وعد ، لأنه أعلم الناس بمدى كذبه وافترائه غير الحق ، وهذا منتهى الظلم للنفس وللغير .

﴿ وَلَوْ تَرَى إِذِ الظَّالِمُونَ فِى غَمَرَاتِ الْمَوْتِ ﴾ أى : ولـــو تـــرى أيهـــا الإنسان الصادق المصدق بما أنزل الله تعالى هؤلاء الظالمين المكذبين وهم فى حالـــة الموت عندما تغشاهم سكراته ، وتغمرهم شدائد آلامه وهوانـــه ﴿ وَالْمَلآئِكَـــةُ بَاسِطُواْ أَيْدِيهِمْ أَخْرِجُواْ أَنفُسَكُمُ ﴾ أى : والملائكة الموكلـــون بقـــبض الأرواح باسطو أيديهم إليهم بالتعذيب الأليم ، ويقولون لهؤلاء الظالمين ـــ تعنيفا لهم وزجرا ـــ : قدموا أنفسكم إلينا لكى تنالوا جزاء ما قدمت أيديكم .

﴿ الْيَوْمَ تُجْزَوْنَ عَذَابَ الْهُونِ ﴾ أى : اليوم هو يوم جـــزائكم بالعـــذاب الشديد والهوان لكم ، عقابا على ظلمكم ﴿ بِمَا كُنتُمْ تَقُولُونَ عَلَـــى اللّـــهِ غَيْـــرَ الْحَقِّ﴾ أى : أن هذا العذاب والهوان بسبب قولكم الباطل وكذبكم علـــى الله ، وادعائكم أنكم أنبياء يوحى إليكم ويترل عليكم قرآنـــا ﴿ وَكُنـــتُمْ عَـــنْ آيَاتِـــهِ تَسْتَكْبِرُونَ ﴾ أى : ولم يكن قولكم الزور والبهتان هو جريمتكم الوحيدة ، بـــل كنتم تستكبرون على الإيمان بالقرآن المترل على رسول الله وخـــاتم أنبيائـــه ﴿ ﷺ وآله﴾ ، وهذا هو الظلم المبين .

ولا نخلى هذا المقام من ذكر إشارته إلى الظلم ومراتبـــه ودرجاتـــه ، لأن الظلم درجات فوق درجات ، وطبقات تعلوها طبقات ، ففوق كل ظالم من هـــو أظلم منه ، وأسلوب الاستفهام الاستنكارى فى قول الله تعالى ﴿ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّـــنِ افْتَرَى عَلَى اللّهِ كَذِبًا ﴾ يفيد أن قمة الظلم هى الكذب على الله ، لأن الله تعالى لا نهاية له سبحانه ،ـــ فيكون الكذب عليه ظلما لا نهاية لبشاعته ، ولا يوجد من هو أظلم ممن اقترف جريمته . .

وفى الآية إشارة أخرى تشير إلى قضية التطرف الشديد ، سواء إلى نهايـــة اليسار أو إلى نهاية اليمين ، حيث إن النفوس البشرية ـــ رغم تعـــددها وكثرتهـــا

واختلاف أنواعها وتفاوت درجاتها ــ إما أن تكون ظلمانية يكدر صفوها الكبرياء والشرك والكفر ، مما يدفعها إلى البغى والكذب والزور ، فتدعى ما ليس لها بغية الفساد والإفساد ، وإما أن تكون نورانية تتحلى بالتواضع والإيمان والشكر ، فتشرق على مرآتها أنوار العلوم والأسرار ، وتنطق ألسنتها بالحكمة وحسن البيان دون أن تفعل بما تقول ، مما يجعل شياطين الجن والإنس يتوددون إلى أصحاب هذه النفوس ، ويتملقونهم بسوق المديح لهم جزافا ، صباحا ومساء على الصغيرة قبل الكبيرة ، حتى يصيبهم الغرور ، ويستولى عليهم الشيطان ، ويسول لهم أنهم فوق البشرية قدرا ، وأنهم مكلفون من قبل الله بإصلاح أحوال الناس قهرا ، فيكونوا وبالاً وشرا على أنفسهم وأهليهم بل والناس طرا ، نسأل الله تعالى أن يحفظنا من شرور أنفسنا وسيئات أعمالنا ، إنه نعم الحفيظ العليم .

قوله تعالى : وَلَقَدْ جِئْتُمُونَا فُرَادَى كَمَا خَلَقْنَاكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَتَرَكْتُم مَّا خَوَّلْنَاكُمْ وَرَاءَ ظُهُورِكُمْ وَمَا نَرَى مَعَكُمْ شُفَعَاءَكُمُ الَّذِينَ زَعَمْتُمْ أَنَّهُمْ فِيكُمْ شُرَكَاءُ لَقَد تَّقَطَّعَ بَيْنَكُمْ وَضَلَّ عَنكُم مَّا كُنتُمْ تَزْعُمُونَ(94)

واضح أن هذه الآية مرتبطة بالآية السابقة ؛ من حيث إن الله تعالى بعد أن وصف الظالمين من المتطرفين ــ الذين ظلموا أنفسهم وغيرهم بارتكابهم أعلى درجات الضرر والإضرار ــ بين حالهم الحسى عند الموتة الكبرى ، وكيفية قبض الملائكة لأرواحهم وإخراج أنفسهم ، ناسب أن يذكر فى هذه الآية حالهم بعد الموت . وما يقع لهم من التأنيب من المشركين والكافرين فقال تعالى : ﴿ وَلَقَدْ جِئْتُمُونَا فُرَادَى كَمَا خَلَقْنَاكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ ﴾ أى : ولقد تحقق رجوعكم إلينا وحضوركم لدينا واحدا واحدا منفردين مجردين من الأعوان والأهل والمال والأرباب ، وعدتم كما خلقناكم أول مرة ذرات من عناصر الأرض والتراب ﴿ وَتَرَكْتُم مَّا خَوَّلْنَاكُمْ وَرَاءَ ظُهُورِكُمْ ﴾ أى : وفارقتم كل ما ملكناكم من متاع

الدنيا ، وكل ما وهبناكم من وسائل السمع والبصر والإدراك وغيرها من معالم جسمانية ، وتركتم كل ذلك خلف ظهوركم ﴿ وَمَا نَرَى مَعَكُمْ شُفَعَاءكُمُ ﴾ أى : وليس معكم نصير ولا معين ولا شفيع من أربابكم ﴿ الَّذِينَ زَعَمْتُمْ أَنَّهُمْ فِيكُمْ شُرَكَاء ﴾ كذبا وزورا ، وادعيتم أنهم استحقوا منكم عبادتهم وأشركتموهم مع الله فى الألوهية ، فبئس ما صنعتم من جهولية .

﴿ لَقَد تَّقَطَّعَ بَيْنَكُمْ ﴾ أى : لقد تفرق جمعكم وتشتت شملكم ، وانقطع كل ما كان بينكم وبين أربابكم الذين كنتم بهم تشركون ﴿ وَضَلَّ عَنكُم مَّا كُنتُمْ تَزْعُمُونَ ﴾ أى : وغاب عنكم كل معبود لكم ، كما ذهب كذلك كل ما زعمتم على الله زورا وبهتانا ، فأدخلكم فى دائرة الضالين ، نعوذ بالله من موجبات غضب الله ، ونسأله الحفظ والسلامة من كل ضلالة .

ولا نخلى هذه الآية من ذكر إشارتها التى تبين لنا مدى وسعة الله فى خلقه ، والتى جعلت كل فرد من بنى الإنسان شخصا منفرداً فى ذاته وصفاته وشمائل أخلاقه ، بل وفى رسمه ولونه ، فلا تجد فى الوجود كله من أول آدم عليه السلام حتى آخر موجود فى هذه الحياة شخصا يماثل غيره تمام المماثلة ، سواء فى صورته الجسدية المادية ، أو صورته الروحية المعنوية ، وقد ظهر ذلك فى وضوح تام من حيث اختلاف بصمات كل بنان ، وتفاوت النفوس فى عقيدة الإيمان ، فمن يؤمن بالله تعالى نراه يكفر بما دونه من طاغوت ، ومن يؤمن بالطاغوت فقد يكفر بالله تعالى ، ولله فى خلقه شئون لا يعلمها إلا هو ، فهو الواسع فى قدرته ، الحكيم فى مراده وعلمه .

وتوجد إشارة أخرى ذوقية روحية فى قول الله تعالى : ﴿ كَمَا خَلَقْنَكُم أَوَّلَ مَرَّةٍ ﴾ تفيد أن خلق الإنسان فى البداية كان فى حقيقته فردا معنويا نورانياً ،

فى صورة لطائف روحية صافية تسمع كلام الله تعالى باسمه السميع ، وتبصر وجه الله تعالى باسمه البصير ، وتسبح فى عالم الملكوت باسمه النور ، وبهذا سمع الناس أجمعون كلام الله تعالى يوم أخذه ميثاق النبيين ، وتعرفوا على هؤلاء الذين سيبعثون إليهم أنبياء ومرسلين ، فى عالم الملك والتكوين من ذرات عناصر الطين ، فقهوا خطاب ربهم يوم أن خاطبهم ﴿ أَلستُ بِرَبَّكُم ﴾[1] فأقروا بربوبيته ، واعترفوا بألوهيته ، وسلموا لأنبيائه ورسله ، وقد أثبت القرآن ذلك فى قوله تعالى : ﴿ وَلَقَدْ خَلَقْنَاكُمْ ثُمَّ صَوَّرْنَاكُمْ ثُمَّ قُلْنَا لِلْمَلآئِكَةِ اسْجُدُواْ لآدَمَ ﴾[2] ولما كانت (ثم) فى لغة العرب تفيد التعقيب والترتيب للزمن البعيد ، كان معنى ما بيناه من أطوار الإنسانية أمرا واضحا وجليا ، وسنعود حتما إلى ما كنا عليه فى الطور الأول مصداقا لقول الله تعالى : ﴿ كَمَا بَدَأْنَا أَوَّلَ خَلْقٍ نُّعِيدُهُ وَعْدًا عَلَيْنَا إِنَّا كُنَّا فَاعِلِينَ﴾[3] .

قوله تعالى : إِنَّ اللّهَ فَالِقُ الْحَبِّ وَالنَّوَى يُخْرِجُ الْحَى مِنَ الْمَيِّتِ وَمُخْرِجُ الْمَيِّتِ مِنَ الْحَى ذَلِكُمُ اللّهُ فَأَنَّى تُؤْفَكُونَ(95) فَالِقُ الإِصْبَاحِ وَجَعَلَ اللَّيْلَ سَكَنًا وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ حُسْبَانًا ذَلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ(٩٦)

بعد أن بين الله لنا فى الآية السابقة حتمية عودتنا إليه فى صورة فردية لا ازدواج فيها كما كنا فى الخلق الأول ، ناسب أن يبين لنا فى هاتين الآيتين حتمية الازدواج فى الحياة الدنيا فقال سبحانه : ﴿ إِنَّ اللّهَ فَالِقُ الْحَبِّ وَالنَّوَى ﴾ أى : إن الله تعالى هو خالق جميع الحبوب بكل أنواعها مفلوقة فلقين ، فى مثنوية مزدوجة

١- سورة الأعراف آية ١٧٢ .

٢- سورة الأعراف آية ١١ .

٣- سورة الأنبياء آية ١٠٤ .

لكى يحافظ كل نبات على نوعه ، بواسطة الجنين الكامن بين فلقتى حبه ، ثم ذكر النوى لأنه بكل أنواعه خارج دائرة الحبوب وإن كان يشترك معها فى صفة الفلق ، وهذا أمر واضح محسوس ينبهنا الله إليه ، لكى نرى بأعيننا مدى قدرة الله تعالى فى إخراج سنابل الغلال من جنين الحبوب ، وإخراج النخل الباسق من جنين النواة الميتة .

﴿ يُخْرِجُ الْحَى مِنَ الْمَيِّتِ وَمُخْرِجُ الْمَيِّتِ مِنَ الْحَى ﴾ أى : يجعل الأشياء الحية تخرج من الأشياء الميتة ، كما يجعل الأشياء الميتة تخرج من الأشياء الحية ، وهذا واضح جلى لا يحتاج إلى ذكر أدلته ، خصوصا إذا اتفقنا على تعريف الحى بأنه الشىء الذى يتحرك بذاته ، وينمو بواسطة غذائه ، والميت هو الشىء الذى لا يتحرك ولا ينمو بذاته وغذائه ، وإنما يحتاج فى حركته ونموه إلى غيره .

﴿ ذَلِكُمُ اللّهُ فَأَنَّى تُؤْفَكُونَ ﴾ أى : ذلكم الله ربكم ورب آبائكم ، وقد أخرجكم من أصلابهم كما أخرج أبناءكم من أصلابكم ، وهو الذى يبدأ الخلق ثم يعيده ، ويوجد الحى من الميت ويوجد الميت من الحى ، وينشىء الوجود من معدوم غير موجود ، فكيف تكذبون بقدرته وتعرضون عن الإيمان بقوته ، رغم قيام تلك الأدلة التى تبرهن على فرديته وتثبت وحدانيته ؟ .

﴿ فَالِقُ الإِصْبَاحِ ﴾ أى : وهو أيضا ــ وليس غيره ــ الذى يشق شقا بين ظلام الليل ونور النهار ويخرج من بينهما ضوء الصباح ﴿ وَجَعَلَ اللَّيْلَ سَكَنًا ﴾ أى : وهو الذى أوجد ظلمة الليل وجعله وقتا للسكن تنام فيه الخلائق ، وتستريح من تعب الكد فى طلب الرزق .

﴿ وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ حُسْبَانًا ﴾ أى : وجعل الشمس والقمر يجريان فى منازل مقدرة بحساب لا خطأ فى نظامه ، ولا تغير فى أوقاته حسب فصول السنة ،

فلا تقديم ولا تأخير فى حركتها المقدرة المحسوبة بالأيام والشهور ، فلا الشمس ينبغى لها أن تدرك القمر ، ولا الليل سابق النهار ، وكل فى فلك يسبحون ﴿ ذَلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ ﴾ أى : وكل ما سبق ذكره من فلق الحب والنوى وغيره مثل فلق الصبح وإخراج نوره ، وتكوير الليل على النهار ، وتكوير النهار على الليل ، هو من فعل قدرة الله وحكمته وسابق علمه ومشيئته ، فليس كمثله شىء فى عزته ، وقد أحاط علمه بكل ما كان وما يكون ، وقد أبرز تلك الآثار لنشهد فيها تجليات أسمائه وصفاته ، ونستدل بها على غيب الغيب الذى يحجب عنا معرفة ذاته سبحانه وتعالى .

وكما هى عادتنا نرى أن نعقب على تفسير الآيتين بذكر ما تشيران غليه من وحدانية الواحد الأحد ، الفرد .

الصمد ، جلت قدرته وعلت حكمته ، فإنا على يقين من أنه لو اجتمع نفر من العلماء العاملين فى كل مجالات الحياة ، من أهل الإحسان المؤمنين بالله ، وتدارسوا بينهم مدلول كلمات : خلق ، وفلق ، وجعل ، وقدر ، وأخرج ، وأبرز ، وأوجد ، إلى آخر هذه المترادفات ، ويحاولون تطبيق ما يعلمونه من شئون معنوية على ما يَرَوُنه من أشياء مادية ، لظهر لهم حتمية المثنوية والزوجية فى كافة الخلق ، ورأوا بعيون رؤوسهم معنى قول الله تعالى ﴿ سُبْحَانَ الَّذِى خَلَقَ الأَزْوَاجَ كُلَّهَا مِمَّا تُنبِتُ الأَرْضُ وَمِنْ أَنفُسِهِمْ وَمِمَّا لاَ يَعْلَمُونَ ﴾[1] ولتحققوا بيقين صادق من وحدانية الله الحق ، وعرفوا به سبحانه معنى قوله تعالى : ﴿ قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ اللَّهُ الصَّمَدُ لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ وَلَمْ يَكُن لَّهُ كُفُوًا أَحَدٌ ﴾[2] ولو حاولوا تجربة الصواب

١- سورة يس آية ٣٦ .

٢- سورة الإخلاص .

من الخطأ فى إدراك سر المثنوية فى المخلوقات لتكشفت لهم علوم وأسرار تعجز كل ما وصل إليه علماء الغرب ، لأن سبب تأخرنا علميا راجع فى المقام الأول فى تفريقنا وسائل علم الدين ووسائل علوم الدنيا ، حتى جهلنا سر إخراج الحى من الميت وإخراج الميت من الحى ، وسر فلق الحب والنوى ، وسر المثنوية والتزاوج فى كل ما حوى الوجود وما عليه انطوى ، أسأل الله تعالى أن يهيىء الأسباب التى تدفع علماءنا إلى البحث فى كافة العلوم المادية من نباتية وحيوانية وظواهر طبيعية وبشرية ... إلخ إلخ ، حتى يعود لنا مجد أسلافنا حيث كانوا و لم يكن سواهم أحد ملء السمع والبصر .

قوله تعالى : وَهُوَ الَّذِى جَعَلَ لَكُمُ النُّجُومَ لِتَهْتَدُواْ بِهَا فِى ظُلُمَاتِ الْبَرِّ وَالْبَحْرِ قَدْ فَصَّلْنَا الآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ(97)وَهُوَ الَّذِى أَنشَأَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ فَمُسْتَقَرٌّ وَمُسْتَوْدَعٌ قَدْ فَصَّلْنَا الآيَاتِ لِقَوْمٍ يَفْقَهُونَ (٩٨)وَهُوَ الَّذِى أَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجْنَا بِهِ نَبَاتَ كُلِّ شَيْءٍ فَأَخْرَجْنَا مِنْهُ خَضِرًا نُّخْرِجُ مِنْهُ حَبًّا مُّتَرَاكِبًا وَمِنَ النَّخْلِ مِن طَلْعِهَا قِنْوَانٌ دَانِيَةٌ وَجَنَّاتٍ مِّنْ أَعْنَابٍ وَالزَّيْتُونَ وَالرُّمَّانَ مُشْتَبِهًا وَغَيْرَ مُتَشَابِهٍ انظُرُواْ إِلَى ثَمَرِهِ إِذَا أَثْمَرَ وَيَنْعِهِ إِنَّ فِى ذَلِكُمْ لآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ(99)

لما كان تفصيل المجمل سنة من سنن القرآن المترل ، شرع الله سبحانه يفصل لنا فى هذه الآيات الثلاث ما أجمله فى الآيتين السابقتين فقال تعالى : ﴿ وَهُوَ الَّذِى جَعَلَ لَكُمُ النُّجُومَ لِتَهْتَدُواْ بِهَا فِى ظُلُمَاتِ الْبَرِّ وَالْبَحْرِ ﴾ أى : انظروا أيها الناس إلى نجوم السماء وكواكبها التى جعلها الله فى مواقعها هداية لكم حال سفركم سواء كنتم فى صحراء البر سائرين ، أو فوق السفن فى البحار ماخرين ﴿ قَدْ فَصَّلْنَا الآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴾ أى : قد بينا ووضحنا وفسرنا وشرحنا تلك الآيات القرآنية ، التى تشير إلى هذه العلامات السماوية والكواكب العلوية ، لأهل

البحث والفهم لكل ما تسمع آذاهم ، والنظر باعتبار وإدراك لكل ما تراه أبصاركم ، فيعلمون حقائق ما يسمعون وما يبصرون بلطائف أفئدتهم .

﴿ وَهُوَ الَّذِى أَنشَأَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ ﴾ أى : وهو الله العليم القدير الذى أبدع خلقكم وإيجادكم على اختلاف أشكالكم وألوانكم من صورة واحدة ذات روح واحدة ، وجسم واحد ، وهو أبوكم آدم عليه السلام .

﴿ فَمُسْتَقَرٌّ وَمُسْتَوْدَعٌ ﴾ يمكن القول أن المستقر هو أصلاب الآباء وأرحام الأمهات ، وهما من عالم الخلق ، والمستودع هو اللطائف المعنوية للأنوار الروحية التى من عالم الأمر ، فعالم الخلق نور تلون ، وعالم الأمر نور فى صفائه الأول ، أى أن كليهما نور على نور ، وبناء عليه تكون الأرواح المعنوية بنورها الباطن طى شفافيتها هى المستودع ، وكذلك يمكن القول أن أيام الله تعالى وهى : يوم ميثاق الأنبياء[١] ، ويوم : ﴿ ألست بربكم ﴾[٢] ويوم الذر فى أصلاب الآباء ، ويوم البطون فى أرحام النساء ، ويوم الظهور فى صور البشر ، ويوم الوفاة ودخول القبر ، ويوم الاستقرار فى عالم البرزخ ، هذه الأيام السبعة هى المستقر ، والإنسان روحا وجسدا هو المستودع فيها إلى مستقره الأخير .

﴿ قَدْ فَصَّلْنَا الآيَاتِ ﴾ أى : بيناها بتفصيل بعد إجمال ، بحيث أصبحت ظاهرة ﴿ لِقَوْمٍ يَفْقَهُونَ ﴾ أى : ينصتون لما يسمعون ، ويفكرون فى كل ما يرون ، والفقه فى القلب نور من لدى الرب ، وليس فى صحف تتلى لذى حجب .

١- إشارة إلى قوله تعالى : ﴿ وإذ أخذ الله ميثاق النبيين ... ﴾ إلخ الآية ٨١ من سورة آل عمران .

٢- سورة الأعراف آية ١٧٢ .

﴿ وَهُوَ الَّذِى أَنزَلَ مِنَ السَّمَاء مَاء ﴾ أى : وهو الله رب السماء وما أظلت ، ورب الأرض وما أقلت ، ورب الرياح وما أذرت ، أنزل من سماء رفعته ماء فضله ورحمته حيث أنزله قطرات فى صورة نقط لا تؤذى من يتعرض لها من الناس أو الحيوان أو النبات .

﴿ فَأَخْرَجْنَا بِهِ نَبَاتَ كُلِّ شَيْءٍ ﴾ أى : فأظهرنا بالماء كل شىء وجعلناه أصل كل حى ﴿ فَأَخْرَجْنَا مِنْهُ خَضِرًا ﴾ أى : فأوجدنا من النبات المروى بالماء خضرة تتفاعل مع الضوء والحرارة والرطوبة فتظهر ألوانا كثيرة لا نهاية لتفاوتها ، مع أن اللون الأخضر فى ذاته ليس لونا أصيلا ، ولكنه لون مركب من الأصفر والأزرق ــ وهما اللونان الغالبان فى نور الشمس إذا انعكس على الطيف ، أو حلل بواسطة الماس المصقول ، أو الزجاج المشطوف ــ .

﴿ نُّخْرِجُ مِنْهُ حَبًّا مُّتَرَاكِبًا ﴾ أى : نخرج من تلك الأشجار الخضراء حبوبا مختلفة الألوان والأحجام والأشكال متراكبة فى داخلها ، وبين فلقتيها جنين يحمل وراثة أنواعها وألوانها وأجسامها ، وسبحان من جمع الشجرة بكل أوراقها وأعضائها وفروعها وسيقانها وجذوعها وجذورها فى جنين قد لا يرى بالعين المجردة . .

﴿ وَمِنَ النَّخْلِ مِن طَلْعِهَا قِنْوَانٌ دَانِيَةٌ ﴾ أى : ونخرج من النخل كل عام طلعا يطلع من قلبها له لون أبيض مائل إلى الصفرة ، يصير إلى قنوان دانية فى صورة عراجين مدلاة تحمل ثمرها ــ وهى المسماة عند المصريين بالبساط المتفرع إلى شماريخ تحمل البلح ــ سواء كان أحمر قانيا أو أصفر فاقعا لونه .

﴿ وَجَنَّاتٍ مِّنْ أَعْنَابٍ وَالزَّيْتُونَ وَالرُّمَّانَ ﴾ أى : ونخرج بالماء أيضا بساتين من أعناب وحدائق من كافة الفواكه ، وكذلك نخرج شجر الزيتون وشجر الرمان

وغيرها من أشجار ﴿ مُشْتَبِهًا وَغَيْرَ مُتَشَابِهٍ ﴾ أى : يشبه ما ذكرنا وغير متشابه به ، سواء فى شكل الشجر أو فى نوع الثمر ، أو يقاربه فى الطعم واللون والحجم ، أو يختلف عنه فى كل ذلك ﴿ انظُرُواْ إِلِى ثَمَرِهِ إِذَا أَثْمَرَ وَيَنْعِهِ ﴾ أى : ابحثوا فى كيفية إثماره إذا أثمر ، وابحثوا فى أسباب عدم إثماره إذا لم يثمر ، وابحثوا فى أسباب نضجه وعدم نضجه إذا حصل شيء من ذلك ﴿ إِنَّ فِى ذَلِكُمْ لآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴾ أى : لأن هذه هى رسالتكم فى الحياة الدنيا ، لكى تستدلوا بما ترون من آيات ، وتتكشف لكم من علوم وعلامات ، تعرفون بها قدرة الله وعلو حكمته ، فتنفعون أنفسكم ، وتعرفون ربكم ، وتعبدونه بإيمان العارفين لا بإيمان المقلدين .

وتوجد فى هذه الآيات الثلاث أسرار كثيرة وإشارات عديدة سبق لنا الحديث عن بعضها ، ولا نخلى هذا المكان من المزيد منها مستعينين بالله تعالى ، ونسأله سبحانه أن ينفعنا بها ويعم المسلمين فى كل مكان بخيراتها : ١ ــ الإشارة الأولى كامنة فى قوله تعالى : ﴿ جَعَلَ لَكُمُ النُّجُومَ لِتَهْتَدُواْ بِهَا فِى ظُلُمَاتِ الْبَرِّ وَالْبَحْرِ ﴾ فالمقصود بالظلمات هنا ظلمات الجهل بمنافع النجوم والكواكب السماوية ، وتأثيرها فى رمال البر وصخوره ومعادنه ونباتاته وكافة أحيائه ، وكل مياه البحر وفوائده العديدة التى لم تعرف منها سوى بعض عجائبه . لأنه لو كان المقصود بظلمات البر والبحر تلك الظلمات المعروفة لكل مخلوق على وجه الأرض لقال سبحانه : لتهتدوا بها فى ظلام الليل حال السفر والترحال وفى كافة الأحوال . ومن هذا المنطلق أدعو المسلمين فى مشارق الأرض ومغاربها ، أن يشمروا سواعد الجد فى البحث عن منافع النجوم وفوائدها ، عسى أن يزدادوا إيمانا على إيمانهم بعد المعرفة بمدى قدرة الله ربهم .

٢ ــ وهناك إشارة ذوقية ثانية منطوية طى ختام الآيات الثلاث ، فقوله تعالى : ﴿ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴾ فى ختام الآية الأولى ، وقوله سبحانه : ﴿ لِقَوْمٍ

يَفْقَهُونَ﴾ فى ختام الثانية ، وقوله جل شأنه : ﴿ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴾ فى ختام الآية الأخيرة ، يفيد الترتيب أن البحث العلمى مقدم على الفقه ، والبحث فى العلم وفهمه مقدمان على الإيمان ، بمعنى أن المسلم إذا لم يكن عالما متفقها فى كل ما يحيط به كان إيمانه ناقصا وغير كامل ، بدليل قول العليم الخبير سبحانه : ﴿ قَالَتِ الأَعْرَابُ آمَنَّا قُل لَّمْ تُؤْمِنُوا وَلَكِن قُولُوا أَسْلَمْنَا وَلَمَّا يَدْخُلِ الأَيمَانُ فِى قُلُوبِكُمْ ﴾[1] وهذا يبين لنا السبب فى أن تمسك اليهود والنصارى بتعاليم دينهم يؤخرهم ويهزمهم ، وتركهم له فيه تقدم وانتصار لهم ، وذلك عكس المسلمين الذين تمسكوا بتعاليم الإسلام تقدموا وانتصروا ، وتركهم له وراء ظهورهم فيه تأخر لهم وهزيمة ما بعدها هزيمة ، نسأل الله تعالى أن يعيد إلى الإسلام رجالا علماء عاملين ، يفقهون العلم وبه يعملون ، ويؤمنون بالله تعالى إيمان الصادقين المخلصين .

٣ ــ وإشارة ثالثة ترمز إلى سر أحدية الله وغيب ذاته العلية ، مع تجليات أسمائه الإلهية وصفاته الربانية ، تنطوى طى قوله سبحانه : ﴿ وَهُوَ الَّذِى أَنشَأَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ ﴾ فقد خلق الله جميع البشر ــ على كثرتهم العظمى فى العدد والمدد ــ من شخص واحد فقط هو آدم أبو البشر ، ورغم أن ذريته تملأ الأرض ولا تزال تزداد إلى ما شاء الله تعالى ، فآدم هو آدم لم ولن يضيع شىء من ذرات جسمه ، ولا نقصت لطيفة من لطائف نفسه ، ولم تتجزأ طاقات روحه ، وإنما تغير من حال إلى حال ، وسيعود يوم القيامة إلى ما كان عليه فى حياته صورة آدمية بشرية لا ينقص من ماديتها شىء ، ولا يغيب من شئونها أمر ، وهذه آية من آيات الله تعالى تتكرر فى أبناء آدم كل يوم ونحن عنها غافلون ، وقد ضرب الله لنا بذلك المثل على وحدانيته ــ وله سبحانه المثل الأعلى ــ فرغم تعدد أسمائه وصفاته

١- سورة الحجرات آية ١٤ .

وتجليات الكثير منها فى خلقه إلا أنه جل شأنه فى ذاته واحد أحد فرد صمد ، لم يتغير ، وإنما يغير فى خلقه ويبدل ، وليس كمثله شيء ، وقد لفت الله تعالى أنظارنا إلى تجدد هذا المثل فى كل زمان ومكان بيننا بقوله جل شأنه : ﴿ ضَرَبَ لَكُم مَّثَلاً مِّن أَنفُسِكُم ﴾[1] .

٤ ـ وهناك إشارة رابعة تثير فينا حب البحث والاستطلاع ، فنستعمل العقول فى اكتشاف كل مجهول ، ونعلم سر التلوين وكيفيته ، وسر الماء وخاصيته ، وسر التكوين وبدايته ، وأنواع الحبوب وتراكيبها ، وتعدد الأشجار وتغير ثمارها الطعوم وتطور روائحها ، وبذلك نزداد إيمانا فى كل يوم بقدرة الله الواحد الأحد الحى القيوم ، ونتحقق من عجزنا عن شكر ربنا ، فنستعين به على ذكره وشكره وحسن عبادته سبحانه وتعالى .

قوله تعالى : وَجَعَلُواْ لِلّهِ شُرَكَاء الْجِنَّ وَخَلَقَهُمْ وَخَرَقُواْ لَهُ بَنِينَ وَبَنَاتٍ بِغَيْرِ عِلْمٍ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يَصِفُونَ(١٠٠)بَدِيعُ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ أَنَّى يَكُونُ لَهُ وَلَدٌ وَلَمْ تَكُن لَّهُ صَاحِبَةٌ وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ وهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ١٠١ ذَلِكُمُ اللّهُ رَبُّكُمْ لا إِلَهَ إِلاَّ هُوَ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ فَاعْبُدُوهُ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ(١٠٢)

بعد أن بين الله فى الآيات الثلاث السابقة دلائل قدرته فى خلق الناس وخلق ما يمدهم به من قوت ، وحثهم على تقليب النظر فيما يرون ، مع التفكير والبحث فى حبوب النبات ، وطلع النخيل ، وثمر الأشجار ، شرع سبحانه يبين لنا فى هذه الآيات الثلاث بطلان شرك المشركين ، وغفلة الكافرين ، وعقم تفكير الجاحدين ، فقال جل جلاله : ﴿ وَجَعَلُواْ لِلّهِ شُرَكَاءَ الْجِنَّ ﴾ وكفى هذا القول ما

١- سورة الروم آية ٢٨ .

استتر فيه من توبيخ وتأنيب لهؤلاء المشركين ، الذين أشركوا مع الله بعض خلقه ، رغم وضوح كل تلك البينات الدالة على وحدانيته سبحانه ، فقد تـوهم هـؤلاء الغافلون أن للجن قدرة على النفع والضر ، فعبدوهم بعد أن جسموهم فى صورة أصنام من عمل أيديهم ، فإن تعجب فعجب من عقلية هـؤلاء القـوم الـذين لم يدركوا أن الله تعالى هو الذى أوجدهم ﴿ وَخَلَقَهُمْ ﴾ وما يعبدون ، وأنهم جميعا عباد مربوبون لا حول لهم ولا قوة ، وأنهم جميعا إليه راجعون .

﴿ وَخَرَقُواْ لَهُ بَنِينَ وَبَنَاتٍ بِغَيْرِ عِلْمٍ ﴾ أى : واختلفوا على الله كذبا أن له بنين وبنات ، جهلا منهم وظلما ﴿ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يَصِفُونَ ﴾ بمعـنى تـنزه وتقدس الله وجل شأنه عما تقول به النصارى من أن عيسى ابن الله ، بعد أن فتنوا بمعجزة مولده ، وما تفضل الله عليه من معجزات تؤيده فى دعوته من أنه عبـد الله ورسوله ، وما تقول به اليهود من أن العزيز ابن الله ، وقد غرهم فى ادعائهم هـذا ما تفضل الله عليه بمعجزة إقامة الدليل على البعث بعد الممات ﴿ فَأَمَاتَهُ آللَّهُ مِاْئَـةَ عَامٍ ثُمَّ بَعَثَهُ ﴾[1] وكذلك تنزه الله وتعالى عمـا يقـول بـه المشـركون بـالله ﴿ وَيَجعَلُونَ لِلَّهِ آلبَنَاتِ سُبحَانَهُ وَلَهُم مَّا يَشتَهُونَ ﴾[2] حيث يـدعون بـأن الله اصطفى الإناث وخصهم بالذكور ، فبئس دعواهم وما يقولون .

﴿ بَدِيعُ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ ﴾ أى أن الله تعالى هو خالق السموات وكل ما أظلته ، وخالق الأرض وكل ما أقلته ، وخالق كل ما فيهما وما بينهما فى إبداع ، تنزه عن العوج والنقص والتفاوت ﴿ أَنَّى يَكُونُ لَهُ وَلَدٌ وَلَمْ تَكُن لَّهُ صَـاحِبَةٌ ﴾ أى : كيف يتصور عقل أن يكون له ولد وهو سبحانه واحد أحد لـيس كمثلـه

١- سورة البقرة آية ٢٥٩ .

٢- سورة النحل آية ٥٧ .

شيء ، إذ تلك الولادة لا تصح إلا ممن كانت صاحبة وشهوة وينفصل عنه جـــزء يحتبس فى باطن تلك الصاحبة ، وهذا يثبت فى حق الجسم الذى يصح عليه الحركة والسكون والشهوة واللذة ، وهذا على خالق العالم محال ، وهذا هو المراد من قوله تعالى : ﴿ أَنَّى يَكُونُ لَهُ وَلَدٌ وَلَمْ تَكُن لَّهُ صَاحِبَةٌ ﴾ ﴿ وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ ﴾ بقدرته ومشيئته وعلو حكمته ﴿ وهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴾ أى : أحاط بكافـــة الأشـــياء صغيرها وكبيرها ، ظاهرها وباطنها ، أولها وآخرها ، فى ســـابق علمـــه الأزلى ، وبالتالى لا يجوز أن يكون له زوجة وأولاد .

﴿ ذَلِكُمُ اللّهُ رَبُّكُمْ ﴾ أى : ذلك هو الله الذى أوجـــدكم ، وبمقومـــات الحياة أمدكم ، وفى الأرحام صوركم ، وهو ربكم الذى سواكم وشد أزركم على هذا النظام العجيب والرسم الغريب ﴿ لا إِلَهَ إِلاَّ هُوَ ﴾ أى : لا إله غيره ولا رب سواه ، ولا مساعد له فى كل ما أبدعه على غير مثال سبق ، ولا شبيه ولا نظـــير ﴿ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ ﴾ فى هذا الوجود ، بيده الملك والملكوت ﴿ فَاعْبُدُوهُ ﴾ عبادة من يخشاه ، ويعلم أن لا معبود سواه ، فله الحمد والشكر ، والتسبيح والتقـــديس والخضوع لذاته فى ذل وركوع وسجود .

﴿ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ ﴾ أى : وهو الإله المشرف على كل شيء ، الحفيظ لكل شيء ، الوكيل المهيمن على كافة المخلوقات ، حى قيوم لا يفوت ولا يموت ، موجود دائم لا يغيب سبحانه وتعالى ، وتنزهت ذاته ، وتقدست أسمـــاؤه وصفاته .

وكما تعودنا نذكر فى ختام تأويل هذه الآيات بعض ما توحى بـــه مـــن إشارات :

١ ــ الإشارة الأولى تبين أن العقل الإنسانى ــ الذى هو أفضل وأعلى مخلوق فى هذا الوجود ــ إذا فقد نور بصيرته وضوء فكره واتبع شهوات نفسه ، ضل فى ظلمات جهله ، وانقلبت الحقائق أمام ملكاته ، فيتوهم العدم وجودا والوجود عدما ، ويتخيل الحق باطلا والباطل حقا ، فيحكم على المخلوق المقهور أنه خلاق قهار ، وعلى الوثن المصنوع بيده ــ أو بيد إنسان مثله ــ أنه رب قادر فعال ، وهذا ما أخبرنا الله به فى كتبه وعلى لسان رسله ، وتواتر إلينا فى أقوال الآباء عن الأجداد ، وقرأناه فى كتب المؤرخين ، ورأيناه فى آثار السابقين .

ولا نزال فى عصرنا هذا نرى أمثال هؤلاء المجانين الذين يقدسون البقر فى كثير من بلاد الهند ، وآخرين يقدسون ملوكهم من أهل دول آسيا الأخرى مثل اليابان وغيرها .

كما نرى الكثيرين من سكان روسيا وأهل أوروبا ينكرون وجود الإله الخالق لهذا الوجود ، ويعتقدون أنه وجد بطبيعته ، وبواسطة تفاعلات أيوناته مع عناصره وغازاته ، وتأثيرها بجاذبية الكواكب ونور الشمس وإشعاعاته ، وحكم قوانينها الطبيعية التى أتقنت كل شيء ، فالطبيعة هى التى أخرجت ، والطبيعة هى التى سوت ، والطبيعة هو التى لونت ، والطبيعة هى التى كونت ... إلخ ، فإذا سألهم سائل عمن أوجد كل هذا ووضع لها قوانينها التى تسير على مقتضاها ؟ قالوا : الطبيعة .

قلنا ردا عليهم : إننا متفقون على أن هناك قوة قاهرة فعالة عن إرادة وعلم ، ولها مشيئة عن قدرة وحكمة ، أرسلت إلينا الرسل فصدقناهم وآمنا بأنهم من عند الله ربنا ، وأنتم كذبتم بالرسل وقلتم بأنها الطبيعة ، فإذا سألناهم عن ماهية الطبيعة وكنهها ، قالوا : لا ندرى عن حقيقتها شيئا ، قلنا لهم : إن الإنسان ــ فى

زعمكم ـــ قد خلقته الطبيعة فى أعلى صور تطورها ، والإنسان حـــتى الآن قهـــر الطبيعة وتحكم فيها ولا يزال فى تطوره العلمى يكتشف وسائل قهرها أكثر وأكثر ، فكيف يتحكم المخلوق فى خالقه وله يقهر ؟ هنا يصيبهم البكم وعى اللســـان ، ويعجزون عن الحجة والبيان ، وصدق الله ربنا إذ يقول فى آيات القرآن : ﴿ وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيرًا مِّنَ الْجِنِّ وَالإِنسِ لَهُمْ قُلُوبٌ لاَّ يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُـــمْ أَعْـــيُنٌ لاَّ يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ آذَانٌ لاَّ يَسْمَعُونَ بِهَا أُوْلَئِكَ كَالأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ أُوْلَئِكَ هُـــمُ الْغَافِلُونَ ﴾[1].

٢ ـــ وهناك إشارة أخرى تحذر أهل الإيمان بالله تعالى من الوقوع فى الغفلة والحجاب ، فيجرهم هذا إلى الشرك الخفى والأخفى ، حيث تحدث المؤمن نفســـه بأن فلانا يضر وينفع ، وعلانا يعز ويذل ، وآخر يخفض ويرفع ، فقد ينساق وراء حديث نفسه ـــ خصوصا إذا تكرر ـــ حتى يقع فى الظلـــم والبـــأس والضـــرر ، ويدخل ـــ رغم إيمانه ـــ فى زمرة من قال الله فيهم : ﴿ وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُمْ بِاللّهِ إِلاَّ وَهُم مُّشْرِكُونَ ﴾[2] ولا حول ولا قوة إلا بالله العلى العظيم .

٣ ـــ وإشارة ثالثة تومى إلى قضية الإبداع الذى أدهش العلماء ، وأعجز عن الاقتراب منه فطاحل الشعراء ، وأخرس عن وصفه أهل البلاغة من الفصحاء ، وكيف لا ؟ وهو من إشراق نور البديع الذى أبدع العوالم وأتقنها علـــى أحســـن نظام ن حيث يكاد المؤمن الذى بلغ مقام الإحسان أن يرى إلهاً ظاهرا ولا شـــىء معه ، محيطا بكل ما حوله ومهيمنا عليه ، ودون أن يكون ظرفا له وليس مظروفاً به ، فتنادى بدائع السموات بأفصح لسان ـــ وهو لسان الحال ـــ قائلـــة إن إلهـــا

١- سورة الأعراف آية ١٧٩ .

٢- سورة يوسف آية ١٠٦ .

قادرا حكيما قد أبدعها ، وكذلك بدائع الأرض تقول ــ بنفس اللسان ــ إن هناك إلهاً قاهرا عليما قد أبدعها ، وهذا ما يشير إليه قوله تعالى : ﴿ وَهُوَ الَّذِى فِى السَّمَاءِ إِلَهٌ وَفِى الأَرْضِ إِلَهٌ وَهُوَ الْحَكِيمُ الْعَلِيمُ ﴾[1] لولا نزاهته وقداسته وسبحانيته وعلوه عن مثلية الأشياء لرأيناه بعيون رؤوسنا ، ولكنه سبحانه ليس كمثله شيء ، وليس له نظير ولا شبيه ولا مثيل ، ولا ند به ولا ولد ، وذاته غيب فى غيب الغيب ، لا يعلمه إلا هو ، وتجليات أسمائه وصفاته فوق المدارك والعقول ، وهنا نمسك القلم عن الخوض فيما لا نعلم من ذلك المجهول .

قوله تعالى : لاَّ تُدْرِكُهُ الأَبْصَارُ وَهُوَ يُدْرِكُ الأَبْصَارَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ (١٠٣)

بعد أن أخبرنا الله تعالى فى الآيتين السابقتين ، أنه سبحانه خلق كل شيء وهو بكل شيء عليم ، وأنه هو خالق كل شيء وهو على كل شيء وكيل ، ناسب أن يخبرنا فى هذه الآية بحقيقة الحقائق التى لا يأتيها الباطل من بين يديها ولا من خلفها ــ بل ولا من أى جهة من الجهات ــ فقال سبحانه وتعالى : ﴿ لاَّ تُدْرِكُهُ الأَبْصَارُ وَهُوَ يُدْرِكُ الأَبْصَارَ ﴾ لأن الإدراك معناه اللحاق ، فأدرك الشيء ببصره أى : رآه ، لما كانت وسائل الرؤية أشياء ، والله تعالى ليس كمثله شيء ، فمن الطبيعى أن لا تدركه الأشياء وهو يدركها ، لأنه خلقها وهو بها عليم علم إحاطة تامة كاملة ، كما أنه خالقها وهو عليها وكيل وكالة دائمة لا تغيب عنها أبدا .

١- سورة الزخرف آية ٨٤ .

﴿ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ ﴾ أى : وهو البار بالأشياء ، العليم بما فيه صلاحها وما فيه فسادها ، والوكيل عليها وكالة تنفعها ولا تضرها ، والحفيظ على الأشياء حفظا قد لا تحس به الأشياء بذاتها ، فسبحانه ، تنزهت ذاته ، وتقدست أسماؤه وصفاته ، وجل شأنه ، وعلا قدره ، وقد عجزت الخلائق عن حمده وشكره والثناء عليه بما هو أهل له .

ولا يفوتنا فى ختام تأويل هذه الآية أن نبين الفرق بين الإدراك والرؤية [1] ، فالرؤية جائزة والإدراك مستحيل ، لأن الإدراك معناه الإحاطة ، أما الرؤية بمعنى النظر فقد يمنح الله من يشاء من عباده نورا فى فؤاده يرى به وجه الله حيث ما وقعت عيناه ، مصداقا لقوله تعالى : ﴿ وَلِلّهِ الْمَشْرِقُ وَالْمَغْرِبُ فَأَيْنَمَا تُوَلُّواْ فَثَمَّ وَجْهُ اللّهِ إِنَّ اللّهَ وَاسِعٌ عَلِيمٌ ﴾ [2] أسال الله تعالى أن يمنحنى وإخواتى نورا من لدنه به نراه ، وأن يجعلنا فى الآخرة من الذين قال فيهم سبحانه : ﴿ وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاضِرَةٌ إِلَى رَبِّهَا نَاظِرَةٌ ﴾ [3] إنه مجيب الدعاء .

قوله تعالى : قَدْ جَاءكُم بَصَآئِرُ مِن رَّبِّكُمْ فَمَنْ أَبْصَرَ فَلِنَفْسِهِ وَمَنْ عَمِيَ فَعَلَيْهَا وَمَا أَنَاْ عَلَيْكُم بِحَفِيظٍ(١٠٤)

بعد أن بين الله فى الآية السابقة أنه لطيف لا تدركه الأبصار بحاسة البصر التى هى العين ، أمر سبحانه رسوله ﴿ ﷺ وآله﴾ أن يخبر عباده بقوله تعالى : ﴿

١- راجع كتاب : ((تفصيل النشأة الثانية)) ص ٧٣ : ٧٨ يطلب من ((دار الكتاب الصوفى)) لنشر تراث الإمام المجدد السيد محمد ماضى أبى العزائم عليه السلام ـــ ١١٤ ش مجلس الشعب ـــ القاهرة .

٢- سورة البقرة آية ١١٥ .

٣- سورة القيامة آية ٢٢ ـــ ٢٣ .

قَدْ جَاءكُم بَصَآئِرُ مِن رَّبِّكُمْ ﴾ أى : قد جاءكم من ربكم آيات مبصرة ، فيها علوم ومعارف تدرك بالعقول وتبصر بالأفئدة ﴿ فَمَنْ أَبْصَرَ فَلِنَفْسِهِ ﴾ أى : فمن تدبر الآيات ، وتفكر فى المرئيات حتى يرى حقائقها بعيون فؤاده ، ويؤمن بما فيها من أدلة وبراهين ، ثم يعمل بمقتضى ما علم وفهم فجزاء ذلك لنفسه وليس لغيره ﴿ وَمَنْ عَمِىَ فَعَلَيْهَا ﴾ أى : ومن سها بصره عن شهود ما حوله من آيات ، غفل فكره عن تأمل ما تومى غليه من إشارات ، فهو أعمى البصر والبصيرة معا ، وعاقبة هذا العماء وذالك التعامى على نفسه لا على غيره ، أسأل الله تعالى أن يحفظنى وإياكم من السهو والنسيان والغفلة والنكران .

﴿ وَمَا أَنَاْ عَلَيْكُم بِحَفِيظٍ ﴾ هذه الآية من قول رسول الله ﴿ ﷺ وآله﴾ بأمر من الله تعالى ، ومعناها : قل ـــ يا محمد ـــ لمن عميت أبصارهم وبصائرهم فأعرضوا عنك وعن دعوتك : إنى لست رقيبا عليكم ، ولا قاهرا لكم ، إنما أنا نذير لكل من أعرض وكفر ، وبشير لكل من آمن وشكر .

ومن إشارات هذه الآية رمزيتها إلى عيون الرأس الظاهرة بكلمة : الأَبصَارُ ، ورمزيتها على عيون الفؤاد الباطنة بكلمة آلبَصَائِر ومصدر الكلمتين واحد ، وكذلك رمزت إلى فقد البصر والبصيرة بكلمة : العَمَى فالأعمى هو من ذهب نور بصره فلا يرى شيئا ، والعَمِىُّ هو من فقد نور فؤاده فلا يعلم شأنا ، ولهذا يقال للجاهل كثير الضلال والإضلال : ما أعماه ، ولا يقال ذلك فى عمى عيون الحواس ، لأن ما لا يتزيد لا يتعجب منه ، ومن هنا يسهل علينا فهم معنى الآية القرآنية الكريمة : ﴿ قُلْ هَذِهِ سَبِيلِى أَدْعُو إِلَى اللّهِ عَلَى بَصِيرَةٍ أَنَاْ وَمَنِ اتَّبَعَنِى

وَسُبْحَانَ اللّهِ وَمَا أَنَاْ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴾[1] نسأل الله تعالى أن يجعلنا جميعا من خلص أتباعه ﴿ ﷺ وآله﴾ الهادين المهديين ، ويحفظنا بفضله من الشرك والمشركين .

قوله تعالى : وَكَذَلِكَ نُصَرِّفُ الآيَاتِ وَلِيَقُولُواْ دَرَسْتَ وَلِنُبَيِّنَهُ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ (١٠٥)

لما كانت كلمة : وَكَذلِكَ ، فى أول أى كلام تعنى ارتباطه بما قبله ، يكون معنى قوله تعالى : ﴿ وَكَذَلِكَ نُصَرِّفُ الآيَاتِ ﴾ أى : كما سبق أن قدمنا من الحجج والبراهين التى تدل على أحدية الخالق وقوته ، ومثنوية المخلوق وضعفه ، كذلك نأتى بالمزيد من الآيات المختارة ، التى تدل فى وضوح لا يشوبه غموض على أنك يا محمد رسول من عندنا ، وأنك على الحق البين ، وإن كره المشركون والمكذبون المبطلون .

﴿ وَلِيَقُولُواْ دَرَسْتَ ﴾ أى : وليقول أهل الكتاب من المتعصبين ، الذين كذبوك أنكروا رسالتك ، كما يقول أهل الكفر من المشركين الذين حاربوك وهموا بقتلك ، إنك درست علوم الأولين وتلقيته من أفواه أتباعهم اللاحقين ، ثم جئتهم بهذا القرآن المبين ﴿ وَلِنُبَيِّنَهُ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴾ أى : ولنبين خطأ من قالوا إنك درسته أو تلقيته عن قوم آخرين ، وحجتنا واضحة وبرهاننا مبين ، حيث إنك مكثت فيهم من قبله من عمرك سنين ، وقومك كلهم يعلمون أنك أمى قد نشأت فى قوم أميين ، وقد تلقيت هذا القرآن العظيم من لدن حكيم عليم ، بدليل تحديك للناس أجمعين أن يأتوا بمثل أقصر سورة من سوره أو يحاكوا آياته ، ولن يزال هذا التحدى قائما إلى يوم الدين .

١- سورة يوسف آية ١٠٨

قوله تعالى : اتَّبِعْ مَا أُوحِيَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ لا إِلَهَ إِلاَّ هُوَ وَأَعْرِضْ عَنِ الْمُشْرِكِينَ(١٠٦) وَلَوْ شَاءَ اللّهُ مَا أَشْرَكُواْ وَمَا جَعَلْنَاكَ عَلَيْهِمْ حَفِيظًا وَمَا أَنتَ عَلَيْهِم بِوَكِيلٍ(١٠٧)

وارتباط هاتين الآيتين بالآيات قبلهما واضح لا يحتاج إلى دليل ، لأن قول الله لرسوله وخاتم أنبيائه ﴿ ﷺ وآله﴾: ﴿ اتَّبِعْ مَا أُوحِيَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ ﴾ فيه معنى رضاء الله تعالى عما قام به رسوله ﴿ ﷺ وآله﴾ من صبر جميل وحلم

كريم على دوام تحديهم ، وكثرة جدالهم له بالباطل ، فأمره سبحانه بترك تحديهم السخيف وجدالهم الضعيف ، وأتباع ما أوحى إليه من ربه الذى ﴿ لا إِلَهَ إِلاَّ هُوَ ﴾ رغم قلة عقل كافة المشركين ، وشدة تعصب جميع الكافرين ، وخسة ودناءة كل الجاحدين بواحدانية الله رب العالمين .

﴿ وَأَعْرِضْ عَنِ الْمُشْرِكِينَ ﴾ أى : واجتنبهم بعد أن بلغتهم فكذبوك ، وأنذرهم فآذوك ، فهم نجس قلبا وقالبا وعقولهم من خبال ونفوسهم من وبال ، لا يقبلون من أحد هداية ، ويرضون سبيل الغواية ، فهم فى غيهم سادرون ، وعلى شركهم مصرون ﴿ وَلَوْ شَاءَ اللّهُ مَا أَشْرَكُواْ ﴾ أى : ولو أراد الله هدايتهم للإيمان به وتوحيده ، لبدل نجاستهم طهرا ، وظلمة نفوسهم نورا ، فما ضلوا عن الطريق المستقيم ، وما أشركوا بالله العلى العظيم ، ولكن الله يحب المطهرين ، ولا يحب الظالمين ، ويميز الطيبين المصلحين من الخبيثين المفسدين ﴿ أَلاَ يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ ﴾[١] .

١- سورة الملك آية ١٤ .

﴿ وَمَا جَعَلْنَاكَ عَلَيْهِمْ حَفِيظًا ﴾ أى : واعلم يا محمد أننا لم نجعلك قيما عليهم فتحفظهم من الشرك والخسران ، ولم نملكك رقابهم فترغمهم على الإيمان ، وإنما أرسلناك إليهم برسالة من ربهم ، لتنذرهم وتقيم الحجة عليهم ﴿ وَمَا أَنتَ عَلَيْهِم بِوَكِيلٍ ﴾ أى : ليس عليك هداهم ، لأنك لست عليهم بولى ولا وكيل ، وإنما أنت بشير ونذير ، أسأل الله تعالى دوام الرضا وحسن العاقبة فى الدنيا والآخرة

قوله تعالى : وَلاَ تَسُبُّواْ الَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِ اللّهِ فَيَسُبُّواْ اللّهَ عَدْوًا بِغَيْرِ عِلْمٍ كَذَلِكَ زَيَّنَّا لِكُلِّ أُمَّةٍ عَمَلَهُمْ ثُمَّ إِلَى رَبِّهِم مَّرْجِعُهُمْ فَيُنَبِّئُهُم بِمَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ (١٠٨)

سبب نزول هذه الآية الكريمة كما رواه عبد الرازق عن معمر عن قتادة أنه قال : كان المسلمون يسبون أوثان الكفار وأصنامهم ـــ التى يصنعونها بأيديهم ثم يعبدونها من دون الله تعالى ـــ فيقوم الكفار بالرد عليهم ويسبون الله ـــ جهلا منهم بقدرة سبحانه ـــ فأنزل الله قوله تعالى : ﴿ وَلاَ تَسُبُّواْ الَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِ اللّهِ ﴾ أى : ولا تسبوا ـــ أيها المسلمون ـــ أصنام الكفار التى يقدسونها ويعبدونها ﴿ فَيَسُبُّواْ اللّهَ عَدْوًا بِغَيْرِ عِلْمٍ ﴾ أى : عدوانا وظلما وجهلا ﴿ كَذَلِكَ زَيَّنَّا لِكُلِّ أُمَّةٍ عَمَلَهُمْ ﴾ أى : أن من سنتنا أن نزين لكل أمة ما يعملونه وفق ما يعتقدون صوابه ، بعد أن بينا لهم الحق من الباطل على ألسنة رسلنا والصالحين من عبادنا ، وجعلنا الصواب من الخطأ والحلال من الحرام والنافع من الضار أوضح وأظهر من أن يخفى عن إدراك أقل الدواب عقلا ﴿ ثُمَّ إِلَى رَبِّهِم مَّرْجِعُهُمْ فَيُنَبِّئُهُم بِمَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ ﴾ فى حياتهم الدنيوية ، ويحاسبهم على إشراكهم بالله تعالى أصناما يصنعونها بأيديهم ، ويعاقب الذين اتخذوا من خلقه آلهة لهم يعدلون بها ربهم وخالقهم ، وسيجدون يوم القيامة كل عمل عملوه ، وكل قول قالوه ، وكل سبيل سلكوه ، بل وكل أخطائهم وأوزارهم حاضرة تشهد على كفرهم بربهم

وجحدهم نعمة عليهم ، فيقرون على أنفسهم يوم القيامة أهم كـــانوا كـــافرين ، ويندمون أشد الندم ، فى يوم لا ينفعه فيه ندم .

وفى هذه الآية بعض الإشارات الذوقية ، التى تبين الأخـــلاق المحمديـــة ، وتعلم الناس الآداب الإسلامية ، فقد نهى الله عباده المؤمنين به وبرســـله وكتبـــه وملائكته عن السب ـــ حتى ولو كان لشىء يستحقه ـــ لأن السب صفة مذمومة يبغضها الله تعالى ، كما أن فى هذا النهى رفعة لقدر المؤمنين بالله وطهارة قلـــوبهم من أن تشغل بالدفاع عن الله سبحانه ، وهو القوى القادر الذى لا يحتاج لمن يدافع عنه ، لأنه جل شأنه لا يضره كفر الكافرين ، وشرك المشركين ، وجحد الجاحدين ، ولو أجمع عليه كل الناس أجمعين ، وكذلك لا تنفعه فى شىء طاعة الطـــائعين ، وذكر الذاكرين ، وتسبيح المسبحين ، حتى ولو كانت من كافة المخلوقين ، وإنمـــا هى لشغل أنفاس المؤمن بالله فى الحياة الدنيا بما ينجيه من عذاب الله فى الآخـــرة ، يوم لا ينفع الإنسان مال ولا بنون إلا من أتى الله بقلب سليم ، سليم من الشـــرك بكل درجاته ، عامر بخلق الإسلام وآدابه ، أسأل الله أن يجملنى وإخوانى المـــؤمنين بآداب وخلق النبيين والمرسلين ، إنه قريب مجيب الدعاء .

وكذلك انطوت الآية على إشارة تبين للدارسين سر تزيين الله تعالى لكـــل أمة ما يعملون ، سواء كان عملهم خيرا وإيمانا ورشادا ، أم شرا وكفرا وفســـادا ،وذلك لكى تتجلى أسماء الله وصفاته فى كل آياته وجميع مخلوقاته ، فأبرز الأرض أول ما أبرز فى يومين ﴿ وَجَعَلَ فِيهَا رَوَاسِيَ مِن فَوْقِهَا وَبَارَكَ فِيهَا وَقَـــدَّرَ فِيهَـــا أَقْوَاتَهَا فِي أَرْبَعَةِ أَيَّامٍ سَوَاء لِّلسَّائِلِينَ ثُمَّ اسْتَوَى إِلَى السَّمَاء وَهِيَ دُخَانٌ فَقَالَ لَهَـــا وَلِلْأَرْضِ اِئْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا قَالَتَا أَتَيْنَا طَائِعِينَ ﴾[1] أى : بلا خوف ولا عصـــيان ﴿ وَلِلّهِ يَسْجُدُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ مِن دَآبَّةٍ وَالْمَلآئِكَـــةُ وَهُـــمْ لاَ

١- سورة فصلت آية ١٠ ـــ ١١ .

يَسْتَكْبِرُونَ يَخَافُونَ رَبَّهُم مِّن فَوْقِهِمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ ﴾[1] بمعنى أن الله تعالى جعل كل دواب الأرض راكعة خاضعة لا تملك علوا ولا استكبارا ، وجعل الملائكة يفعلون ما يؤمرون خوفا من رهم من فوقهم ولا يملكون عصيانا ، ولذلك أوجد خلقا آخر من الجن عصاة كافرين هم الشياطين ، سر قوله تعالى على لسان الخليل إبراهيم : ﴿ يَا أَبَتِ لاَ تَعْبُدِ الشَّيْطَانَ إِنَّ الشَّيْطَانَ كَانَ لِلرَّحْمَنِ عَصِيًّا ﴾[2] وقوله سبحانه : ﴿ وَمَا كَفَرَ سُلَيْمَانُ وَلَكِنَّ الشَّيْاطِينَ كَفَرُواْ ﴾[3] .

وبهذا يكون الله تعالى قد أوجد فى ملكه الطائعين عن قبول ، وأوجد الذين يفعلون ما يؤمرون وهم خائفون ، وأوجد العصاة الكافرين ، ولم يبق إلا إيجاد أهل الاختيار الذين يحملون إمكانيات الفعل أو الامتناع عنه ، ويتمتعون بقدرهم على الطاعة أو العصيان ، ولهم عقول بها يختارون بين الكفر والإيمان ، فأوجد الله سبحانه آدم عليه السلام وجعله فى الأرض ، وسخر له ﴿ مَّا فِى السَّمَاوَاتِ وَمَا فِى الْأَرْضِ جَمِيعًا مِّنْهُ ﴾[4] وزين له ما يختاره ، فإن اختار الإيمان زينه له سر قوله تعالى : ﴿ وَلَكِنَّ اللَّهَ حَبَّبَ إِلَيْكُمُ الإِيمَانَ وَزَيَّنَهُ فِى قُلُوبِكُمْ ﴾[5] وإن اختار عدم الإيمان زين له عمله سر قوله : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالآخِرَةِ زَيَّنَّا لَهُمْ أَعْمَالَهُمْ فَهُمْ يَعْمَهُونَ ﴾[6] وكذلك خلق الله الإنسان وجمع فيه كل ما فى الوجود من ماديات ، وميزه عن سائر المخلوقات بما أودعه فيه من معنويات ، وأهله لحمل

١- سورة النحل آية ٤٩ ــ ٥٠ .

٢- سورة مريم آية ٤٤ .

٣- سورة البقرة آية ١٠٢ .

٤- سورة الجاثية آية ١٣ .

٥- سورة الحجرات آية ٧ .

٦- سورة النمل آية ٤ .

الأمانة ، بعد أن وهبه القدرة على التمييز بين الحق والباطل ، ثم بعث لـــه النبـــيين مبشرين ومنذرين وختمهم برسوله الأمين ﴿ ﷺ وآله﴾ وأمره أن يقول للنـــاس أجمعين :

﴿ فَمَن شَاءَ فَلْيُؤْمِن وَمَن شَاءَ فَلْيَكْفُرْ ﴾[1] نحمده ونشكره على أن جعلنا مؤمنين ، ونسأله من فضله حسن الخاتمة فى الدنيا ويوم الدين .

قوله تعالى : وَأَقْسَمُواْ بِاللّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ لَئِن جَاءتْهُمْ آيَةٌ لَّيُؤْمِنُنَّ بِهَا قُــلْ إِنَّمَا الآيَاتُ عِندَ اللّهِ وَمَا يُشْعِرُكُمْ أَنَّهَا إِذَا جَاءتْ لاَ يُؤْمِنُونَ (١٠٩)

ولقد نجد سبب نزول هذه الآية فيما رواه ابن جرير عن محمد بن كعـــب القرظى أنه قال : كلم رسول الله﴿ ﷺ وآله﴾ قريشا يدعوهم إلى الإيمـــان بـــالله واليوم الآخر ، فقالوا : إنك أخبرتنا عن موسى وعصاه الـــتى كـــان يفعـــل بهـــا المعجزات ، وأن عيسى كان يبرىء الأبرص والأكمة ويحيى الموتى ، وأن ناقة صالح كانت آية لثمود ، فائتنا بآية نصدقك فيما تدعو إليه ، فقال لهم رســـول الله﴿ ﷺ وآله﴾ : ((أى شيء تحبون أن آتيكم به ؟)) قالوا : تجعل جبل الصفا ذهبا ، قال : ((إن فعلت تصدقونى ؟)) قالوا : نعم ﴿ وَأَقْسَمُواْ بِاللّهِ جَهْدَ أَيْمَـــانِهِمْ لَـــئِن جَاءتْهُمْ آيَةٌ لَّيُؤْمِنُنَّ بِهَا ﴾ ولحرص رسول الله ﴿ ﷺ وآله﴾ علـــى هدايتـــهم إلى الإيمان بالحق ، دعا ربه أن يحقق لهم طلبهم ، فجاءه جبريل وقال له : إن شـــئت أصبح الجبل ذهبا ، فإن لم يصدقوا ـــ مثل الذين سبقوا ـــ أهلكهم الله ، أو عذبهم عذابا شديدا فى الدنيا والآخرة ، وإن شئت فاتركهم حتى يؤمن من قـــدر الله لـــه الإيمان عن اختيار واقتناع ، ويتوب على الحق من قدر الله له التوبة عن محبة ورضا ، و ﴿ قُلْ إِنَّمَا الآيَاتُ عِندَ اللّهِ ﴾ أى : قل لهم إنما المعجزات وخوارق العـــادات أمور خاضعة لمراد الله تعالى يترلها على من يشاء وكما يشاء ﴿ وَمَا يُشْعِرُكُمْ أَنَّهَا

١- سورة الكهف آية ٢٩ .

إِذَا جَاءتْ لاَ يُؤْمِنُونَ ﴾ أى : وما يدريكم أن أهل الكفر إذا جاءت الآية يؤمنون بها ، وإن السوابق أثبتت أن أهل الكفر لم يؤمنوا بالمعجزات لما أتتهم ، بل وبعض ضعاف الإيمان فتنوا بها وضلوا ، والدليل قائم بينكم فى معجزة القرآن الذى يتحداكم الرسول﴿ ﷺ وآله﴾ أن تأتوا بمثل أقصر سورة من سوره ، رغم أن لغته هى لغتكم وأنتم أربابها ، ومع ذلك لم تؤمنوا به رغم وضوح عجزكم عن الإتيان بمثله ولو فى آية من آياته .

قوله تعالى : وَنُقَلِّبُ أَفْئِدَتَهُمْ وَأَبْصَارَهُمْ كَمَا لَمْ يُؤْمِنُواْ بِهِ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَنَذَرُهُمْ فِى طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ (١١٠)

﴿ وَنُقَلِّبُ أَفْئِدَتَهُمْ وَأَبْصَارَهُمْ ﴾ أى : ألا يعلم هؤلاء الكفار أن قلوبهم وأفئدهم وأبصارهم بين أيدينا نقلبها كيف يشاء ، ونحولها على أى اتجاه كما نريد ، فنصرفهم عن الهداية والإيمان فلا يهتدون ولا يؤمنون مهما كانت الآيات والمعجزات ، ونعمى أبصارهم عن شهود تجليات الأسماء والصفات فى شتى المجالات فلا يبصرون ﴿ كَمَا لَمْ يُؤْمِنُواْ بِهِ أَوَّلَ مَرَّةٍ ﴾ أى : وكما لم يؤمنوا به أول الأمر سيظلون على كفرهم وتكذيبهم مهما أتيناهم بالمعجزات وجئناهم بالآيات ، لسابقة السوء التى ستلازمهم ﴿ وَنَذَرُهُمْ فِى طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ ﴾ أى : ونتركهم فى طغيانهم الذى هو من طبيعتهم التى طبعوا عليها ، وعمئهم الذى يلازم كل الطغاة المتكبرين ، فدعهم فى ضلالهم وعدوانهم يترددون ويتحيرون فى كل أمورهم .

وفى هذه الآية الرحيمة إشارة ذوقية تومى إلى مدى رحمة الله تعالى بالأمة المحمدية ، حيث لم يقدِّر سبحانه تحويل جبل الصفا والمروة إلى ذهب ، وإلا لتكالب على هذه المنطقة كل من هب ودب ، وغلب المنافقون المؤمنين على أمرهم ، وادعى غلاة الكافرين الإيمان ، والإيمان منهم براء ، كما ليس ببعيد أن يفتن بهذا المعدن ضعفاء الإيمان فيمكثون بجوار الصفا والمروة يتزاحمون عليه ، ويظلون

يتقاتلون عليه ، ولا يجاهدون فى سبيل الله أحدا ، وبالتالى لا ينشر الإسلام فى أى بلد .

وفى طى هذه الآية إشارة أخرى تبين أن المعجزات على نوعين مختلفين :

١ ــ إحداهما معجزة حسية وقتية لا يتعدى تأثيرها من شاهدوها ــ مثل معجزات موسى وعيسى عليهما السلام ــ فيؤمن بها البعض ويكفر بها البعض الآخر ، ثم تصير بعدها رواية تروى وحديثا يتواتر ، للسامعين بها الحق ــ كل الحق ــ فى أن يصدقوها أو يكذبوها .

٢ ــ والمعجزة الأخرى معنوية دائمة الحجة والبرهان ، ساطعة البلاغة والبيان ، كمعجزة القرآن ، الذى سيظل نورا لأهل الإيمان فى كل وقت وآن ، يشهد على صدق نبوة الختام محمد الأمين عليه الصلاة والسلام .

تم بحمد اللّه وحسن توفيقه الجزء السابع

ويليه الجزء الثامن وأوله قوله تعالى : (ولو أننا نزّلنا ...)

الفهرس

الموضوع الصفحة

تفسير قوله تعالى : ((لتجدن أشد الناس عداوة ...))

من مال قلبه لليهود مرق من الدين كما يمرق السهم من الرمية

أمر من الله ألا يحرموا طيبات ما أحل الله أو يتجاوزوا عن الحد الذى حده الله

بيان أنواع الإيمان وأنواع الكفارة

بيان التدرج القرآنى فى تحريم الخمر

بيان أن الخمر والميسر تسبب العداوة والبغضاء

السر فى أن الله تعالى كرر الأمر بالتقوى فى آية واحدة

بيان أن فى تيسر الصيد على الصياد اختبار وامتحان

بيان نهى المحرم عن قتل الصيد وكفارة ذلك

تفسير قوله تعالى : ((جعل الله الكعبة البيت الحرام ....))

بيان فى وسعة علم الله تعالى

بيان أن خير الأمور الوسط

بيان فى معنى الخبيث ومعنى الطيب

بيان أن الله ينهى المؤمنين عن الأسئلة التى تقتضى التشديد عليهم

أهل ألإيمان الكامل يسلمون لله تسليما

بيان أن الكفار غيروا دين اسماعيل وحكموا بهواهم فضلوا وأضلوا

بيان أن الله تعالى نفى العلم عمن يعلمون علوم الدنيا فقط

بيان الفرق بين الاقتداء والتقليد

حقيقة معنى أمر الله تعالى بقوله : ((عليكم أنفسكم ....))

بيان الحالة الوحيدة التى أجازت فيها الشريعة شهادة غير مسلمين على مسلم
بيان أن مصيبة المسلم مصيبة لمن معه من المسلمين
تفسير قوله تعالى : ((يوم يجمع الله الرسل ....))
بيان فى بعض النعم والمعجزات التى أفاضها الله تعالى على عيسى عليه السلام
بيان أن الحواريين عندما طلبوا إنزال مائدة من السماء لم يكن عندهم شك فى قدرة الله تعالى
بيان أن الحواريين قدموا الشهوة الجسمانية على الأعمال الروحانية
بيان أن عيسى عليه السلام قدّم حقوق الروح على حقوق الجسم
بيان فى أدب عيسى عليه السلام مع الله تعالى ورهبته منه
بيان أن خَلْق آدم أعجب من خَلْق عيسى عليهما السلام
تفسير قوله تعالى : ((الحمد لله الذى خلق السموات والأرض
بيان فى معنى الحمد
بيان فى معنى الأجل الذى قضاه الله ومعنى الأجل المسمى
بيان أن الله تعالى بكل شىء عليم
بيان فى معنى كلمة : الهلاك
أهل الكفر بالله أهل عناد لا يعقلون عن الله ولا عن أنبيائه شيئا
بيان سبب النقم التى تنزل بالجامعات الإسلامية
رحمة الله تعالى سبقت غضبه
تفسير قوله تعالى : ((وله ما سكن ....))
آية من الله تعالى قصمت ظهور أهل التمنى
بيان انفراد الله تعالى بالضر والنفع

بيان أن الله تعالى واحد لا شريك له
أهل الكتاب يعرفون النبى ﴿ ﷺ وآله﴾ كما يعرفون أبناءهم لكن الذين خسروا أنفسهم كفروا به
أهل الكفر يكذبون على أنفسهم
أهل الكفر بالله على قلوبهم أكنة تمنعها عن التلقى عن الله تعالى
الله تعالى مؤانس النبى ﴿ ﷺ وآله﴾ ويسُّره ، والكفار يهلكون أنفسهم
الكفار يتمنون يوم القيامة الرجعة الى الدنيا لما يعتريهم من الفزع الأكبر
الإيمان بالغيب هو الإيمان المقبول عند الله تعالى
بيان أن المشركين يحملون أوزارهم على ظهورهم
رسول الله ﴿ ﷺ وآله﴾ حى حياة باقية حتى بعد انتقاله إلى الرفيق الأعلى
تسلية وتعزية وتثبيت من الله لفؤاد رسول الله ﴿ ﷺ وآله﴾
من كمال تأديب الله لرسوله ﴿ ﷺ وآله﴾ وتأديب من الله لأهل الإيمان
تفسير قوله تعالى : ((إنما يستجيب الذين يسمعون ....))
بيان الحكمة فى عدم إنزال الآية التى طلبها أعداء الله
بيان فى معنى المثلية بين الأمم
بيان فى معنى الحشر
بيان أن المشيئة المطلقة لله تعالى
بيان فى معنى القسوة فى القلب
شر وصلة بإبليس فى الإنسان هى الأمانى

دول أوربا وأمريكا وأهل الكفر استحقوا أن تجرى عليهم سنة الله فى خلقه وهى أن يهلكهم الله
بيان أن الله تعالى يهلك الظالمين وينجى المؤمنين
المؤمنون المصلحون لا خوف عليهم فى الدنيا ولا عند الموت ولا البرزخ ولا يوم القيامة
بيان أن أنواع الوحى عشرة
أمر من الله تعالى لرسول ﴿ ﷺ وآله﴾ ألا يطرد الذين يدعون ربهم بالغداة والعشى يريدون وجهه
بيان فى فضل الدعاء
بيان من أسرار معانى ((يريدون وجهه))
بيان فى وسعه رحمة ربنا جل شأنه
الله يأمر رسوله ﴿ ﷺ وآله﴾ بالأسلوب الأمثل فى الدعوة إلى الله تعالى
تفسير قوله تعالى : ((وعنده مفاتح الغيب ...))
بيان أنواع الغيب
بيان أن النوم موتة صغرى
بيان أن المولى الحق الذى يرد إليه الخلق فى النهاية هو الله تعالى
بيان أن الله يقيم الحجة على عباده
بيان قدرة الله على أن يضر الخلق بما كسبت أيديهم
نبوءة القرآن تتحقق ويشتد بأس المسلمين بعضهم على بعض
أمر من الله تعالى للمؤمنين بالإعراض عمن يخوضون فى آيات الله
بيان أنه ليس للخلق من دون الخالق ولىّ يتولاهم
أمر من الله تعالى لعباده بإقامة الصلاة والتجمل بالتقوى له سبحانه

تفسير قوله تعالى : ((وإذا قال إبراهيم لأبيه آزر ...))
بيان أن الله تعالى حفظ نبيه ﴿ﷺ وآله﴾ فى الأصلاب الطاهرة والأرحام الطيبة
إبراهيم عليه السلام يتخذ أسلوب الحكمة فى دعوة الجاهلين ذوى العقول البسيطة
بيان صفات من لهم الأمن وهم مهتدون
بيان بعض الأنبياء والرسل الذين تفضل عليهم الله ورفع درجاهم
بيان فى بعض الكتاب والحكم والنبوة
بيان أن الدعاة إلى الله تعالى لا يسألون الناس أجراً على دعوهم
بيان قواعد الدين الأربع
اليهود يُظهرون من التوراة ما يوافق أغراضهم ويخفون كثيرا
بيان أن قلب النبى ﴿ﷺ وآله﴾ هو بيت الله المعمور بالله وإشارة إلى بركات القرآن الكريم
بيان أن الكذب على الله تعالى ظلم لا نهاية لبشاعته
اشارة إلى أن الإنسان فى البداية كان فى صورة لطائف روحية صافية
تفسير قوله تعالى : ((إن الله فالق الحب والنوى ...))
بيان وحدانية الله تبارك وتعالى وانفراده بالإيجاد والامداد
بيان أن المشركين يتوهمون لغير الله قدرة على النفع والضر ويفترون على الله كذبا
بيان فى الفرق بين الإدراك والرؤية
بيان خطأ من أدعى أن النبى ﴿ﷺ وآله﴾ يتلقى من غير الله تعالى
الله تعالى ينهى المسلمين عن سب آلهة المشركين

بيان أن الإنسان هو العالم الوسط

أهل الكفر لم يؤمنوا بالمعجزات لما أتتهم

بيان وسعة رحمة الله تعالى بالأمة المحمدية وأن القرآن معجزة دائمة الحجة والبرهان

من مؤلفات الامام المجدد السيد محمد ماضي ابوالعزائم

فى جانب تفسير القرآن :

١- هذا السفر الجليل " أسرار القرآن ".

٢ تفسير سورة القدر.

فى جانب العقيدة :

١- كتاب عقيدة النجاة .

٢- كتاب الإسلام دين الله وفطرته التى فطر الناس عليها.

فى جانب العلوم الفقهية:

١- كتاب أصول الوصول لمعية الرسول ﴿ ﷺ وآله﴾.

٢- صيام أهل المدينة المنورة.

٣- هداية السالك إلى علم المناسك .

فى جانب السيرة النبوية والرد على المستشرقين:

١- سيرة النبى ﴿ ﷺ وآله﴾

٢- وسائل إظهار الحق .

فى جانب ما يجب أن يعرفه المسلم :

١- النشأة الثانية.

٢- الوسيلة وما إختلف فيه من السنة والبدعة.

٣- الشفاء من مرض التفرقة.

٤- الجفر.

٥- تحذير الدين من بيع أراضى فلسطين.

٦- النور المبين لعلوم اليقين ونيل السعادتين.

٧- الرد على نظرية دارون.

فى جانب الأخوة الإسلامية :

١- الإسلام نسب يوصل إلى رسول الله ﴿ﷺ **وآله**﴾.

٢- الإسلام وطن والمسلمون جميعا أهله.

فى جانب المناسبات الدينية :

١- السراج الوهاج فى الإسراء والمعراج

٢- بشائر الأخيار فى مولد المختار

٣- مشارق البيان فى فضائل شعبان

٤- لبيك اللهم لبيك.

فى جانب المسرحيات الدينية :

١- محكمة الصلح الكبرى.

٢- العالم والتاجر والفلاح.

٣- المقتصد والمسرف والفاسد.

٤- السياسى والحكيم والغشيم.

٥- الصالح واللص والسكرى.

فى جانب الصلوات والأدعية :

١- نيل الخيرات بملازمة الصلوات.

٢- الفتوحات الربانية والمنح النبوية فى الصلاة على خير البرية.

٣- الأدعية والاستغاثات الكبرى.

فى جانب التصوف :

١- شراب الأرواح من فضل الفتاح.

٢- تذكرة المرشدين والمسترشدين.

٣- معارج المقربين.

٤- الطهور المدار على قلوب الأبرار.

٥- من جوامع الكلم.

٦- الطريق إلى الله تعالى.

٧- الفرقة الناجية.

٨- دستور السالكين طريق رب العالمين.

٩- دستور آداب السلوك إلى ملك الملوك.

١٠- مصطلحات الصوفية

١١- آداب أل العزائم

١٢- دروس تزكية النفوس

١٣- موارد أهل الصفا

١٤- قبس من المضنون

١٥- الصوفية والتصوف

فى جانب المواجيد:

١- مواجيد شهر محرم، صفر، ربيع أول، ربيع آخر، جماد أول، جماد آخـــر، رجب، شعبان، رمضان.

٢- المواجيد العزمية فى مواجهة الروضة الحسينية.

٣- ديوان ضياء القلوب من فضل علام الغيوب.

أســرار القــرآن

الجزء الرابع

للإمام المجدد السيد محمد ماضي أبي العزائم.

مسجده وضريحه ومكتبته العلمية بالقاهرة

ومشيخة الطريقة العزمية

السيدة زينب : تقاطع شارع مجلس الشعب مع تقاطع شارع بورسعيد

تليفون المكتبة/

002 022 3901030